ليو تولستوي

السعادة الزوجية
أو
بوليكوشكا

روايات



ترجمة: د. سامي الدروبي

ليو تولستوي

السعادة الزوجية و بوليكوشكا

روايات

ترجمة: د. سامي الدروبي

التنوير

ليو تولستوي

السعادة الزوجية

أو

بوليكوشكا

روايتان

الكتاب: السعادة الزوجية وبوليكوشكا/ روايتان
المؤلف: ليو تولستوي
المترجم: سامي الدروبي
عدد الصفحات: 256 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-98-6

الطبعة الأولى: 2013

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932

تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

السَّعَادَةُ الزَّوجيَّة

1859
القسم الأول

- 1 -

كنـا في حداد على وفـاة أمي، التي ماتت في الخريـف، وكنا نقضي الشتاء وحيدات في الريف: أنا وكاتيا وصونيا.

أمـا كاتيـا فهي صديقـة المنزل من قديـم الزمان، وهـي المربية التي نشّـأتنا، فكنت أحبها كثيراً، وكنت أذكرها الى أبعد عهد تبلغه ذكرياتي، وأما صونيا فهي أختي التي تصغرني. كان شـتاءً حزيناً في منزلنا القديم في بوكروفسـكايا. الجو بارد، والريح شديدة، والثلج أعلى من النوافذ. وزجـاج النوافـذ يغشـاه الصقيع، فلا يشـفّ عن شـيء، ونحـن لم نكد نخرج من المنزل طوال الشـتاء. وكنا لا نُزار إلا لماماً. والذين يزوروننا لا يحملون الى منزلنا شـيئاً من مـرح أو فرح. فوجوههم حزينة جميعاً، وهم يتكلمون بصوت خافت، كأنما يخشون أن يوقظوا أحداً من نومه. لا يضحكون أبداً، ويتنهدون ويبكون في كثير من الأحيان حين ينظرون إلينـا، إلـيَّ والى أختـي الصغيـرة صونيا خاصـةً، ونحن بثيـاب الحداد السـوداء. لكأن المـوت لا يزال حاضراً، ولكأن حزنـه وهوله لا يزالان يهوِّمـان فـي المنـزل. كانت غرفة ماما مـا مرتجة، فكنت اذا مـررت ببابها

المغلق حين أمضي الى النوم، أشعر بثقل يجثم على صدري، وأحس بشيء يجذبني الى تلك الغرفة الباردة المقفرة.

كنت حينئذ في السابعة عشرة من عمري. وكانت أمي، في سنة موتها نفسها، قد قررت أن نقيم بالمدينة لتدخلني في المجتمع. ولقد أحدث وفاة أمي في نفسي لوعة شديدة، ولكن يجب أن أعترف أنني كنت أحس عدا تلك اللوعة بشيء آخر: لقد كنت شابة وجميلة، كما يقول جميع الناس، فكان يحزنني أن أراني مضطرةً الى المكث في عزلة الريف شتاءً آخر يضيع من عمري سدىً. وقد اشتد هذا الاحساس بالقلق والعزلة والضجر في أواخر الشتاء حتى صرت لا أبارح غرفتي ولا أفتح البيانو ولا أقرأ البتة. فإذا حضتني كاتيا على أن أشغل نفسي بشيء بكيت أو أجبتها قائلة: «ما بي رغبة بهذا، أو لا أستطيع»، بينما كان في قرارة نفسي صوت يقول لي: «علام؟ علام تفعلين أي شيء إذا كانت أحسن سنيّ حياتك تضيع؟ علام؟». ولم يكن عندي على هذا السؤال جواب الا الدموع.

وكان يقال لي في ذلك الأوان اني نحلت وتبشّعت، لكن ذلك ما كان يهمني. علام؟ من أجل من؟... كان يخيَّل إليَّ أن حياتي كلها ستنقضي في هذا الركن النائي من العالم، قلقةً هذا القلق الذي لا دواء له، والذي كنت أملك وحدي قدرةً على الخلاص منه، ولا رغبة في الخلاص منه. حتى لقد خافت عليَّ كاتيا في أواخر الشتاء، وقررت أن ترحل بي الى الخارج مهما يكن الثمن. ولكن الرحيل الى الخارج كان يحتاج الى مال، وكنا نحن لا ندري ماذا بقي لنا من ميراث أمنا تقريباً. فكنا ننتظر الوصي علينا من يوم الى يوم، وكان سيجيء إلينا ليجعلنا على بيِّنة ممن أمرنا.

وقد وصل في شهر آذار (مارس).

قالت لي كاتيا يوماً، بينما كنت أطوِّف من ركن الى آخر كالشبح بلا هدف وبلا فكرة وبلا رغبة:

– الحمد لله! وصل سيرغي ميخائيلوفتش، وقد أرسل يسأل عنا، ويبلغنا أنه آتٍ إلينا في العشاء.

وأضافت كاتيا تقول:

– تحركي قليلاً يا كاتيا، والا فما عسى يكون رأيه فيك؟ إنه يحبك كثيراً!

ان سيرغي ميخائيلوفتش هو أحد جيراننا القريبين وهو صديق المرحوم أبي، رغم أنه أصغر سناً منه. وعدا أن مجيئه يبدل مشاريعنا ويؤمِّلنا في الرحيل عن الريف، فقد تعوّدت منذ طفولتي أن أحبه وأن أحترمه. صدق ظن كاتيا: إن سيرغي ميخائيلوفنا هو، من بين جميع من لنا بهم علاقة، الشخص الوحيد الذي لا أحب أن أظهر أمامه بمظهر غير مستحب. كان جميع من في المنزل، من كاتيا وربيبتها صونيا، الى آخر حوذي، يحبه بحكم العادة، أما في نظري أنا فكان يمثل شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف، وذلك بسبب كلمة قالتها أمي في حضوره، إذ أفصحت عن أمنيتها في أن تراني أتزوج رجلاً مثله. وقد بدا لي الأمر في ذلك الحين باعثاً على الدهشة، بل لقد صدمني صدماً. فبطلي كان يختلف عن هذا الرجل كل الاختلاف. كان بطلي نحيفاً، ممشوقاً، شاحباً، حزيناً. أما سيرغي ميخائيلوفتش الذي تخطى ريعان الشباب، فقد كان مديد القامة بدين الجسم دائم المرح في ما يبدو لي. ومع ذلك كانت هذه الكلمات التي قالتها أمي لا تبارح خيالي، حتى لقد كنت، قبل ست سنين، وأنا في الحادية عشرة من عمري، حين كان يخاطبني

بصيغة المفرد، ويلعب معي، ويلقبني بلقب «البنت البنفسجة»، كنت أتساءل بشيء من الخوف ما عساني أفعل إذا هو رغب فجأة في أن يتزوجني!

وصل قبل موعد العشاء (الذي أضافت اليه كاتيا حلوى بالقشدة وسبانخ بالمرق). وقد رأيته من النافذة مقبلاً نحو المنزل في زلاجة صغيرة، ولكن ما إن انعطف عند ركن الشارع حتى هرعت الى الصالون لأتظاهر بالمفاجأة. غير أنني حين سمعت صوته الرنان ووقع خطوات كاتيا في الصالون لم أطق صبراً فهرعت الى لقائه. كان ممسكاً يد كاتيا، ويبتسم بصوت قوي. فلما رآني صمت وتأملني لحظةً من دون أن يحييني. فشعرت بحرج، وأحسست بالحمرة تصبغ وجهي.

قال بلهجة بسيطة جازمة وهو يباعد ذراعيه ويقبل عليَّ:

- آ... هل يعقل أن تكوني أنت؟ هل يجوز للإنسان أن يتغيّر هذا التغيّر؟ ما أكثر ما كبرت! بنفسجة حقاً! أصبحت وردة حقاً!

وبيده الضخمة، شدَّ علي يدي شداً فيه مودة، ولكن فيه من القوة ما كاد يؤلمني. وحسبت أنه يهم أن يقبّل يدي، فاقتربت منه، لكنه اكتفى بأن ضغط أصابعي وحدَّق الى عينيَّ بنظرته الحازمة الفرحة.

لم أكن قد رأيته منذ ست سنين. لقد تغير وشاخ، واسودَّ جلده، وصار له عارضان لا يناسبان وجهه البتة. ولكن سيرغي ميخائيلوفتش لا يزال يحتفظ ببساطة حركاته، ولا يزال يحتفظ بوجهه الطلق ذي القسمات الضخمة قليلاً، والعينين المتقدتين ذكاءً، والابتسامة الدمثة التي تكاد تكون ابتسامة طفل.

وما انقضت دقائق خمس حتى أصبحنا لا نعده زائراً، وانما نعده

واحداً منا. فكذلك كان شعورنا جميعاً، بل كذلك كان شعور الخدم أيضاً. فلقد كان واضحاً من طريقتهم في خدمته أنهم مبتهجون بمجيئه أعظم الابتهاج.

لم يتصرف كما يتصرف أولئك الجيران الذي كانوا إذا زارونا بعد موت ماما يعتقدون بأنهم مضطرون إلى التزام الصمت وذرف الدموع. بالعكس: كان متدفق الكلام، شديد المرح، لم يشر الى وفاة ماما بكلمة واحدة، حتى إن قلة الاكتراث هذه قد بدت لي في أول الأمر مستغربة لا يليق أن تصدر عن صديق حميم مثله. لكنني أدركت بعد ذلك أن سلوكه هذا لم يكن قلة اكتراث بل كان صراحة، فكنت ممتنة شاكرة. وفي المساء جلست كاتيا في مكانها القديم من الصالون لتقديم الشاي، وهو المكان الذي كانت تجلس فيه أثناء حياة ماما. وجلسنا أنا وصونيا بقربها. وجاء غريغوار العجوز الى سرغي ميخائيلوفتش بغليون بابا القديم، بعد أن بحث عنه واهتدى إليه لهذه المناسبة، وأخذ صديقنا يذرع الغرفة على عهدنا به في الماضي.

قال وهو يتوقف عن سيره:

– ما أكثر ما حدث في المنزل من تغيرات هائلة إذا فكر الإنسان في الأمر!

فقالت كاتيا متنهدة وهي تعيد الى السماور غطاءه:

– نعم!

ونظرت الى ضيفنا وهمَّت أن تبكي!

واستأنف سرغي ميخائيلوفتش كلامه متجهاً إليَّ:

– أظن أنك تذكرين أباك؟

فأجبته:

- قليلاً جداً.

فهمهم يقول وهو ينظر إليَّ شارد اللب، ويسرِّح طرفه في ما فوق عينيَّ:

- ما كان أعظمه من خير أن يكون الآن حياً يعيش معكم.

ثم أضاف يقول بصوت أخفت أيضاً:

- لقد كنت أحب أباك حباً عظيماً.

وخيِّل إليَّ أن عينيه التمعتا مزيداً من الالتماع.

قالت كاتيا:

- وها قد حرمنا الله منها هي أيضاً!

ثم سرعان ما وضعت المنشفة على غلاية الشاي، لتخرج منديلها وتنفجر باكية. فعاد سرغي ميخائيلوفتش يقول وهو يشيح وجهه:

- نعم! يا لها من تغيرات رهيبة تلك التي حدثت في هذا المنزل!

وأردف يقول بعد صمت قصير:

- صونيا، أريني لعبك!

وخرج.

فلما غاب نظرت الى كاتيا بعينين تفيضان بالدموع. فقالت كاتيا:

- يا له من صديق رائع!

والحق أني أحسست من عطف هذا الرجل الطيب بأنني أسترد حرارة روحي ورباطة جأشي.

وكانت تصل إلينا من الصالون زقزقات صونيا وجلبة سرغي ميخائيلوفتش في ملاعبتها. وأمرت بأن يحمل إليه الشاي. وسمعناه يجلس إلى البيانو وينقر على مفاتيحه بأصيبعات صونيا. ثم دوى صوته منادياً:

- ماريا ألكسندروفنا! تعالي الى هنا! اعزفي لنا شيئاً!

لقد سرَّني كثيراً أن أعامَلَ بمثل هذه السلطة التي تملأها المودة والصداقة. ونهضت ألحق به.

قال وهو يفتح دفتراً يضم معزوفات لبيتهوفن، مشيراً إلى لحن «التمهل» من سونانة «شبه فانتازيا»:

- اعزفي لنا هذا!

وأضاف:

- فلنر كيف تعزفين!

ونأى الى ركن من الصالون حاملاً بيده قدح الشاي.

لا أدري لماذا عرفت أنني معه لا أستطيع أن أرفض، ولا أن أمهِّد للعزف بكلام عن ضعفي في العزف. فما هي إلا لحظة حتى جلست الى البيانو طائعة، وأخذت أعزف كما أستطيع أن أعزف، على تهيبي حكمه وخوفي من رأيه، لأنني كنت أعرف أنه يهوى الموسيقى وأنه في شؤونها عليم. ولقد كان اللحن المتمهّل يناسب ما كنت فيه من حالة استيقاظ الذكريات على أثر الحديث الذي جرى بيننا منذ هنيهة. وأظن أن عزفي لم يكن سيئاً. ولكنه لم يدع لي أن أعزف اللحن السريع (الشيرزو). وانما قال وهو يقترب مني:

- لا، هذا لن تجيدي عزفه. فاتركيه. أما في القسم الأول فقد عزفت عزفاً لا بأس به. يبدو أنك تفهمين الموسيقى.

أبهجني هذا الثناء المعتدل بهجة عظيمة، حتى لقد تخضب وجهي بحمرة شديدة. إنه لشيء جديد عليّ وممتع لي أن أرى صديقاً في منزلة

أبـي يكلمني بمثل هذا الجد فرداً لفرد لا رجلاً لطفل كما كان يفعل من قبـل. وكانت كاتيـا قد صعدت بصونيا لترقدها في فراشـها، فبقينا نحن الاثنان في الصالون.

حدثنـي عن أبي، فذكـر لي كيف انعقـدت بينهما أواصـر الصداقة، ووصـف لـي الحياة السـعيدة التـي عرفاها فـي الماضي حيـن كنت لا أزال مشـغولة بكتبي ولعبي. فبدا لي أبي في قصصه، لأول مرة، انسـاناً بسـيطاً جذابـاً، كمـا لـم أكـن أعرفه حتى ذلك الحين. وسـألني سـرغي ميخائيلوفتـش أيضاً عن ميولي، وعمَّا أقرأ، وعن كل ما أنتوي أن أفعل، وأسدى إليَّ بنصائح. فأصبحت لا أرى فيه النديم المرح والمازح الفكه الذي كان يغيظني ويخترع لي ألعاباً، وإنما أرى فيه رجلاً رصيناً بسـيطاً ودوداً أضمر له الاحترام والمحبة من تلقاء نفسي بلا تصنّع. وصرت إذا كلمته أحسّ بسهولة وأشعر بمسرّة، ولكنني أحس رغم إرادتي بنوع من التوتر، حتى لأرتعش لكل كلمة أقولها، إذ كنت أرغب رغبة قوية في أن أستحق بنفسي هذه العاطفة التي لا يهبها لي إلا لأنني ابنة أبي.

وعـادت إلينـا كاتيـا بعـد أن أرقـدت صونيـا، فشـكت الـى سـرغي ميخائيلوفتش ما كنت أعانيه من خدر الإحساس وخمول العاطفة، وذلك ما لـم أحدِّثه عنه أنا بكلمة واحدة. فقال مبتسماً، وهو يهز رأسه لائماً:

– أخفت عني الشيء الأساسي.

فقلت أجيبه:

– ما عسى يمكنني أن أقول؟ ذلك كله يبعث على الضجر، ولسوف يزول وينقضي على كل حال.

(والحـق أننـي كنت قد أحسسـت منـذ ذلـك الحين بـأن قلقي زال

وانقضى، بل أحسست بأنه ما وجد في يوم من الأيام!).

قال سرغي ميخائيلوفتش:

- ليس حسناً أن لا يعرف المرء كيف يتحمل العزلة. أأنت فتاة في مقتبل العمر؟

فقلت ضاحكة: طبعاً!

- بل أنت إنسانة سيئة لا تحيا إلا إذا أحيطت بالإعجاب. فمتى رأيت نفسك وحيدة استسلمت لأفكار سود، فإذاً أنت لا ترضين عن شيء لأنك تريدين كل شيء للظهور ولا تبغين لنفسك أنت شيئاً.

قلت لأقول شيئاً ما:

- ما أجمل ما تراه فيَّ من رأي!

فقال بعد صمت:

- لا، ليس عبثاً أنك تشبهين أباك. هناك ما يسوِّغ هذا الشبه.

ورمقني بنظرة طيبة متفرِّسة أثارت رضاي عن نفسي مرة أخرى، وأحدثت لي شعوراً لذيذاً بالحرج.

وفي تلك اللحظة إنما رأيت، وراء قسماته التي تبدو فرحة من النظرة الأولى، رأيت تلك النظرة التي ليس لغيرها مثلها، وهي نظرة مضيئة في البداية لكنها ما تنفك تزداد انتباهاً وحزناً.

قال:

- لا يجب عليك ولا يجوز لك أن تسأمي. عندك الموسيقى وأنت تفهمينها، وعندك الكتب والدراسة، وأمامك حياة كاملة تستطيعين أن تأخذي في الاستعداد لها حتى لا تصيبك ندامة أو حسرة من بعد. فاذا انقضت سنة وأنت على هذه الحال فات الأوان.

كان يكلمنـي كما يمكن أن يفعل أب أو عم، وأحسسـت بأنه يراقب نفسـه حتى يبقى في مسـتواي لا يتعداه، فكان يضايقني أن أراه يعاملني معاملـة مـن هي دونه مسـتوى، ولكن كان يرضيني في الوقت نفسـه أن أراه يبدل مظهره في سبيلي أنا وحدي.

وقضى بقية السـهرة يناقش كاتيا في شـؤون المـال، حتى إذا أراد أن ينصرف دنا مني وأمسك يدي، وقال:

- والآن أستودعك الله!

فسألته كاتيا:

- متى نلتقي مرة أخرى؟

فأجاب سرغي ميخائيلوفتش وكان لا يزال ممسكاً يدي:

- فـي الربيـع. الآن أمضي الى دانيلوفكا (هي أرض أخرى من أملاكنا)، فأعرف ما أريد أن أعرفه، وأرتّب ما أسـتطيع أن أرتّبه، وبعد ذلك يجب عليَّ أن أسـافر الى موسـكو لأعمالي الشـخصية. فاذا جاء الصيف كان في وسعنا أن نلتقي كثيراً.

قلت بحزن شديد:

- لماذا تتركنا مدة طويلة هذا الطول كله؟

ذلك أنني كنت قد أملت أن أراه كل يوم بعد الآن. فلما تصورت أن قلقي وسأمي سيعاودانني متى غاب، شعرت بخشية شديدة وحزن قوي على حين فجأة. ولا شك أن ما شعرت به قد تجلّى في نظرتي وظهر في صوتي، فقال لي بلهجة فاترة مسرفة في الفتور:

- عليك أن تشغلي نفسك بشيء، وأن لا تنقادي للضجر.

وأضاف يقول وهو يترك يدي ولا ينظر إليَّ:

- سوف أمتحنك في الربيع.

وكنـا وصلنا الى حجرة المدخل، فأسـرع يلبس معطفه، وتفرس فيًّ مرة أخرى. قلت أحدث نفسـي: «عبثاً يحاول. أيظن أنه يسـرني إذا هو نظر اليَّ؟ إنه رجل طيب، طيب جداً، ولكن هذا كل شيء».

ومـع ذلك أرقنا في تلك الليلة مـدة طويلة أنا وكاتيا، وتكلمنا، لكننا لم نتكلم عن سـرغي ميخائيلوفتش، بل عن الصيف كيف نقضيه، وعن الشـتاء التالي أين نكون فيـه؟ وأصبح ذلك السـؤال الرهيب: «علام؟» لا يخطـر ببالي، وأصبح يبدو لي أمراً بسـيطاً جـداً وبديهياً جداً أن أحيا لأكون سعيدة، وأصبح يتراءى لي في المستقبل كثير من السعادة. لكأن منزلنا المظلم القديم في بوكروفسـكويا قد امتلا حياة وضياء على حين فجأة.

- 2 -

جـاء الربيـع. انقضى حزني، وحل محله استسـلام لأحـلام الربيع، ونـوع من حنين زاخـر بآمال ورغبات، رغم أننـي أصبحت لا أحيا كما كنت أحيا في أول الشتاء، لأنني أعنى الآن بصونيا، وأعزف على البيانو، وأقرأ. كان يتفق لي في أحيان كثيرة أن أعتزل في الحديقة، فأظل أطوِّف بيـن ممرات الأشـجار لحظات طوالاً، أو أبقى جالسـة على دكة. والله وحـده يعلم ما الذي كنت أسترسـل فيـه من أفكار أو رغبـات أو آمال. وكنت في بعض الأحيان، حين يكون القمر بدراً على وجه الخصوص، أبقى ليالي بكاملها جالسة الى نافذة غرفتي حتى الصباح، أو أخرج الى الحديقة بغير علم كاتيا لابسة قميص النوم وحده، فأركض على العشب المخضّـل بالندى حتى أصـل الى الغدير، بل لقد اتفـق لي ذات مرة أن مضيت الى الحقل، ودرت حول الحديقة العامة وحيدة في الليل.

يصعـب عليَّ اليـوم أن أتذكر وأن أفهـم الأحلام التـي كانت تغذِّي خيالي. وهبني تذكرتها فإنني لا أسـتطيع أن أصدِّق أن أحلامي كان لها

ذلـك المظهر، فهي تبدو لي غريبة أشـد الغرابة، وتبـدو لي خارجة عن الحياة أبعد الخروج.

وعـاد سـرجي ميخائيلوفتـش مـن أسـفاره في آخر شـهر أيـار، كما وعدني بذلك.

وزارنـا أول زيارة في المسـاء، بينما نحن لا نتوقـع وصوله البتة. كنا جالسات على الشرفة نتهيأ للشاي. الحديقة اخضرّت اخضراراً شديداً، وفي الرياض المزهرة اتخذت العنادل مقرها. وأشـجار الليلك الكثيفة تبدو مرشوشـة بلون أبيض ولون بنفسجي. والأزهار توشك أن تتفتح. وفـي ممـر أشـجار البتول تبـدو الأوراق شـفافة عند غروب الشـمس. وعلى الشرفة تسـود طراوة الظل. وأنداء المساء القوية تستعد للسقوط علـى العشـب الأخضـر. ومن فنـاء المنـزل وراء الحديقـة كانت تصل إلـى أسـماعنا أواخر ضجات النهـار، ويصل اليها وقع أقدام المواشـي عائـدة من مراعيهـا. وكان نيكـون المجـدوب يطوف ببرميل مـاء أمام الشـرفة في ممر الأشـجار الصغيـر، فكان خيط نحيل من مـاء بارد ينبع مـن هذه المرشـة علـى الأرض المقلوبة حول الأشـجار فيرسـم دوائر سـوداً. وعلى مائدة الشـرفة التي فـرش عليها غطاء نظيـف، كان يلتمع السـماور المجلو الذي يغلي ماؤه، وسـط آنية فيها قشـدة، وبسكويت، وفطائـر. وكانت كاتيا تشـطف الفناجين بيديها الربلتيـن. وكنت جائعة بعد الاسـتحمام فكنت ألتهم شـريحة من خبز دهنتها بطبقة سميكة من قشـدة. وقد عقدت منديلاً على شـعري المبتلّ. وكنت ألبس بلوزة من نسيج رقيـق، قصيـرة الكمين. أبصرته كاتيـا من النافذة قبـل أن نبصره نحن، فهتفت تقول:

- آ... سرجي ميخائيلوفتش! كنا نتكلم عنك منذ لحظة واحدة.

ونهضت لأمضي أبدل ثيابي، ولكن سرجي ميخائيلوفتش دخل الشرفة لحظة كنت أقطع العتبة. فقال وهو يبتسم لمرأى رأسي المعصوب بمنديل:

- أكلفة واحتفال ونحن في البرية؟ أتتحرَّجين من جريجوار؟... هل أنا بالنسبة إليك إلا جريجواراً آخر؟

وفي تلك اللحظة بعينها بدا لي أنه كان لا ينظر اليَّ كما كان يمكن أن ينظر إليَّ جريجوار، فشعرت من ذلك بارتباك.

قلت وأنا أبتعد:

- سأرجع حالاً.

فصاح يسأل:

- ما مأخذك على هذه الثياب؟ إنك تشبهين بها فلاحة فتية!

قلت أحدّث نفسي وأنا أبدل ملابسي في غرفتي بسرعة: «ما كان أغرب نظرته اليَّ! الحمد لله على أنه جاء أخيراً، فلن نضجر بعد الآن!». ونظرت الى نفسي في المرآة، ثم هبطت الدرج راكضة ركضاً سريعاً، لاهثةً لهاثاً شديداً، من دون أن أخفي تعجّلي، ورجعت الى الشرفة.. كان سرجي ميخائيلوفتش جالساً أمام المائدة يكلم كاتيا عن شؤوننا المالية. فلما رآني ابتسم، ولكنه لم يتوقف عن الكلام. كان في رأيه أن أمورنا المالية على خير حال. وإنما ينبغي لنا أن نقضي الصيف في الريف، ثم نستطيع بعد ذلك أن نسافر الى بطرسبرغ لدراسة صونيا، أو أن نسافر الى الخارج.

قالت كاتيا:

- ليتك تستطيع أن تصحبنا الى الخارج. فإننا إذا كنا وحدنا، نضيع هناك كما يضيع المرء في غابة.

أجاب سرجي ميخائيلوفتش يقول نصف جادٍ ونصف هازل:

- آ... ما أعظم ما يكون فرحي بأن أدور حول العالم معكن...

هتفت أقول:

- لا بأس... فلندر حول العالم!

- وأمي؟... والأعمال؟ دعينا من هذا على كل حال، وحدثيني كيف قضيت وقتك؟ هل ألمَّ بك الضجر أيضاً؟

فلما ذكرت له أنني، أثناء غيابه، قد أكببت على العمل ولم أشعر بسأم، وهذا ما أسرعت تؤكده كاتيا، أثنى عليَّ بالكلام والنظرة، كأنني طفلة، وكأن من حقه أن يعاملني معاملة طفلة. وقد رأيت أن عليَّ أن أحدثه بتفصيل دقيق وصراحة كاملة، عن كل ما عملته من أشياء جيدة، وأن أعترف له أيضاً بكل ما قد لا يرضى عنه. وكانت العشية جميلة رائعة، فلم نقم حين انتهت فترة الشاي، بل بقينا جالسين على الشرفة، وبدا لي الحديث شائقاً جداً فلم أتنبه الى الصمت الذي كان يتكاثف حولنا ويطبق علينا. وكان أريج الأزهار يزداد حلاوة فنزداد سكراً، وكان الندى يتلألأ على العشب، وغير بعيد منا غنى عندليب على أجمة من أشجار الليلك، ثم صمت لسماعه ضجة أصواتنا، وكانت السماء الزاهية بالنجوم تبدو كأنها هبطت إلينا.

ولم ألاحظ أن الليل قد أحدق بنا إلا حين غار وطواط تحت طنف الشرفة بغير ضجة، وتخبط حول منديلي الأبيض، فاستندت الى الحائط أهم أن أصرخ، ولكن الوطواط غاب ثانية في ظلام الحديقة صامتاً سريعاً.

فقال سرجي ميخائيلوفتش مقاطعاً نفسه:

- كم أحب قريتكم بوكروفسكويا هذه! إنني أستطيع أن أبقى جالساً على هذه الشرفة حياتي كلها.

قالت كاتيا:

- فما يمنعك أن تبقى؟

وعاد يتكلم فقال:

- نعم، أن أبقى. الحياة لا «تبقى».

سألته كاتيا:

- لماذا لا تتزوج؟ لو تزوجت لكنت زوجاً كاملاً.

فقال متضاحكاً:

- لأنني أحب أن «أبقى قاعداً». لا، يا كاترين كارلوفنا، لا أنا ولا أنت نصلح الآن للزواج. منذ مدة طويلة أصبح الناس لا يرون أنني رجل يصلح لأن يتزوج، وقد عدلت أنا عن الزواج منذ مدة أطول أيضاً، وأؤكد لك أنني من ذلك في صحة أحسن وعافية أكمل.

بدا لي أنه يتكلم بمرح مصطنع.

قالت كاتيا:

- دعك من هذا الكلام! أتكف عن الحياة وأنت في السادسة والثلاثين من عمرك؟

وتابع سرجي ميخائيلوفتش كلامه فقال:

- طبعاً. لا أتمنى الآن إلا أن «أبقى جالساً». أما الزواج فيتطلب شيئاً آخر. اسأليها هي (أشار إليَّ). إنها المرشّحة للزواج. أما نحن فلا يكاد يحق لنا إلا أن نبتهج بسعادتها.

أدركـت في صوته نوعـاً من حزن خبيء، ونوعاً مـن جفاء لم يخف عنـي. ولبـث صامتـاً لحظة. ولـم نقل أنا وكاتيا شـيئاً. وأردف سـرجي ميخائيلوفتش يقول وهو يدور على كرسيه:

- تخيَّلي مثلاً أنني ارتكبت خطأ غريباً فادحاً فتزوجت فتاةً عمرها سـبعة عشـر ربيعاً هي ماش... ماريا الكسـندروفنا. هذا مثال كامل، يسـرني أن أقع عليه. هذا خير مثال ممكن.

أخـذت أضحـك من دون أن أفهم ما الذي يسـرّه هذا السـرور كله، وماذا كان يريد أن يقول.

قال لي مازحاً:

- اعترفـي وأنـت تضعين يدك علـى قلبك: ألا يكون بـلاء لك أن تربطي حياتك بحياة شيخ سئم الحياة ولا يريد إلا أن «يبقى قاعـداً»، على حين أن الله وحده يعلم ماذا يختمر في نفسك وماذا تشتهين وتتمنين.

شعرت بحرج، وصمت لا أدري بماذا أجيب.

فأضاف يقول ضاحكاً:

- لسـت أصارحـك بحـب، ولكـن قولـي لـي صادقـةً: هل بـزوج مثلي تحلمين حين تتنزّهين في ممر الأشجار وحدك عند طلوع الصباح؟ ألا يكون مثل هذا الزواج شقاء لك؟

بدأت أقول:

- ليس شقاء...

فبادر يتم جملتي فقال:

- ولكنه ليس سعادة...

- قد أكون مخطئة...

فقاطعني مرة أخرى قائلاً:

- أرأيتِ؟ وهي على حق تماماً، وإني لأشكر لها صراحتها، وإني لسعيد جداً بأن هذا الحديث جرى بيننا.

ثم أضاف يقول:

- بـل إني لأذهب الى أبعد من ذلك فأقول: إن زواجاً كهذا الزواج يكون شقاء كبيراً لي أنا نفسي.

قالت كاتيا:

- ما أغرب أمرك! إنك لم تتغير.

وغادرت الشرفة لتصدر أوامرها بإعداد العشاء.

لـم نقل بعد مغادرتها الشـرفة كلمـة واحدة، وكان كل شـيء حولنا صمتـاً. العندليب وحده أخذ يغرد، لا كما غرَّد في الليلة البارحة تغريداً متقطعاً متـردداً، وإنما غرّد تغريده الجميل الذي يطلقه في الليل متصلاً هادئـاً بغير تعجل. وانتشـرت ألحانه في الحديقـة، فأجابه عندليب آخر كان بعيـداً فـي الوادي تحـت، أول مرة في هذا الفصـل. فأما الذي كان أقـرب إلينـا فقد صمـت لحظـة كأنما ليحسـن الإصغـاء، ثم اسـتأنف زغرداتـه بمزيـد من الحماسـة، فـكان صوتاهما يترجّعان فـي عالمهما الليلـي الموصـد دوننـا، ترجعـاً هادئاً رائعـاً. ومرَّ البسـتاني عائـداً الى المزرعـة التـي يقيم فيها، وغـاب وقع قدميه الثقيل فـي الطريق الضيق. وعند سـفح التلة صفّر أحد الناس صفيراً حاداً مرتين، ثم عاد كل شـيء صامتـاً. وسُـمع لأوراق الأشـجار حفيـف خفيـف، وارتعـش قمـاش الطنف، وحمل النسـيم الى الشرفة شذى بقي فيها. وكنت أحس بحرج مـن التـزام الصمت بعـد الذي قيـل، ولكنني لا أعرف كيـف أقطع هذا

الصمت. نظرت الى سرجي ميخائيلوفتش، فرأيت في شبه الظلمة أن عينيه الساطعتين تحدقان اليَّ.

- الحياة حلوة!

فتنهدت لا أدري لماذا!

قال:

- ماذا؟

فكررت كلامه:

- الحياة حلوة.

وصمتنا مرةً أخرى، وشعرت بارتباك من جديد. لم يبارح خيالي أنني آلمته اذ سلَّمت بأنه أكبر سناً من أن يصلح لي زوجاً، فأردت أن أواسيه وأن أعزيه ولكن لم أعرف كيف السبيل الى ذلك.

قال وهو ينهض:

- آن الاوان، استودعك الله. أمي تنتظرني على العشاء. ما كدت أراها طوال اليوم.

- ولكنني كنت أريد أن أعزف لك سونانة جديدة!

قال ببرود في ما بدا لي:

- في مرة أخرى!

- استودعك الله!

لاح لي، أكثر من أي وقت مضى، أنني آلمته، فشعرت من ذلك بأسف وحسرة. وشيعناه أنا وكاتيا الى درجات الباب، ولبثنا في الحوش لحظة ننظر الى الطريق التي أخذ يبتعد فيها. حتى إذا غاب عن أسماعنا وقع حوافر الحصان الذي كان يركبه، رجعت الى الشرفة، وعدت أسرِّح

بصـري في البسـتان. فكنت فـي ضباب الندى، حيث سـكنت ضجات الليـل، ما أزال أرى وأسـمع، خلال مدة طويلة، مـا كنت أحب أن أرى وأن أسمع.

عـاد إلينا سـرجي ميخائيلوفتش مرة ثانية فثالثـة، وزال الحرج الذي خلَّفه ذلك الحديث الغريب زوالاً تاماً ثم لم يتجدد أبداً. وظل سـرجي ميخائيلوفتش يزورنا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع طوال الصيف. فبلغت من تعودي عليه وألفتي له أنني صرت أحس بضيق إذا طال غيابه عنا. وكان يعاملني معاملة رفيقة شـابة غالية، ويسـائلني ويحضني على صراحة كاملة، ويسـدي اليَّ نصائح، ويشـجعني، وقـد يؤاخذني أحياناً أو يحذرنـي. وأدركـت رغم الجهد المسـتمر الـذي كان يبذله من أجل أن يبقـى فـي مسـتواي لا يتعـداه، أدركت أن في نفسـه عالماً بأسـره لا يـرى حاجة إلـى إدخالي فيه. فكان ذلك يقوِّي مـا أضمر له من احترام، ويجذبنـي إليه مزيداً من الجذب. وعلمت من كاتيا ومن بعض الجيران أنـه عدا أمه العجوز التي كانت تعيش معه وكان يحيطها بأنواع المداراة والمراعاة، وعدا أعماله الخاصة ووصايته علينا، كان يتولى إدارة النبالة فـي المقاطعـة، فيلقى في هذا العمل مصاعب ضخمـة. أما عن رأيه في المسـألة، وأما عن مشـاريعه في المسـتقبل، وأما عـن اقتناعاته وآماله، فإنني لم أسـتطع أن أعرف شـيئاً في يوم من الأيام. فما أن أذكر شيئاً عن أعمالـه، حتى يبرطم برطمـة خاصة به، كأنما هو يقول لي: «أرجوك، ما شـأنك أنت وهـذا؟»، ثم إذا هو يوجه الحديث الـى موضوع آخر. وقد سـاءني ذلك فـي أول الامر، لكنني ما لبثت أن وجـدت أن من الطبيعي جداً أن لا يتكلم إلا في الشؤون التي تتصل بي أنا.

أمر آخر ساءني في البداية وحلا لي بعد ذلك، هو قلة اكتراثه بمظهري الجسمي، حتى ليكاد يزدري المظهر الجسمي ازدراء. فلا بنظرة من نظراته، ولا بكلمة من كلماته، أفهمني في يوم من الأيام أنني جميلة، حتى لقد كان يبرطم أو يضحك إذا قيل لي بحضوره إنني جميلة، بل كان يحب أن يجد فيَّ عيوباً وكان يحب أن يغيظني. أما أنواع التزين وتسريح الشعر التي كانت كاتيا تحب أن تجمّلني بها في المناسبات الكبرى فكانت لا تثير فيه إلا السخرية والتهكّم والاستهزاء، فكان ذلك يحزن مربيتي الطيبة الشهمة، كما أنه حيَّرني في أول الأمر. إن كاتيا، وقد قطعت بينها وبين نفسها بأنني أعجب سرجي ميخائيلوفتش، لم تستطع أن تفهم كيف لا يحب الرجل أن يرى المرأة الغالية على نفسه في أحلى زينة. أما أنا فسرعان ما أدركت ما كان يريد. كانت تضطرم في نفسه رغبة قوية في أن يؤمن بأنني مبرّأة من كل ميل الى الغندرة. فما أن أدركت ذلك حتى لم يبق بي أثر من آثار الغندرة، لا في ثيابي ولا في تسريحات شعري ولا في سلوكي. حتى لقد أسرفت في البساطة في مرحلة من العمر لم أكن قادرة على البساطة بعد. وكنت أعلم أنه يحبني، ولكنني لم أكن قد تساءلت بعد أهو يحبني كما تُحَبّ طفلة أم كما تُحَبّ امرأة.

كنت أقدّر هذا التعلّق بي، وأشعر بأنه يرى أنني خير فتاة على وجه الأرض، فكان كل ما أتمناه هو أن تدوم هذه الخديعة. وعلى غير إرادة مني كنت أغشّه. لكنني كنت وأنا أغشّه، أتحسَّن. أصبحت أفلح في التعبير عن الجوانب الجميلة من نفسي، لا من جسمي، تعبيراً أتمَّ وأصدق، بوقار أكبر وكرامة أعظم. بدا لي أن يديَّ ووجهي وحتى

عاداتي - سواء أكانت حسنةً أم سيئة - قد قدَّرها هو منذ النظرة الأولى وصار يعرفها، فلا أستطيع أن أضيف الى مظهري الخارجي أي شيء إلا ويكون خداعاً. أما نفسي فهو يجهلها. ولأنه يحبها، ولأنها كانت في ذلك الأوان تتفتح وتنمو، فقد كان في إمكاني أن أغشّه في أمرها. ولم أحرم نفسي من ذلك. ما أعظم ما صارت علاقاتنا سهلة منذ أدركت تلك الحقيقة! اختفى ذلك الحرج الذي لا داعي اليه، وانقضى ذلك الارتباك في حركاتي انقضاءً تاماً. كنت أعلم أنه يعرفني كلي سواء أرآني من أمام أم رآني من جانب، سواء أرآني جالسةً أم رآني واقفة، سواء أكان شعري مرفوعاً أم كان شعري مسبلاً متموّجاً، وكان يبدو لي أنه راض عني معجب بي، كيفما كنت. أظن أنني ما كنت لأشعر بأي فرح لو خالف عاداته مرةً فقال لي، كما كان يفعل الآخرون، إن وجهي جميل. ولكن ما أعظم ما كنت أشعر به من بهجة حين أبدي ملاحظة أو أعبر عن فكرة، فاذا هو ينظر إليَّ ويقول لي بصوت متأثر يريد أن يضفي عليه طابع الهزل والمزاح:

- نعم، نعم، «هناك ما يسوِّغ». انك لفتاة رائعة. وإني لحريص على أن أقول لك ذلك.

ولماذا كنت أنال تلك المكافآت التي كانت تملأ قلبي اعتزازاً وفرحاً؟ لانني أزعم مثلاً أنني أفهم حب جريجوار العجوز لابنته الصغيرة، أو لأنني أتأثر الى حد الدموع بأبيات من الشعر أو برواية من الروايات، أو لأنني أفضّل موتسارت على شولهوف. وكنت أستغرب أنا نفسي تلك الغريزة الخارقة التي كانت تتيح لي أن أدرك ما هو حسن، وأن أحب ما يجب أن أحب، على حين أنني كنت أجهل كل الجهل ما

هو حسـن وما هو جدير بالاهتمام. كان جل عاداتي القديمة لا يرضيه، فـكان يكفـي أن يدلني بحركة من حاجبـه، أو بنظرة مـن عينيه، أو بمط شـفتيه مطاً يدل على شـيء من الاشـمئزاز، معبراً بذلك عن أنه لا يؤيد ما سـوف أقـول، كان يكفي هذا حتى يبدو لي فعـلاً أن ما كنت أحبه قد أصبـح لا يعجبني. وكان يتفق في بعض الأحيان أن يهمَّ بابداء ملاحظة مـن الملاحظـات، فـإذا أنا أعرف ما سـيقوله مـن قبل أن يقولـه. وكان حسـبه أن يلقي عليَّ سـؤالاً وأن ينظـر الى عينيَّ، فـاذا بنظرته توقظ في نفسـي الفكرة التي يتوقعها هي نفسها. جميع أفكاري وجميع عواطفي حينـذاك لم تكن أفـكاري أنا وعواطفي أنا، وإنما هـي أفكاره وعواطفه التـي صارت أفـكاري وعواطفي علـى حين فجأة، ونفـذت الى حياتي فأضاءتها. ومن دون أن أشعر أصبحت أرى جميع الأمور رؤية جديدة، سـواء أكانت تتصـل بكاتيا، أم بخدمنـا، أم بصونيا، أم بي وبمشـاغلي. الكتـب التـي كنت حتى ذلـك الحين لا أقرأهـا إلا دفعـاً للضجر ومنعاً للسـأم أصبحـت فرحاً من أكبر أفـراح حياتي، لا لشــيء الا لأننا تبادلنا بعـض الأحاديـث عن الكتـب، أو قرأناها معاً، أو جاءنـي ببعضها. قبل ذلـك كانـت الدروس التـي أعطيهـا لصونيا التزامـاً ثقيلاً ومهمة شـاقة أقوم بها مضطرةً وأتولاها شـعوراً مني بالواجب. فلما حضرها سرجي ميخائيلوفتش مرةً، أصبح التقدم الذي تحققه صونيا في دراسـتها فرحة كبرى لي. كان تعلم معزوفة موسيقية جديدة يبدو لي أمراً مستحيلاً، أما الآن فلعلمي بأنه سيسمع عزفي أصبحت أكرر التمرن على مقطع واحد أربعين مرة، حتى صارت المسكينة كاتيا تسد أذنيها بقطن. ولكني أثابر في غير كلل ولا ملل. وأصبح للسـوناتات القديمة رنين آخر، أصبحت

أعزفهـا عزفـاً مختلفاً، عزفاً أحسـن كثيراً. حتى كاتيا التـي كنت أعرفها وكنت أحبها كنفسي تبدلت الآن في نظري. في ذلك الوقت انما أدركت أن لا شـيء يجبرها على أن تخدمنـا كأم وكصديقة وكخادمة، وأدركت كل ما تتصف به تلك الانسانة المحبة الودود من روح التضحية والبذل والاخلاص، وأدركت كل ما أنا مدينة لها به. فما زادني ذلك إلا حباً لها وتعلقـاً بهـا. وإن سـرجي ميخائيلوفتش أيضاً هو الـذي علّمني أن أنظر الـى خدمنـا وفلاحينا نظـرةً جديدة تختلـف عن نظرتـي الأولى. كنت حتى ذلك الحين، أي حتى السابعة عشرة من عمري، أعيش بين هؤلاء الناس غريبةً عنهم، لا يجمعني بهم شـيء سـوى مـا يجمعني بأناس لا أراهـم ولا ألقاهـم. ما مـن مرة خطر ببالـي أن هـذه المخلوقات تحب أو ترغـب أو تتألـم مثلي. وحديقتنـا وغاباتنا وحقولنا التـي أعرفها منذ زمن طويل صارت عندي جديدة رائعة. ولـم يذهب سـدى قول سرجي ميخائيلوفتش أن أكبر سـعادة في هذه الحياة هي أن يعيش الانسـان في سـبيل غيـره. لقد اسـتغربت قوله هذا فـي حينه ولـم أفهمـه. ولكن هذه العقيدة تسـللت الى قلبي من دون أن يتدخل في ذلك عقلي. كشف لي سرجي ميخائيلوفتش عن عالم كامل من الأفراح في الحاضر، من دون أن يبدِّل من حياتي شيئاً، ومن دون أن يضيف الى مشاعري كلها شيئاً الا نفسـه. منذ طفولتي كان كل شـيء حولي يبدو لي أخرس، والآن يكفي أن آراه حتى ينطق كل شـيء بليغاً كل البلاغة، فينبجس في نفسـي ألف شعور، ويفيض قلبي سعادة.

وكنـت فـي ذلـك أثنـاء الصيف أصعـد الـى غرفتـي أحيانـاً كثيرة، وأسـتلقي على سـريري، فلا أشعر بما كنت أشـعر به في الربيع من قلق

وغَمّ، وإنما تغزوني رغبات قوية وآمال مشـرقة، وتسـتولي عليَّ سعادة الحاضـر العارمة، فلا أسـتطيع أن أنـام، فأنهض عن سـريري، وأمضي أجلـس على سـرير كاتيا، فأقول لها إنني سـعيدة كل السـعادة، وهذا ما أحـس أنهـا لـم تكـن بحاجة الـى أن أقوله لهـا، لأنها كانت تسـتطيع أن تلاحظـه من تلقاء نفسـها، ولكنها كانت تقول إنها لا ترغب في شـيء، وتؤكد أنها سـعيدة جداً، وتقبّلني، وكنت أصدِّقها، وكان يبدو لي أنه لا بد أن يكون جميع الناس سـعداء، وأن من العدل أن يكون جميع الناس سـعداء. ولكـن كاتيا كان من حقها أن تنام أيضـاً، حتى لقد كان يتفق أن تتظاهر بالغضب فتطردني عن سريرها وتنام. أما أنا فآخذ أستعرض في سـريري أسباب سعادتي. وقد أنهض أحياناً لأصلي، مرتجلة صلواتي، فأحمد الله على ما خصني به من سعادة عظيمة.

ويكون كل شـيء فـي الغرفة صمتاً. فلا يُسـمع فيهـا الا تنفس كاتيا هادئـاً سـاجياً، وصـوت دقـات السـاعة الصغيـرة المعلقـة بالحائـط. وألتفت، وأهمس بابتهالاتي، وأرسـم شـارة الصليب، أو أقبِّل الصليب الـذي أحمله في عنقي. وتكون الأبواب موصدة، وتكون النوافذ مغلقةً مصاريعها، وتدندن ذبابة أو بعوضة. وأتمنى أن لا أترك هذه الغرفة أبداً. وأود أن لا يطلع الصبح، حتى لا يتبدد هذا الجو الذي يغمرني. وتتراءى لي أحلامي وخواطري وصلواتي أشبه بكائنات حية تهوِّم حول سريري أو تقـف بجانبي. إن كل فكـرة تخطر ببالي هي فكرة له، وان كل عاطفة أحسـها هي عاطفة منه. وكنت أجهل حينذاك ما الحب، وكنت أظن أن هذا يمكن أن يبقى وأن يدوم، وأن هذا الشعور يوهب للانسان وهباً.

- 3 -

فـي ذات يوم مـن أيام الحصاد ذهبنا الى الحديقـة أنا وكاتيا وصونيا بعد الظهر، وجلسـنا على دكتنا المفضّلة في ظل أشـجار الزيزفون التي تعلـو الوادي ونطـل منها على منظـر الغابات والحقول. وكان سـرجي ميخائيلوفتـش قد غاب عنـا ثلاثة أيام. لذلك كنا ننتظـره في ذلك اليوم بعد الظهر، لا سيما وأن الوكيل أبلغنا أنه وعد بالمجيء لرؤية الحقول، ثم أبصرناه يصل الى حقل الشـليم على صهوة حصانه في نحو السـاعة الثانيـة فعـلاً. أمرت كاتيا بأن يُحمل الينا درّاق وكـرز، اذ كانت تعلم أنه يحبهما، ونظرت إليّ مبتسـمة، وتمددت على الدكة لتغفو. فانتزعت أنا غصناً معقوفاً من شجرة زيزفون، فابتلت يدي بعصارة أوراقه والقشرة، وأخذت أهوّي على كاتيا، مستمرةً في قراءتي، ملقيةً على الطريق الذي سيسـلكه سـرجي ميخائيلوفتش نظـرات متكررة. وكانـت صونيا مكبة على عملها بقرب جذور شجرة كبيرة من أشجار الزيزفون، تبني للعبها عـرزالاً. وكان النهـار حـاراً، ولا يزال الهواء سـاكناً خانقـاً، إنما كانت

تتكاثف غيوم سود، وكانت العاصفة تهدد بالهبوب منذ الصباح، وكنت مضطربة كاضطرابي دائماً قبل هبوب العاصفة. ولكن الغيوم لم تلبث أن أخذت تتبعثر في الأفق، وعادت الشمس تظهر في سماء صافية، فكانت تُسمع أصوات رعد بعيدة، وعلى غيمة ثقيلة، جامدة عند الأفق، مختلطة بغبار الحقول، أخذت تتعرج بروق باهتة في أوقات متباعدة. أصبح واضحاً أن العاصفة ستفوتنا، في هذا النهار على الأقل. وفي أجزاء الطريق التي تُرى من الحديقة كانت تسير العربات، فتارةً تكون بطيئة ويكون لها صرير وتكون محمَّلة بحُزَم السنابل الى أعلاها، وتارة تجري في الاتجاه الآخر فارغةً، ترتجف فيها سيقان الفلاحين وتتموج فيها قمصانهم. وكان غبار كثيف يركد وراء السياج بين أوراق الأشجار الشفافة في البستان. وأبعد من ذلك، في جهة العنابر، يُسمع ضجيج الأصوات ذلك نفسه، وتُرى حزم السنابل الذهبية تلك نفسها متقدمةً على مهل في محاذاة السياج وكأنها تسير وحدها في السماء. وعلى مرأى مني تشيَّد البيادر في صورة إهليلج، وتبرز ذراها الحادة، ويتحرّك الفلاحون فوقها ويسعون. وفي أمام، على الحقل الأغبر، كانت تتقدم العربات أيضاً، وكانت تُرى حُزَم السنابل الذهبية كذلك، وكانت تسمع ضجة العجلات والأصوات والأغاني. فإذا نظرت الى طرف من أطراف الحقل رأيت الأرض تُعرّى شيئاً بعد شيء، ورأيت صفوف نبات الارطماسية العطرة يملأ الأخاديد. حتى اذا ملت ببصرك يمنةً الى تحت، على مرج محشوش، بانت لك الأثواب الزاهية التي تلبسها الحازمات، ورأيتهن يخفضن قاماتهن ويحركن أذرعهن، ورأيت المرج يتخذ شكلاً منظَّماً بينما الحزم ترتفع فيه غزيرة. فكأن الصيف

يتحول أمام عينيَّ الى خريف. والحر والغبار يسودان كل مكان، إلا هذا الركـن المفضَّل الذي نحن فيه من الحديقـة. وجمهرة العاملين تتحرك وتصخب وتتكلم في كل جهة من الجهات وسط هذا الحر وهذا الغبار تحت شمس حارقة.

كانـت كاتيا تغط غطيطـاً رفيقاً لذيـذاً تحت المنديـل الابيض الذي سـترت به وجهها فـوق دكتنا التي يغمرها الظـل. وكانت ثمرات الكرز السـود الملأى بالعصارة تلتمع في الطبق. وكانـت أثوابنا نضرة نظيفة. وكان الماء في الإبريق يلعب فرحاً تحت أشعة الشمس. وكنت أنا أشعر بسعادة كبيرة.

قلت أحدّث نفسـي: «ما حيلتي؟ أي ذنب أجترح إذا كنت سـعيدة؟ ولكـن كيف أقاسـم أحداً سـعادتي؟ كيـف ولمن أهب نفسـي كلها مع سعادتي العظيمة؟».

غابـت الشـمس وراء ذرى أشـجار البتـول، وانبسـط العجـاج فوق الحقـول، وأصبحت الأشـياء البعيدة تبدو واضحة مزيـداً من الوضوح فـي الضياء المائل، وانقشـعت الغيوم انقشـاعاً تاماً، وفـي جهة العنابر، مـن خـلال الحقول، أصبحـت ترى ذرى ثلاثـة بيادر جديـدة نزل عنها الفلاحون وغادروها، والعربات وما يصاحبها من صياح مجلجل، تقوم بآخـر رحلـة في هذا اليوم. والنسـاء قد وضعت كل منهـن أدواتها على كتفها، وعقدت أربطتها على خصرها وسارت في طريق العودة صادحةً بالغنـاء، ولكن سـرجي ميخائيلوفتش لمَّـا يجيء بعد، رغـم أنني رأيته يهبط من الأكمة. وفيما كنت أنتظر إذا هو يظهر فجأة في ممر الأشجار، وقد أتى من جهة لـم أكن أتوقع أن يأتي منها (إذ دار حول الوادي). وها

هو ذا يقبل عليَّ بسرعة، متهلل الأسارير فرح الوجه جاعلاً قبعته بيده. لما رأى كاتيا نائمة عضَّ على شفتيه وأغمض عينيه وسار على رؤوس الأصابع. وسرعان ما لاحظت أنه كان في تلك الحالة من المرح الذي ليس له سبب ظاهر، والذي كنت أحبه كثيراً فيه، وكنا نسميه جميعاً باسم «السُّكْرِ المتوحّش». كان أشبه بتلميذ هارب من المدرسة، وكان كيانه كله، من الرأس الى القدمين، يشع هناءة وسعادة وحدةً كحدة المراهقين.

قال بصوت خافت وهو يتقدم مني ويصافحني:

- هيه... طاب يومك أيتها البنفسجة الفتية... كيف الصحة؟

ثم قال راداً على تحيتي:

- أوه... أنا صحتي رائعة. سني اليوم ثلاثة عشر عاماً. أشتهي أن ألعب لعبة النط على الظهور، وأن أتسلق الأشجار.

قلت له وأنا أنظر الى عينيه الضاحكتين وأحس بأن «سكره المتوحش» قد سرت إليَّ عدواه:

- أنت في ذروة «السُّكر المتوحش»، هه؟

فأجاب وهو يغمز بعينه ويحبس ابتسامة في فمه:

- نعم. ولكن لماذا تضربين أنف كاترين كارلوفنا؟

لم أكن قد لاحظت أنني وأنا ما أزال أحرك غصن الشجرة أثناء كلامي معه قد أسقطت المنديل عن وجه كاتيا ولمست وجهها بأوراقه. فأخذت أضحك. ودمدمت أقول همساً، كأنني أحب أن لا أوقظ كاتيا:

- ولسوف تزعم أنها لم تنَم.

ولكن الحقيقة أن دافعي الى الكلام همساً لم يكن هذا الدافع. وانما

كان يسرني أن أكلم سرجي ميخائيلوفتش بصوت خافت.

وراح سرجي ميخائيلوفتش يحرك شفتيه ليقلّدني، كأن كلامي قد بلغ من شدة الخفوت أنه لا يُسمع. ثم أبصر طبق الكرز فهجم يستولي عليه بحركة مختلسة، ولحق بصونيا تحت شجرة الزيزفون، وجلس على لعبها. فغضبت صونيا في أول الأمر، ولكن سرجي ميخائيلوفتش سرعان ما حظي برضاها إذ اخترع لعبة يلعبانها، وهي لعبة: أيهما يستطيع أن يأكل من الكرز قدراً أكبر في وقت واحد؟

قلت له:

- هل تريد أن آمر بمزيد من الكرز؟ بل هلموا نقطف كرزاً بأنفسنا.

فحمل الطبق، ووضع اللُّعب عليه، واتجهنا نحن الثلاثة الى سياج البستان. فكانت صونيا تضحك وتركض وراءنا، وتشد سرجي ميخائيلوفتش من حواشي سترته ليرد إليها لعبها. فردَّها إليها أخيراً، والتفت إليَّ بهيئة وقور. وقال بصوت لا يزال خافتاً، رغم أنه لا أحد يمكن أن يستيقظ الآن إذا هو تكلم بصوت عال:

- كيف لا تكونين بنفسجة؟ إنني ما كدت أدنو منك بعد ذلك الغبار كله وذلك الحر وذلك التعب حتى شممت عطر بنفسجة، لا عطر تلك البنفسجة الأرجَة، بل عطر تلك البنفسجة القاتمة الأولى التي يشم فيها المرء شذى الثلج الذائب وضَوْع عشب الربيع.

سألته لأخفي الاضطراب السعيد الذي ألقتني اليه كلماته وأغرقتني فيه:

- هل كل شيء يسير على ما تحب في العمل؟

- على خير ما أحب! إن هذا الشعب رائع في كل مكان، فكلما ازداد المرء معرفةً به ازداد حباً له.

- نعم، كنت منذ قليل أرقب العمّال من حديقتي، فشعرت فجأة بخجل وخزي، اذ رأيتهم يتعبون بينما أنا أبلغ من السعادة أنني...

فقاطعني قائلاً وهو يلقي عليَّ نظرةً فيها رصانة ودماثة معاً:

- لا تتغندري في مثل هذا الامر. هذا أمر مقدس. أسأل الله أن يحميك من حب الظهور والتباهي بأمر هكذا.

- لا أقول هذا إلا لك «أنت».

- نعم، نعم، أعلم. ولكن ماذا عن الكرز؟

كان باب السياج مُرْتَجاً، ولم نر بستانياً (كان سرجي ميخائيلوفتش قد أمرهم جميعاً بالذهاب إلى الحقول). وركضت صونيا لتجيء بالمفتاح، ولكن سرجي ميخائيلوفتش لم ينتظرها بل تسلق زاوية الجدار الصغير، وأزاح الشبكة الحاجبة، ووثب الى الجهة الأخرى. وناداني يقول:

- اعطني الطبق إذا أردت الكرز.

- بل أريد أن أقطف كرزاً بنفسي. سآتي بالمفتاح. صونيا لن تجد...

لكنني شعرت في الوقت نفسه برغبة قوية في أن أرى ماذا كان يصنع وراء الجدار، وكيف ينظر ويتحرك إذا هو ظن أن أحداً لا يتجسس عليه. نعم، كنت لا أريد أن يغيب عني دقيقة واحدة. فدرت حول السياج راكضة على رؤوس الأصابع فوق النباتات القرّاصة، حتى اذا بلغت موضعاً كان الجدار فيه أوطأ، تسلقت برميلاً فارغاً فأصبح الجدار لا يتعدى علوُّه صدري، وملت فوقه وجعلت أجيل طرفي في الأرض المسيجة ناظرةً الى أشجارها الملتوية ذات الأوراق المسننة، التي تنبجس منها الثمار الناضجة منتصبة ثقيلة. وأمررت رأسي تحت

الشـبكة فرأيت سـرجي ميخائيلوفتش تحت غصن معقوف من شـجرة كـرز مسـنّة. لا بد أنه كان يقدر أنني انصرفـت وأن أحداً لا يراه. كان قد خلع قبعته، وجلس على جذع شـجرة ساقطة، مغمضاً عينيه، واستغرق في تحريك كرة من راتنج شجرة كرز. ثم اذا هو يرفع كتفيه فجأة، ويفتح عينيه، ويبتسـم، ويقول كلاماً. فكان ذلك الكلام وذلك الابتسام يبلغان مـن الغرابـة فيـه، وقلة الشـبه به، أنني أحسسـت بالخزي من تجسسـي عليـه هذا التجسـس. بدا لـي أن الكلمة التي قالها هي: «ماشـا!» فقلت لنفسـي: «مسـتحيل!». وكرر يقول: «ماشـا العزيزة!»، بصوت فيه مزيد مـن الخفـوت والعاطفة والحنـان. لكنني في هذه المرة سـمعت هاتين الكلمتيـن سـماعاً واضحاً. فأخـذ قلبي يخفـق خفقاناً كنت أحسّـه في كل جوارحـي. واجتاحني فـرح مقلق كأنه محظور، وقـد بلغ من القوة أنني تمسـكت بالجـدار بكلتا يديَّ حتى لا أسـقط فيفتضح أمري. رأى هـو حركتي، فنظر إليَّ، ثم خفض عينيه فجـأة وقد أحمرّ وجهه كطفل. وأراد أن يقول لي شيئاً ولكنه لم يستطع، وظل وجهه يتخضب بالحمرة مرة بعد مرة. ولكنه ابتسـم حين رآني. وابتسمت أنا أيضاً. فأضاء الفرح وجهـه. مـا هو الآن عم عجوز، رقيق واعظ، بل هـو الآن ندٌّ لي، يحبني ويخشـاني. وأخشـاه وأحبّه. كان كل منا ينظر الى الآخر صامتاً. ولكنه عبس فجأة، وزال ابتسـامه، واختفى بريـق عينيه، وقال يخاطبني بلهجة فيهـا بـرود، بلهجة أبوية، كأننـا كنا نرتكب عملاً سـيئاً، فهـو يعدل عنه وينصحني بأن أعدل عنه أيضاً، قال:

– انزلي، وإلا آذيت نفسك! ورتّبي شعرك. ما هذه الهيئة التي لك؟

قلت أحدث نفسـي غاضبة: «لـم هذا التظاهـر؟ لماذا يريد أن يجرح

شـعوري؟». وشعرت في الوقت نفسه برغبة قوية لا تقاوم في أن أربكه هو أيضاً، وأن أحسّ بسلطاني عليه. فقلت له:

- بل أريد أن أقطف كرزاً بنفسي.

وتمسّـكت بغصن شـجرة قريبة فوثبت فـإذا أنا على الجـدار. وهـمَّ أن يسـاعدني علـى النـزول، ولكنني سـبقته فوثبت الـى داخل الأرض المسوَّرة.

فقـال وهو يحمرّ مـرةً أخرى محـاولاً أن يخفي ارتباكـه وراء مظهر الغضب:

- ما أحســن هذا الـذي تفعلين! كان يمكن أن تجرحي نفسـك. ثم كيف تستطيعين أن تخرجي بعد أن دخلت؟

وكان ارتباكه أشدّ من ارتباكه قبل ذلك. غير أن هذا الاضطراب الذي اعتـراه لم يحـدث لي أي رضـى أو ارتياح، حتى لقـد أرعبني اضطرابه وسرى إليَّ: فاحمرَّ وجهي، ولم أعرف بماذا أجيبه، وتحاشيت أن أنظر اليـه، وطفقت أقطف كـرزاً من دون أن يكون بيدي مـا أضعه فيه. كنت ألوم نفسـي، وأشـعر بندم، وأحس بخوف، ويتراءى لي أنني قد ضيَّعت نفسـي في نظره الى الأبد. كنـا صامتَيْن، وكان يجثم على صدرينا حمل ثقيـل يخنقنـا خنقاً. وهرعـت صونيا تحمـل المفتاح، فأنقذتنـا من هذا الموقف الشـاق الأليم. وظللنا مدةً طويلة بعد ذلك لا نتخاطب تخاطباً مباشراً، وانما نكلم صونيا. حتى إذا رجعنا الى كاتيا، فحلفت لنا أنها لم تنم أبداً، وأنها لم تفتها كلمة واحدة مما قيل، استعدت هدوئي، وحاول سـرجي ميخائيلوفتش من جهته أن يسـترد لهجته الأبوية، لهجة الرعاية والحمايـة، ولكنـه لم يفلح فـي ذلك، وأصبح لا يسـتطيع أن يخدعني.

واستعرضت في ذاكرتي حديثاً جرى بيننا قبل بضعة أيام.

كانت كاتيا تزعم أنه يسهل على الرجل أكثر مما يسهل على المرأة، أن يحب فيعبِّر عن حبه. قالت:

- الرجل يستطيع أن يعترف بأنه يحب، أما المرأة فلا.

فأجابها سرجي ميخائيلوفتش قائلاً:

- يبدو لي أن الرجل لا يجب عليه ولا يستطيع أن يعترف بحبه أكثر من المرأة.

فسألته أنا: لماذا؟

فقال:

- لأن ذلك سيكون كذباً! رجل يحب، يا له من اكتشاف! هل يظن أنه متى أعلن ذلك فلا بد أن ينفجر شيء: بم! هوذا يحب؟ كأن الكلمات متى قيلت فلا بد أن يحدث شيء خارق، فتحقق معجزات، وترعد مدافع؟ رأيي أن الرجال الذين يقولون: «أحبك»، انما يخدعون أنفسهم، أو يخدعون غيرهم وهذا أنكى!

سألت كاتيا:

- فكيف تعلم المرأة أن الرجل يحبها إذا لم يقل لها إنه يحبها؟

أجاب:

- لا أدري! إن لكل امرئ كلمات خاصة به. فإذا وجدت العاطفة عرف كيف يعبر عنها. حين أقرأ روايات، فإنني أتخيل دائماً هيئة الارتباك على الليوتنان سترلسكي أو على ألفرد حين يقول: «أحبك يا إيليونور»، ويتصوَّر أن شيئاً مذهلاً سيحدث، ثم لا يحدث شيء لا لها ولا له، وتبقى العينان والأنف وسائر الأشياء كما كانت.

وقـد رأيت في رأيه المُغرب هـذا كلاماً وقوراً موجهاً إليَّ، منذ ذلك الحين، ولكن كاتيا لم تطق أن يعامل أبطال الروايات بهذا الاستخفاف، فقالت له:

- هـذه واحدة مـن إغراباتك في الكلام. هيَّا اعتـرف: ألم تقل لامرأة في يوم من الأيام إنك تحبها؟

قال ضاحكاً:

- لم أقل في يوم من الأيام، لا ولا جثوث على الأرض راكعاً. وأكثر من ذلك أنني لن أفعل هذا أبداً.

قلت اليوم لنفسـي وأنا أتذكر ذلك الحديث: «نعم، ما هو في حاجة الى أن يقول لي إنه يحبني. هو يحبني. أعرف ذلك. وكل ما يتحمّله من عناء ليتظاهر بقلة الاكتراث لن يزعزع يقيني هذا».

لـم يكلمنـي طـوال تلـك السـهرة إلا قليـلاً. ولكنني فـي كل كلمة يخاطب بها كاتيا أو صونيا، وفي أيسـر حركة من حركاته أو إشـارة من إشـاراته، وفي كل نظرة من نظراتـه، كنت أرى حبه لي، فلا يراودني في هـذا الحب شـك. ولكـن كان يحزنني ويغضبنـي أيضاً أن يـرى أن من المفيد أن يظل يكتم ما بنفسـه مع أننا يمكن أن نسـعد سـعادة لا سـبيل الـى مغالبتها! وأخـذت المغامرة التي قمت بها منذ قليـل تعذّبني عذاباً شـديداً، كأنني قد قارفت جريمة. وتراءى لي أنه قد يكف عن احترامي بسبب سلوكي ذاك، فكنت ألوم نفسي أعنف اللوم.

بعد أن شربنا الشاي قمت الى البيانو. فتبعني سرجي ميخائيلوفتش، وقال لي حين أدركني في الصالون:

- اعزفي قليلاً، فإنني ما سمعت عزفك منذ مدة طويلة.

فقلت له وأنا أنظر في عينيه:

- هذا بعينه ما كنت أريده يا سرجي ميخائيلوفتش. هل زال زعلك؟

- لماذا تتصورين أن أكون زعلان؟

- لأنني عصيتك ولم أطعك.

قلت ذلك وقد احمرّ وجهي.

ففهم ما أعني، وهز رأسه، وتبسَّم. وكانت نظرته تقول إنه ودَّ لو يؤنبني قليلاً ولكن أعوزته الشجاعة.

قلت وأنا أجلس الى البيانو:

- لم يبق شيء. ها قد رجعنا صديقين، أليس كذلك!

- طبعاً!

لم يكن في الصالون، العالي سقفه، إلا شمعتان وضعتا على البيانو، أما باقي الغرفة فكان غارقاً في ما يشبه الظلام. ومن النوافذ المفتوحة كان يدخل ليل الصيف الوضّاء. وكان كل شيء صامتاً، الا حين تمشي كاتيا في الصالون المعتم فيسمع وقع خطواتها هادئاً خفيفاً، وحين يحمحم حصان سرجي ميخائيلوفتش المربوط تحت النافذة، أو يضرب بحوافزه أعشاب البلسكاء الضارة. كان سرجي ميخائيلوفتش جالساً ورائي فلا أراه. لكنني كنت أشعر بحضوره في كل مكان: في ظلام الغرفة، وفي الموسيقى، وفي ذات نفسي. وكانت كل نظرة من نظراته وكل حركة من حركاته التي لا أراها تجد صدى في قلبي. كنت أعزف سوناتا - فانتازيا، لموتسارت، التي أتاني هو بها وتعلمتها في حضوره من أجله. كنت لا أفكر في ما أعزف، ولكن كان يبدو لي أنني أحسن العزف، وأن عزفي يعجبه. أحسست بالرضا الذي لا بد أنه كان يشعر به. ومن دون

أن أراه، كنت أعرف النظرة التي يلقيها عليَّ. وفيما أنا أواصل تحريك أصابعي بغير شعور، رأيتني التفت اليه فجأة كأنما رغم إرادتي. كان رأسه يبين واضحاً في ظلمة الليل الوضاء. كان جالساً، قد أسند ذقنه الى يديه، وراح يتأملني بعينيه الملتمعتين. فلما التقى بصري بنظرته تلك، ابتسمت وتوقفت عن العزف. فابتسم هو أيضاً. ولكنه هزَّ رأسه كاللائم، وأشار لي أن أواصل العزف. حتى إذا انتهيت كان القمر قد طلع، فكان ضياء فضي يتسلل من النوافذ وينضم الى نور الشمعتين الضعيف، فينير أرض الغرفة. قالت كاتيا إن توقفي عن العزف في أهم موضع كان أمراً غريباً، وأن عزفي كان سيئاً غاية السوء. ولكن سرجي ميخائيلوفتش زعم نقيض ذلك، فقال إني لم أعزف خيراً من هذا العزف يوماً قط. وأخذ يذرع الغرفة ذاهباً وآيباً، وينتقل من الصالون الصغير ثم يعود أدراجه، وينظر اليَّ في كل مرة ويبتسم. وأبتسم أنا أيضاً، حتى لأود أن أضحك، لا أدري لماذا، فالى هذا الحد كنت سعيدة بما حدث. وكنت ما إن يغب سرجي ميخائيلوفتش حتى أضمّ كاتيا الى صدري، وأعانقها، وأقبِّلها في الموضع المفضَّل من عنقها الربيلة تحت الذقن. حتى إذا عاد اصطنعت هيئة الجد والوقار، وحبست نفسي عن الضحك بكثير من المشقة.

فكانت كاتيا تسأل سرجي ميخائيلوفتش:

– ماذا جرى لها اليوم؟

ولكن سرجي ميخائيلوفتش لا يجيب، ولا يزيد على أن ينظر اليَّ ضاحكاً. كان، هو، يعرف ماذا جرى لي.

قال منادياً من الصالون الصغير، وقد توقف أمام النافذة المطلة على الحديقة:

- انظرا الى هذا الليل ما أروعه!

فمضينا ننضم إليه. كانت الليلة رائعةً حقاً، ما رأيت لها مثيلاً في حياتي من بعد. القمر بدر يعلونا وراء المنزل فلا نستطيع أن نراه. ونصف الظل الذي يسقطه السقف والأعمدة وطنف الشرفة يرقد مائلاً «مصغَّراً» على ممر الأشجار المغروش بالرمل، وعلى العشب الأخضر. وكل ما عدا ذلك مضاء، مستحمّ بالندى الفضي وبضياء القمر. والدرب، بين آجام الأزهار التي تتراقص فيها ظلال الدهليات مائلة، يشرق بضياء بارد، وتسطع حافته المتفاوتة، ويغيب هارباً في ضباب الأفق البعيد. وبين الأشجار يبدو ظهر الحوض الزجاجي واضحاً متلألئاً. ومن الوادي يصَّاعد الضباب. وأشجار الليلك التي تعرَّت قليلاً يغمرها النور، فيستطيع الناظر أن يميز جميع أزهارها المخضّلة بالندى. وفي ممرات الأشجار يمتزج الليل والضياء، فلا يرى المرء طرقاً وأشجاراً، وانما يرى بيوتاً شفافة ترتعش ارتعاشاً. وكل شيء على يمينك حالك السواد قليل الاكتراث مرعب ولكن الذروة الواسعة من شجرة الصفصاف التي تنبجس من ذلك الظلام تبدو غريبة مزيداً من الغرابة، فهي على جمودها وعلى شدة قربها من البيت، وعلى انسكاب نور السماء فوقها، تبدو كأنها تستطيع أن تطير، أن تطير الى هناك، الى الفضاء البعيد، الى السماء، الأزرق الذي لا نهاية له.

قلت:

- لنمشِ قليلاً.

فوافقت كاتيا على اقتراحي، ولكنها اشترطت أن أنتعل حذاءين من مطاط. فقلت معترضةً:

- لا يا كاتيا، سيعطيني سرجي ميخائيلوفتش ذراعه فأتكئ عليها.

كأن ذلـك كان يمكـن أن يقـي قدميَّ مـن الابتلال! ولكـن الأمر بدا لنـا نحـن الثلاثـة فـي ذلـك الحيـن منطقيـاً لا غرابـة فيه. كان سـرجي ميخائيلوفتش لا يعطيني ذراعه أبداً. أما في ذلك المسـاء فقد اسـتوليت على ذراعه اسـتيلاءً، فلم يجد في ذلك شـيئاً شـيئاً غير مألـوف. ونزلنا نحن الثلاثة عن الشرفة. فكان ذلك العالم كله، أعني هذه السماء، وهذه الحديقة، وهذا الهواء نفسه، غير ما كنت أعرف من قبل.

حيـن تأملـت ممر الأشـجار الـذي يمتـد أمامـي أحسسـت بأننا لا نسـتطيع أن نتقـدم فيـه، وأن عالـم الممكـن ينتهي هنا ويجـب أن يثبت هنـا، على هذا الجمال، الى الأبد. ولكننـا تقدمنا، فكان جدار الجمال، المسـحور، ينشـقّ لنا ويتلقانا. كنا كأننا نتعرف الى حديقتنا وأشـجارها وممراتها وأوراقها. كنا نسـير فعلاً في ممر أشجار، فندوس دوائر الظل والنور، وتخشـخش الأوراق المتسـاقطة تحت أقدامنـا، ويلطم غصن طري من الأغصان وجهي. وكان هو الذي يمشـي الى جانبي بخطوات تسـاوي خطواتي، ويسـند بحذرٍ واحتراسٍ ذراعـي، وكانت كاتيا تتقدم بقربنا فيسـمع لوقع حذاءيها على الأرض قرقعة. كان القمر في السـماء يسقط علينا أشعته من خلال أغصان الأشجار الساكنة...

ولكن كلما خطونا خطوة جديدة كان الجدار المسـحور ينسد أمامنا ووراءنـا من جديـد، فأصبحت لا أعتقد بأن في إمكاننـا أن نوغل مزيداً من الإيغال، وأصبحت أشكّ في أن هذا كله موجود فعلاً!

صاحت كاتيا:

- أوه! ضفدعة!

فسألت نفسي: «من يقول هذا؟ ولماذا؟. لكنني سرعان ما أدركت أنها كاتيا، وأنها تخاف من الضفادع، ونظرت إلى الأرض. فوثبت ضفدعة صغيرة وجمدت أمامي. وكان الظل الصغير الذي تلقيه يُرى واضحاً على الفضاء من أرض الممر.

قال يسألني:

- وأنت، ألا تخافين من الضفدعة؟

لم ألتفت اليه. كانت بجانبنا شجرة زيزفون في المكان الذي نمر به. ورأيت وجهه واضحاً. كان يبدو جميلاً جداً وسعيداً جداً...

هو قال: «وأنت ألا تخافين من الضفدعة»، ولكنني أنا سمعته يقول: «أحبك يا غالية!»، وكانت نظرته تؤكد قوله: «أحبك، أحبك !». وكانت ذراعه، والنور، والظل، والهواء، كان كل شيء يردد هذه الكلمات نفسها.

طفنا بالحديقة دائرين حولها. وكانت كاتيا تمشي مشينا، بخطوات صغيرة، وتلهث تعباً. قالت آن لنا أن نرجع الى البيت، وأخذتني بها شفقة كبيرة. مسكينة!... «لماذا ليس كل انسان شاباً وسعيداً مثلنا أنا وهو؟».

ورجعنا الى البيت. ومكث مدة طويلة، رغم أن الديكة قد صاحت، ورغم أن الجميع في البيت نائمون، ورغم أن حصانه أصبح يضرب بحوافره نباتات البلسكاء أكثر فأكثر، ويحمحم مزيداً من الحمحمة. فلما انصرف كانت الديكة قد صاحت ثالث مرة، وكان الفجر قد طلع. وقد ودّعنا وداعاً عادياً، ولم يكن أي شيء خاص. لكنني عرفت منذ ذلك اليوم أنه أصبح لي، وأنه لن يستطيع أن يفلت مني أبداً. فما إن اعترفت لنفسي بأنه يحبني حتى حكيت لكاتيا كل شيء. فسعدت بثقتي أكبر السعادة، وتأثرت لها أشد التأثر. واستطاعت المسكينة أن تنام في

تلك الليلة. أما أنا فظللت أذرع الشرفة ذاهبة آيبة، وأنزل الى الحديقة، وأسير في ممرات الأشجار التي سلكناها معاً، متذكرة كل كلمة من كلماته، وكل حركة من حركاته. لم أستطع أن أغمض عينيّ طوال تلك الليلة، ولأول مرة في حياتي رأيت شروق الشمس، وأبصرت فجر النهار. ثم لم أشهد مرة أخرى في حياتي ليلةً كتلك الليلة، ولا صبيحة كتلك الصبيحة. وقلت أسأل نفسي: «لكن لماذا يخترع المصاعب، ويعدّ نفسه عجوزاً، على حين أن كل شيء بسيطٌ جداً، جميلٌ جداً؟ لماذا يضيّع وقتاً ثميناً قد لا يرجِعُ أبداً؟ ألا فليصارحني بحبه، ليعبر لي عنه بكلمات، ليتناول يدي بيده ويسند رأسه إليها ويقل لي: أحبك! فليحمرَّ وجهه وليغضّ طَرْفه أمامي، حتى أقول له أنا كل شيء! ولكن ماذا إذا كان ظني خطأ؟ ماذا إذا كان لا يحبني؟»، كذلك خطر هذا السؤال في ذهني كومض البرق.

وخفت من عاطفتي. الله يعلم الى أين يمكن أن تقودني! وتذكرت ارتباكنا المشترك في البستان المسيّج حين قفزت عن الجدار، فشعرت من ذلك بثقل في قلبي. وانبجست الدموع من عينيَّ، وأخذت أصلي. ثم عاد إليَّ الأمل، وراودتني مع الأمل فكرة تبث في نفسي الطمأنينة. قررت أن أستعدّ لتناول القربان المقدس، وأن أتقدم من المائدة المقدسة في يوم عيد ميلادي، وأن أصبح خطيبته في ذلك اليوم نفسه.

أما كيف ولماذا وبأية طريقة سوف يتم الأمر، فذلك ما كنت أجهله، ولكنني منذ تلك اللحظة اعتقدت وعلمت أن الأمر سيتم.

وكان النهار قد طلع تماماً، وكان الناس قد أخذوا ينهضون من نومهم، حين عدت الى غرفتي.

- 4 -

كان ذلك في زمن الصيام الذي يسبق عيد صعود العذراء فلم يدهش أحد للقرار الذي اتخذته، وهو أن استعد لتناول القربان المقدس.

وفي أثناء ذلك الأسبوع كله لم يجئ الينا سرجي ميخائيلوفتش مرة واحدة. لكنني لم أشعر مع ذلك بدهشة ولا بقلق ولا غضب. بالعكس: أسعدني أن لا يجيء، ولم أنتظر أن يأتي الا في يوم عيد ميلادي. وخلال تلك الأيام الثمانية كنت أنهض من نومي في ساعة مبكرة جداً من الصباح، وفيما كانوا يقرنون الخيل الى العربة كنت أنا أتجوَّل في الحديقة مستعرضة بذاكرتي ما ارتكبت بالأمس من خطايا، مفكرة في ما ينبغي لي أن أفعله اليوم، لأكون راضية في نهاري، ولأتحاشى ارتكاب أية خطيئة. كان يبدو لي أنه حسبي أن أكلّفَ نفسي هذا. وتتقدم الخيل، فأصعد الى العربة مع كاتيا أو مع خادمة، ونمضي الى الكنيسة التي تبعد ثلاثة فراسخ. فاذا اقتربت من الكنيسة تذكرت في كل مرة أن عليَّ أن أصلي لجميع الناس «في خشوع للرب»، وحاولت أن أحتفظ

بهذا الشعور وأنا أصعد درجتيْ الرواق الذي ينبت العشب بين بلاطات أرضه. ولا يكون بالكنيسة في تلك الساعة أكثر من عشرة أشخاص هم فلاحات أو خدم يقومون بعباداتهم من أجل العيد. وأحاول أن أردَّ على تحياتهم في تواضع كبير، وأمضي بنفسي الى صندوق الشموع، معتقدة أن هذا مأثرة من المآثر، فأتناول الشموع من يديّ وكيل الكنيسة، وهو جندي سابق، وأضعها أمام الأيقونات. ومن خلال أبواب المحراب، أبصر غطاء الهيكل، وهو غطاء طرزته أمي بيديها، وفوق الحاجز المزدان بالأيقونات أرى ملاكين يسبحان بين نجوم كانت تبدو لي ضخمة في صغري. وأرى حمامة تحفّ بها هالة مذهّبة كانت تخطف بصري في الماضي كثيراً. ووراء الخورس، أرى جرن المعمودية الذي كثيراً ما أمسكت عليه أولاد خدمنا، والذي عُمّدتُ عليه أنا نفسي. ويكون الكاهن لابساً حلة للقداس مصنوعة من غطاء تابوت أبي، ويأخذ يتلو القداس بذلك الصوت نفسه التي طالما سمعته منه حين كان يقيم الصلاة عندنا، سواء يوم تعميد صونيا، أو حين توفي أبي، أو حين دُفِنَت ماما. ويترجَّع ذلك الصوت المشدوخ نفسه، صوت المرتّل في الخورس. وأرى تلك العجوز القصيرة نفسها التي طالما رأيتها في الكنيسة منحنية الظهر مستندة الى الحائط، تتأمل أيقونة الخورس بعينين دامعتين، قابضة بأصابعها المثنية على منديلها الحائل لونه، مهمهمة بالدعاء والتضرّع بفمها الأهتم. فلا يكون ذلك كله أموراً تثير فضولي أو توقظ ذكريات عزيزة في نفسي فحسب، وإنما هو الآن في نظري شيء عظيم ومقدس، مثقل بمعنى عميق. وأنا في أثناء تلاوة الصلاة أتنصت على كل كلمة محاولة أن أستجيب لها في قرارة نفسي. فاذا لم

أفهم فهماً واضحاً سألت الله في سرّي أن ينير عقلي، او استعضت عن الدعاء الذي لم أفهمه بضراعات أبتكرها ابتكاراً. حتى إذا تليت صلاة التوبة جعلت أستعرض ذكريات الماضي، فيبدو لي ذلك الماضي البريء الطاهر أسود مظلماً بالقياس الى ما أنا فيه الآن من حالة روحية صافية رائقة، فإذا أنا أبكي على نفسي مرتاعة ملتاعة، ولكنني أحسّ في الوقت نفسه بأن ذلك كله سوف يُغفر، وأن التوبة لن تزداد إلا عذوبة إذا كان عدد خطاياي أكبر. حتى قال الكاهن في ختام الصلاة: «لتصحبكم بركة الله»، أحسست في جسمي على الفور براحة العفو والمغفرة، حتى لكأن شيئاً من الضياء والدفء قد نفذ الى قلبي على حين فجأة. وينتهي القداس، فيدنو مني الكاهن ويسألني ألا يجب عليه أن يجيء إلينا لإقامة صلاة العصر، فأشكر له بحرارة ما يريد أن يفعله من أجلي أنا، في ما أخمّن، وأجيبه بأنني سأعود الى الكنيسة بنفسي.

فيقول: أتريدين أن تفرضي على نفسك هذه المشقة؟

فلا أدري بماذا أجيبه من دون أن أرتكب إثم الزهو والغرور.

وبعد القداس أصرف العربة اذا كانت لا تصحبني كاتيا، وأعود وحدي سيراً على القدمين، وأنحني بتواضع لجميع الذين ألقاهم في الطريق، وأبحث عن فرصة أخدم فيها أحداً، إما بنصيحة أسديها، وإما بالمساعدة في إنهاض عجلة، وإما بهدهدة طفل، جاهدة أن أمّحي فلا أظهر، ملوّثة ثيابي بالغبار أو الوحل.

وفي ذات يوم سمعت الوكيل يقول لكاتيا إن سيميون، وهو أحد الفلاحين، يطلب خشباً لتابوت ابنته وروبلاً لوليمة الجنازة، وأضاف الوكيل أنه قد لبى طلبه. سألت:

- أهم فقراء إذاً الى هذا الحد؟

فأجابني الوكيل: فقراء جداً يا آنسة، يأكلون بلا ملح.

فانقبض قلبي، ولكنني في الوقت نفسه شعرت بما يشبه الفرح. وكذبت على كاتيا عامدةً، فزعمت لها أنني ماضية أتنزه. ولكنني في الواقع اسرعت الى غرفتي، فتناولت كل ما كنت أملك من مال (وهو زهيد!)، ثم رسمت إشارة الصليب واجتزت الشرفة فالحديقة، ومضيت الى القرية، الى بيت سيميون. كان بيته يقع في آخر القرية. فاقتربت من النافذة من دون أن يراني أحد، ووضعت المال على حافتها، ونقرت الزجاج بضع نقرات. فخرج من الكوخ أحد، فسمعت لفتح الباب صريراً، وسمعت صوتاً يناديني. لكنني ولّيت راكضة وأنا أرتعش من الخوف كمجرمة. وسألتني كاتيا أين كنت وماذا حدث لي. غير أنني لم أفهم ما قالته لي فلم أجبها. وبدا لي كل شيء على حين فجأة تافهاً لا قيمة له. وحبست نفسي في غرفتي، وجعلت أذرعها طولا وعرضاً، لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فلا أفكر، ولا أحلّل مشاعري. وجعلت أتصور فرح الأسرة كلها، وأتصور الكلام الذي تقوله عمَّن وضع المال على حافة النافذة، وأسفت أني لم أسلِّم المال بنفسي. وتساءلت عما عسى أن يكون رأي سرجي ميخائيلوفتش في عملي، وأسعدني أن أحداً لن يعرف عن الأمر شيئاً في يوم من الأيام. وبلغت من شدة الفرح، ومن شدة الاستخفاف بالعالم كله، وبنفسي، أنني أصبحت أنظر الى جميع الأشياء ذليلة خاشعة، حتى لقد بدا لي الموت نفسه حلم سعادة. فكنت أبتسم، وأبكي، وأصلّي، وصرت في تلك اللحظة أحب كل انسان حباً مشبوباً وأحب نفسي حباً مشبوباً كذلك.

وكنت بين كل قداس وقداس في الكنيسة، أقرأ الأناجيل، فإذا بالكتاب يبدو لي أيسر على الفهم شيئاً بعد شيء. صارت قصة الحياة الإلهية تبدو لي بسيطة مزيداً من البساطة، مثيرة للمشاعر مزيداً من الاثارة، وغدت العواطف والأفكار التي أجدها في تعاليم المسيح أعمق غوراً، وأشد هولاً. ولكن، في مقابل ذلك، ما كان أعظم الوضوح والبساطة في كل ما كنت أراه حين أدع الكتاب وأعود أسترسل في الحياة التي تحيط بي! أصبح يبدو لي أن من العسير جداً على الانسان أن يحيا حياة سيئة، وأن من السهل جداً على الانسان أن يحب أخاه وأن يحبه أخوه. فالناس جميعاً طيبون جداً، لطاف جداً معي. حتى صونيا التي ما أزال أعطيها دروساً، قد تبدَّلت حالها، فهي تحاول أن تفهم، وتتجنّب أن لا ترضيني. واستعرضت في الخيال أعدائي الذي يجب أن أستغفرهم قبل الاعتراف، فلم أجد إلا آنسة من جيران قريتنا كنت قد سخرت منها قبل سنة، فانقطعت عن زيارتنا. فكتبت إليها معترفة، متوسّلة اليها أن تغفر لي. فأجابتني برسالة تسامحني فيها وتطلب مني أن أسامحها أيضاً. فبكيت من شدة الفرح وأنا أقرأ تلك الأسطر البسيطة التي رأيت فيها عاطفة عميقة مؤثرة. وقد بكت مربيتنا العجوز حين سألتها أن تعفو عني وأن تغفر لي. وتساءلت: «لماذا هم طيبون معي الى هذا الحد؟ ماذا فعلت حتى أستحق هذه العاطفة كلها؟». وكان فكري يعود دائماً الى سرجي ميخائيلوفتش، كأنما رغم إرادتي، فأفكر فيه ملياً. لم يكن في إمكاني أن لا أفعل ذلك، ولم أكن أعدّ تفكيري فيه إثماً. ولكنني في هذه الأيام أفكر فيه تفكيراً يختلف عن تفكيري فيه أثناء تلك الليلة التي أدركت فيها أول مرة أنني أحبه. أنا الآن أفكر فيه تفكيري في نفسي،

وأشـركه على غير إرادة مني في ما يساورني من أحلام المستقبل. وزال من خيالي ما كنت أحسُّـه في حضوره من سلطان له عليَّ. صرت أشعر بأننـي أسـاويه وأنه ندٌّ لـي، وصرت أعتقـد، وأنا في ما أنا فيه من سـمو روحي، أنني أفهمه. فالأشـياء التـي كنت في الماضي أقف منها محتارة مرتبكـة، صرت أراها الآن رؤية واضحة وأدركها إدراكاً جلياً. الآن إنما أصبحـت أدرك مـا كان يقوله من أن السـعادة الوحيـدة الممكنة هي أن يحيا الإنسـان في سـبيل غيره، وأصبحت أوافقه على رأيه. وبت أعتقد بأننا سـنكون كلانا سعيدين سعادة لا نهاية لها، سعادة هادئة راضية الى أبعد حـدود الهدوء والرضا. وغدوت لا أتخيـل رحلات إلى الخارج، وتألقـاً في المجتمع الراقي، بل حياة عائلية هادئة في الريف ترين عليها تضحية أبدية وتفان متصل وحب متبادل مستمر، وثقة لا تتزلزل بالعناية الإلهية المغيثة الرفيقة دائماً.

وكمـا تصورت، تناولت القربان المقدس في يوم عيد ميلادي. فلما رجعت من الكنيسـة كنت أشـعر بسـعادة تبلغ من الكمال أنني أخشـى الحيـاة، وأتجنب أي شـعور جديد، وأتقي كل مـا يمكن أن يحطم تلك الهنـاءة. ومـا إن نزلنا من المركبـة وأخذنا نصعد درجـات الباب، حتى سـمعت ضجـة عربتـه، المألوفة لـي، ورأيـت سـرجي ميخائيلوفتش. فأزجى لي تهنئاته، ودخلنا الصالون معاً. إنني منذ عرفته، لم أشعر بمثل مـا أشـعر به الآن مـن هدوء النفـس، ورباطة الجأش، وقوة الإحسـاس بالاستقلال إزاءه. كنت أحس بأن عالماً جديداً قد قام في نفسي، عالماً لا يسـتطيع أن يدركه، لأنه أعلى منه. لم يبق في نفسي أثر لذلك الحرج الذي كنت أشـعر به حين ألقاه. وكان واضحاً أن سـرجي ميخائيلوفتش

قد أدرك أسباب هذه الحالة النفسية التي كنت فيها، فكان في سلوكه كثير اللطف والرفق والدماثة والاحترام الصادق. وأردت أن أقترب من البيانو، ولكنه أغلقه ووضع مفتاحه في جيبه وقال لي:

- لا تفسدي ما أنت فيه من حالة نفسية، فموسيقى روحك الآن هي أجمل موسيقى في العالم.

وقد حمدت له ذلك في قرارة نفسي، ولكنني شعرت في الوقت نفسه بشيء من الامتعاض اذ رأيت أنه يفهم فهماً مسرفاً في السهولة ومسرفاً في الوضوح، كلَّ ما كان ينبغي أن يبقى في نفسي سراً مكتوماً عن غيري. وفي أثناء الغداء، قال إنه أتى ليهنئني ويودعني، لأنه مسافر غداً الى موسكو. وكان وهو يتكلم ينظر الى كاتيا، ثم ألقى علي نظرة سريعة، فأدركت أنه يخشى أن يقرأ في وجهي اضطراباً. ولكنني لم أشعر بدهشة، ولا شعرت بقلق، حتى إنني لم أسأله هل سيطول غيابه. كنت أعلم أنه سيقول إن غيابه سيطول، وكنت أعلم أيضاً أنه لن يسافر. من أين أتاني ذلك اليقين؟ لا أدري كيف أشرح هذا. ولكنني كنت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى أحس بأنني أعرف كل ما كان وكل ما سيكون. كنت كمن يرى حلماً سعيداً يحس فيه أنه يعرف منذ زمن طويل كل ما يحدث، ويعلم فيه علم اليقين كل ما لا بد أن يحدث ثم يحدث.

أراد أن ينصرف بعد الغداء فوراً، ولكن كاتيا التي أتعبها القداس مضت تستريح، فاضطر أن ينتظر استيقاظها من النوم ليودِّعها. وكانت الشمس تنفذ الى الصالون الكبير، فخرجنا الى الشرفة، فما إن جلسنا حتى أخذت أتكلم بهدوء كامل عما سيقرر مصير حبي في ذلك المساء نفسه. أخذت أتكلم في الوقت المناسب، لا قبله ولا بعده، أي في

اللحظة التي كنا نجلس فيها بالشرفة، قبل أن يقول أحد منا شيئاً، وقبل أن يجري الحديث مجرى يمكن أن يصرفني عما عقدت العزم على الكلام فيه. لا أعرف أنا نفسي من أين جاءني ذلك الهدوء، وكيف جاءتني تلك الدقة في اختيار الألفاظ. لكأنني كنت لا أتكلم من نفسي، وإنما تملي علي الكلام إرادة مستقلة عن إرادتي. كان جالساً أمامي، متكئاً بكوعه على الدرابزين، يشد اليه غصناً من أغصان شجرة ليلك، وينتزع أوراقه. فلما شرعت في الكلام، أرخى الغصن، وأسند رأسه إلى يده. ذلك أمر يفعله المرء في إحدى حالتين، فإما هو هادئ كل الهدوء، وإما هو منفعل أشد الانفعال.

قلت برصانة، من دون تعجل، وأنا أحدِّق اليه: لماذا تسافر؟

فلم يجب على الفور. صمت للحظات. ثم قال وهو يخفض عينيه:

- الأعمال!

فأدركت كم يصعب عليه أن يكذب، لا سيما في الإجابة عن سؤال يلقى بمثل هذه الصراحة. قلت:

- إصغ الى كلامي. أنت تعرف ما لهذا اليوم عندي من شأن كبير. ثمة أسباب كثيرة تجعله بالغ الخطورة. وإذا كنت قد ألقيت عليك ذلك السؤال، فإنني لم أفعل ذلك إظهاراً للاهتمام بك فأنت تعلم أنني متعلقة بك وأنني أحبك، وانما أنا أفعل ذلك لأنني يجب أن أعرف. لماذا تسافر؟

- يصعب عليَّ جداً أن أقول لك الحقيقة. لقد فكرت كثيراً طوال هذا الأسبوع، فكرت فيك وفي نفسي، فقررت أن عليَّ أن أرحل. هل تدركين لماذا؟ إذا كنتِ تحبينني فلن تلقي علي أسئلة أخرى.

وحكَّ جبينه، وغطى عينيه بيده. وأردف يقول:

- يشق عليَّ هذا جداً... ولكنك فهمت كل شيء...

أخذ قلبي يخفق خفقاناً شديداً. وقلت:

- لا أستطيع أن أفهم... لا «أستطيع». عليك أن تتكلّم. في هذا اليوم تكلّم، ناشدتك الله. يجب أن تتكلم وإني لأستطيع أن أسمع كل شيء بهدوء.

فغيَّر وضعه، ونظر إليَّ، وشدَّ غصن شجرة الزيزفون مرة أخرى. وبعد صمت قصير، عاد يتكلّم فقال بصوت يحاول أن يجعله ثابتاً فلا يفلح، قال وقد تبدَّلت قسمات وجهه كأنه يعاني ألماً جسمياً:

- سأحاول أن أشرح لك الأمر، وإن كان التعبير عنه بالكلام غباء واستحالة...

- هيه...

- تخيلي أن هناك رجلاً... ولنسَّمه «أ»... مسناً استنفدته الحياة... وأن هناك امرأة... ولنسمِّها «ب»... شابة سعيدة، لا تعرف عن الحياة وعن الرجال شيئاً. إن ظروفاً عائلية شتى قد جعلت هذا الرجل يحب هذه المرأة كأنها ابنته، وكان يخشى أن يحبها حباً غير هذا الحب...

وصمت، وانتظرت أن يتابع كلامه. ثم عاد يتكلم فقال فجأة بتدفق سريع جازم من دون أن ينظر اليَّ:

- ولكن الرجل نسي أن «ب» شابة في مقتبل العمر وأن الحياة لا تزال تبدو لها لعباً، وأن من السهل أن يحبها حباً غير ذلك الحب، فتجد هي في ذلك تسلية سارة. ولكنه أخطأ ظنه، فها هي عاطفة أخرى، عاطفة ثقيلة كعذاب الضمير، تتسلل الى نفسه فتروّعه. لقد أرعبه أن يرى علاقات الصداقة بينهما تزول، فقرر أن يرحل قبل أن تزول هذه العلاقات.

وفيما كان يقول هذا الكلام ويصطنع طلاقة مفتعلة، أخذ يفرك عينيه، وغطاهما بيده. فقلت:

- ولكن لماذا كان يخشى أن يحبها حباً غير ذلك الحب؟

ولا شك أن لهجتي بدت له مسرفة في الخفة، فها هوذا يجيبني وقد ظهر على وجهه أنه مجروح:

- وأنت شابة وما أنا بشاب. أنت تريدين أن تتسلي وأنا في حاجة الى شيء آخر. العبي ولكن لا تلعبي معي، وإلا فقد أصدقك، فأشقى أنا وتشعرين أنت بعذاب الضمير.

ثم أضاف يقول:

- إن «أ» هو الذي يكلمك. على كل حال، هذه كلها سخافات وأنت تفهمين لماذا أرحل. فلا نتكلمن بعد في هذا الأمر، أرجوك...

قلت بصوت قريب من الدموع:

- بل فلنتكلم في الأمر. أكان يحبها أم لا؟

لم يجب. وتابعت كلامي فقلت:

- إذا لم يكن قد أحبها، فلماذا لعب بها كما يلعب بطفلة؟

قال يقاطعني متعجلاً:

- نعم، نعم. لقد كان «أ» آثماً. ولكن كل شيء انتهى. وافترقا الآن... صديقين!

دمدمت أقول مرتاعة مما قلت:

- ولكن هذا رهيب! أليس هناك مخرج آخر؟

قال وهو يكشف عن وجهه المضطرب ويحدق إليَّ:

- بلى! هناك مخرج آخر. بل هناك مخرجان اثنان. ولكن، رحماك، لا

تقاطعيني، وحاولي أن تفهمي ما أقول.

وتابع كلامه، فقال وهو ينهض ويبتسم ابتسامة أليمة:

- بعضهم يدّعي أن «أ» فقد عقله، وأنه جنَّ بحب «ب» جنوناً وأنه صارحها بذلك فلم تزد على أن ضحكت. لقد كان الأمر في نظرها لعباً ولهواً، أما في نظره فكان قضية حياة أو موت.

ارتعشتُ، وأردت أن أقاطعه، وأن أمنعه من التحدث بلساني والكلام نيابة عني، لكنه توقع ردي هذا فوضع يده على يدي، وقال بصوت متهدج:

- وبعضهم يزعم أنها قد أخذتها به شفقة، وتخيلت هي المسكينة التي لم تعرف من الحياة شيئاً أنها تستطيع أن تحبه، وظن هو المسكين المجنون أنه يستطيع أن يبدأ حياته من جديد، ولكنها أدركت من تلقاء ذاتها أنها قد خدعته وأنها قد انخدعت هي نفسها.

وختم كلامه بقوله: لا تتكلمن عن هذا بعد!

وكان واضحاً أنه عجز عن إتمام حديثه. فأخذ يذرع أرض الشرفة.

لقد قال «لا تتكلمن عن هذا بعد!». لكنني رأيت أنه كان بكل خلجة فيه ينتظر جوابي. وكنت أود أن أتكلم ولكنني لا أستطيع، فإن حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدري ويخنقني خنقاً. ونظرت إليه، فرأيته شاحب اللون، ورأيت شفته السفلى ترتجف. فأشفقت عليه، وبذلت جهداً، ثم إذا أنا أقطع حبل الصمت الذي كان يكبّلني، وآخذ أتكلم بصوت هادئ عميق كنت أخشى أن أراه يتحطم في كل لحظة قلت:

- والمخرج الثالث...

وانتظرت، لكنه ظل صامتاً. فتابعت أقول:

- الافتـراض الثالـث هو أنه لم يكن يحبها، وأنه آلمهـا كثيراً، واعتقد بأن من حقه أن يرحل، فرحل فآلمها مزيداً من الإيلام، رحل وهو يشعر بنوع من الفخر والاعتزاز. في نظرك أنت لا في نظري أنا إنما كان ذلك كله لعباً ولهواً. لقد أحببتك منذ اليوم الأول....

ورددت أقول مرة أخرى:

- أحببتك.

ورأيـت أن صوتـي الهـادئ العميـق قد اسـتحال حين ترديـد كلمة «أحببتك» هذه، الى صرخة أرعبتني أنا نفسي.

كان واقفاً أمامي شاحب الوجه، وكانت شفته السفلى ترتجف مزيداً من الارتجاف شيئاً بعد شيء، وسالت على خديه دمعتان.

صحت أقول وأنا أكاد أختنق بدموعي المكبوحة:

- سيئ هذا الذي تفعله! ماذا صنعت حتى أستحق منك هذا الشرّ؟

ونهضت لأتركه. لكنه لم يدع لي أن أمر، بل أراح رأسـه على ركبتيَّ وجعل يقبل يديَّ اللتين كانتا لا تزالان ترتجفان، فتبتل بدموعه راحتاي. وقال: يا رب... لو أنني علمت...

وظللت أردد قولي: ماذا فعلت حتى أستحق منك هذا الشر؟

ولكنني نفسـي كانت تفيض بالسعادة، بالسعادة التي ذهبت الآن ثم لم تعد أبداً.

بعـد خمس دقائق، كانت صونيا تصعد الى كاتيا ركضاً وهي تصيح: «ماشا تريد أن تتزوج سرجي ميخائيلوفتش».

- 5 -

لم يكن هناك أي سبب يدعو الى تأخير زواجنا، ولم نكن نريد هذا التأخير، لا أنا ولا هو. صحيح أن كاتيا أفصحت عن أمنيتها أن تسافر الى موسكو لتوصي على الجهاز. وصحيح أن حماتي المقبلة تمنَّت أن يقتني ابنها قبل الزفاف مركبة، وأن يشتري أثاثاً جديداً، وأن يتجدد فرش المنزل. ولكننا أصررنا على أن هذا كله يمكن أن يتم بعد الزفاف إذا مسّت الحاجة اليه. وقررنا أن نتزوج بعد عيد ميلادي بخمسة عشر يوماً، بلا جهاز، ولا دعوات، ولا غلمان شرف، ولا عشاء، ولا شمبانيا، أي بلا أي شيء من هذه الأشياء الإضافية التي اصطلح الناس عليها في احتفال كهذا الاحتفال. وقد حكى لي سرجي كيف أن أمه قد ساءها أن يحتفل بالزواج بلا موسيقى، وبلا أكداس من الصناديق، وبلا تجديد للمنزل كله. فان هذا لا يشبه عرسها هي، الذي كلف ثلاثة آلاف روبل! وعلى غير علم منه أخذت تنبش صناديقها وتجري أحاديث خطيرة مع خادمتها ماريوشا عن السجاجيد والستائر والصينيات وما الى ذلك مما

تـرى أنه لا بـد منه في رأيهـا لسـعادتنا. وكذلك أخذت كاتيـا تفعل مع مربيتنا كوزمينتشـا، ولم يكن ثمة مجال للهـزل معها في هذا الأمر. لقد كانت مقتنعة اقتناعاً راسـخاً بأننا حين نتحدث أنا وسرجي عن مستقبلنا لا نزيد على أن نتبادل كلمات عاطفية ولا نهتم الا بترّهات وسفاسـف، فهذا شـأن من كان في مثل حالنا، على حين أن سـعادتنا في المسـتقبل إنما هي مرهونة بحسن تفصيل قمصاني وتطريزها، ودقة شغل الأغطية والمناشـف. وكانت بوكروفسكويا ونيكولسـكويا تتبادلان في كل يوم أنباء سـرية عن الاسـتعدادات الجارية. ورغم أن العلاقات بين حماتي وكاتيـا كانـت فـي الظاهر دمثـة كل الدماثة فقـد كان المـرء يلاحظ في الواقـع أن بينهمـا عداوة صامتـة تلطفها «دبلوماسية» رقيقـة. إن تاتيانا سـيميونوفنا، التـي صرت أعرفهـا الآن معرفـة أكمل، امـرأة متعجرفة، وربـة بيـت صارمـة، وسـيدة كبيـرة مـن الطـراز القديم. وكان سـرجي ميخائيلوفتش لا يحبها حب الابن لأمه قياماً بالواجب فحسب، بل كان يحبهـا حباً صادقاً خالصاً، ويقدرها قدراً عظيماً، ويعدها أحسـن نسـاء العالم، وأذكاهن، وأكثرهن مودة ومحبة. ولقد كانت تاتيانا سيميونوفنا تعاملنا دائماً أطيب معاملة، وتعاملني أنا خاصة أطيب معاملة، ولكن لم يفتها حين زرتها، وأنا خطيبة ابنها، أن تلمع الى أن ابنها كان يستطيع أن يوفق الى زوجة أحسـن، وانني أحسن صنعاً إذا لم أنس هذا في يوم من الأيام... ففهمت رأيها كل الفهم.

أصبحنا نلتقي خلال هذين الأسـبوعين كل يوم. كان سرجي يجيء الـى الغداء، ويمكث الى منتصـف الليل. ورغم ما كان يقوله من أنه في البعد عني لا يحيا (ولقد كنت أعلم أنه صادق في ما يقول)، فما من يوم

واحد قضيناه معاً الى آخره. لقد استمر في الاهتمام بأعماله. ولم يتبدل مظهر علاقاتنا الى أن تم الزواج، فهو لا يزال يخاطبني بصيغة الجمع، وهو لا يقبِّل يدي، وهو لا يسعى الى أن يخلو بي، بل هو كمن يتجنب هذه الخلوة تجنباً مقصوداً. فكأنه يخشى الاستسلام لحبه الكبير المخيف. لا أدري من منا تغير، ولكنني شعرت حينئذ بأنني أساويه في كل شيء، فلست أرى فيه تلك البساطة المصطنعة التي كانت لا ترضيني، اختفى الرجل المهيب الذي يثير الخشية والاحترام، ولم يبق أمامي إلا طفل وديع طاش صوابه سعادة. «لا شيء فيه غير هذا!». وصار يتراءى لي أن نفسه لا تشتمل على أسرار خافية عني، وأنني قد فهمته فهماً كاملاً. وكل ما اكتشفه فيه، أصبحت أراه بسيطاً غاية البساطة، مطابقاً لما في نفسي. حتى مشاريعه للمستقبل هي مشاريعي، باستثناء فرق طفيف هو أنها ربما كانت عنده أكثر وضوحاً وأشد تحديداً.

الجو رديء، فنحن نقضي أكثر يومنا في البيت وأحاديثنا الحميمة انما تجري في زاوية من الصالون بين البيانو والنافذة. وعلى النافذة ينعكس ضياء الشموع، وعلى زجاجها تسيل قطرات المطر. ووابل المطر يقرع السقف قرعاً، وماؤه يساقط في البركة تحت المزراب ويتراقص عليها، والرطوبة تنفذ من مصاريع النافذة، فلا يزداد ملاذنا من ذلك كله إلا اشراقاً وطراوة وفرحاً.

قال لي ذات ليلة وقد لبثنا في ركننا الى ساعة متأخرة:

– هل تعلمين؟ أنني أريد منذ مدة طويلة أن أقول لك شيئاً: بينما كنت تلعبين كنت لا أفكر إلا في هذا الأمر.

– لا تقل شيئاً فأنا أعلم كل ما قد تقوله.

- نعم، صحيح، لا نتكلمَنّ في هذا.

- بل قل. ما هو الأمر؟

- هل تتذكرين اليوم الذي كلمتك فيه عن «أ» و «ب»؟

- كيف لا أتذكر تلك المسألة السخيفة؟ من حسن الحظ أنها انتهت الى خير...

- كنت على وشك أن أفقد سعادتي الى الأبد بخطأي. فأنقذتني أنت، ولكن أخطر ما في الأمر هو أنني كنت أكذب، وإني لأشعر الآن من ذلك بخزي، فأود أن أعترف لك بكل شيء الى النهاية.

- أرجوك، لا تفعل!

قال مبتسماً:

- لا تخشي شيئاً، فإنما أنا في حاجة الى أن أجد لنفسي مسوّغاً. لقد بدأت الكلام رغبة مني في الاستدلال المنطقي.

- علام هذا! لا حاجة إليه أبداً.

- نعم، لقد أسأت الاستدلال ولم أحسنه، ذلك أنني حين عدت الى الريف بعد كل ما منيت به من خيبات الأمل، وكل ما وقعت فيه من أخطاء، قلت لنفسي جازماً إن الحب قد انتهى بالنسبة إليَّ، فلم يبق لي إلا الواجب. ولم أستطع أن أتبين على الفور ما تحمله نفسي من عواطف، ولا كنت أستطيع طبعاً أن أتخيل ما ستقودني إليه هذه العواطف. كنت آمل من دون أن آمل. تارة يتراءى لي أنك لا تزيدين على الغنج، وتارة أثق بك وأطمئن إليك. وفي الحالين كلتيهما لا أعرف ماذا أعمل. ولكن بعد تلك الأمسية... تتذكرين أمسية نزهتنا في الحديقة ليلاً... اعتراني خوف: بدت لي سعادتي الحاضرة مسرفة في السعة، مستحيلة البلوغ. ما عسى كان يقع لي لو أبحت

لنفسي أن آمل في غير طائل؟ وكنت لا أفكر طبعاً إلا في نفسي، فأنا امرؤ أنانيّ كريه.

وصمت لحظة وهو ينظر إليَّ. ثم أردف:

– مع ذلك لم يكن كل ما قلته لك حينذاك خالياً من المعنى. لعلني كنت أشعر بخوف، بل لا بد أنني أشعر بخوف. إنك تجيئيني بأشياء كثيرة، وأنا لا أجيئك إلا بالقليل القليل. أنت طفلة، أنت برعم سيتفتح، أنت تحبين أول مرة، أما أنا...

قلت: نعم، كلمني بالصدق كله...

لكنني سرعان ما خفت من جوابه، فاستدركت قائلة:

– بل لا تقل شيئاً.

فقال وقد حزر ما دار في خلدي:

– ماذا؟ تقصدين هل أحببت من قبل؟ أهذا ما تعنين؟ لا، لم أحب في يوم من الأيام. لم أشعر يوماً بشيء يشبه ما أشعر به الآن من عاطفة...

ولكن كأن ذكرى أليمة قد انبجست فجأة في خياله، فقال برقّة وحنان:

– لا، هنا أيضاً أنا في حاجة إلى قلبك كله ليحق لي أن أحبك. ألم أكن على صواب إذ قررت أن أفكر قبل أن أعترف لك بحبي. بماذا أجيئك؟ بالحب؟ نعم، هذا صحيح.

سألته وأنا أنظر الى عينيه:

– أليس هذا كافياً؟

وتابع هو كلامة فقال:

– هذا قليل جداً يا صديقتي، قليل عليك. إنك تملكين الجمال والشباب!

كثيراً ما أقضي الآن لياليّ برمتها مسهَّداً لا أنام من فرط سعادتي، مفكراً في الحياة التي سنحياها معاً. لقد عشت طويلاً فسأظن أنني قد اكتشفت ما أنا في حاجة إليه حتى أكون سعيداً: حياة هادئة، معتزلة، في ريفنا المنعزل، والقدرة علـى فعل الخير لهؤلاء الناس الذين تسهل خدمتهم كثيراً، لأن ذلك أمر لم يألفوه، ثم العمل، العمل الذي ينفع، وأخيراً الراحة، والطبيعة، والكتب، والموسيقى، وحب الحبيب. تلك هي السعادة التي لا أتخيّل شيئاً عداها ولا أحلم بسواها. ثم توافيني فوق ذلك كله صحبة كصحبتك، وربما أرزق أسرة فأوهبُ كل ما يمكن أن يتمناه انسان.

قلت: نعم.

- تصدق كلمة نعم هذه على رجل تقدم في السن فما هو الآن بشاب، ولكنها لا تصدق عليك أنت. أنت لم تعيشي بعد، وقد تبحثين عن السعادة في غير هذا الذي وصفت، وقد تجدين هذه السعادة فعلاً في غير ما ذكرت. اليوم يتراءى لك أن السعادة هنا لأنك تحبينني.

- بل أنا تمنيت دائماً وأحببت دائماً هذه الحياة العائلية الهادئة. وأنت في ما قلته لم تزد على أن عبَّرت عمَّا يدور في خاطري أنا نفسي.

ابتسم. ثم قال:

- يتراءى لك يا صديقتي!... ذلك لا يمكن أن يكفيك.

ثم ردد جملته التي قالها منذ حين، رددها شارد الفكر:

- إنك تملكين الجمال والشباب!

حنقت عليه لأنه لا يصدِّقني، ولأنه يأخذ عليَّ أن أكون شابة. وأن أكون جميلة. فقلت له غاضبة:

- فلماذا تحبني إذاً؟ أتحبني لشبابي أم تحبني لذاتي؟

- لا أدري. ولكنني أحبك.

أجاب بذلك وهو يحدق الي بنظرة منتبهة جذابة.

لم أردَّ عليه، وشخصت ببصري الى عينيه متفرِّسة كأنما رغم إرادتي. فاذا بشيء غريب يعتريني فجأة: أصبحت في أول الأمر لا أرى ما حوله، ثم غاب عني وجهه إلا عينيه تتألقان بقرب عيني في ما يبدو لي، ثم أحسست أن عينيه قد صارتا فيَّ، واختلطت الأمور كلها، فأصبحت لا أميّز شيئاً، وخفضت حاجبيَّ لأتخلص من ذلك الإحساس اللذيذ بالخوف الذي تثيره في نفسي نظرته...

صحا الجو في عشية اليوم المحدد موعداً للزواج. فكانت تلك أول أمسية صافية باردة من أماسي الخريف بعد أمطار الصيف. كان كل شي بارداً مبتلاً مضيئاً، حتى ليرى المرء في الحديقة منذ ذلك الحين ما يأتي به الخريف من تعرّي الأغصان وتنوّع الألوان وانفساح المكان. والسماء رائقة باردة شاحبة. وصعدت الى غرفتي لأنام، فكنت أسعد حين أتصور أن الغد، وهو يوم عرسي، سيكون الجو فيه جميلاً.

واستيقظت مع شروق الشمس، وتذكرت أن هذا اليوم هو يوم عرسي... فدهشت حتى لكدت أرتاع. ونزلت الى الحديقة. الشمس قد طلعت منذ هنيهة، فهي تتلألأ متمزّقة بين أغصان أشجار الزيزفون التي تعرّت من أوراقها. وكان ممر الأشجار مفروشاً بالأوراق الميتة تخشخش تحت القدمين. وكانت العناقيد الذابلة من ثمار أشجار الغبيراء بقعاً ساطعة بين الأوراق القليلة التي غضَّنها الصقيع. وكانت أشجار الدهلية سوداء ذاوية. ولأول مرة كانت الملحة تلون ببريق الفضة خضرة العشب الحائلة وحشائش البلسكاء قرب المنزل. وكانت السماء الصافية الباردة خالية من أية غمامة.

تساءلت وأنا لا أجرؤ أن أصدِّق سعادتي: «اليوم عرسي حقاً؟ هل يعقل أن لا أستيقظ من نومي غداً هنا بل في المنزل ذي الأعمدة بأرض نيكولسكويا؟ أصحيح أنني لن أنتظره بعد الآن، ولن أتكلم عنه في الليل مع كاتيا؟ وأنني لن أبقى جالسة معه أمام البيانو في صالون بوكروفسكويا؟ وأنني لن أمضي أشيِّعه ولن أقلق عليه حين ينصرف في الليل المظلم؟». وأذكر أنه قال بالأمس إن هذه هي المرة الأخيرة التي يجيء فيها الينا. وقد أجبرتني كاتيا على أن أجرِّب فستان الزفاف قائلة لي: «ستلبسينه غداً». وصدقت كلامها لحظة ثم عاد الشك يساورني، وأخذت أحدِّث نفسي قائلة: «هل يعقل أنني سأمضي أعيش هناك في هذا اليوم نفسه مع حماتي، محرومة من مربّيتي، ومن العجوز جريجوار، ومن كاتيا؟ وأنني لن أقبِّل بعد اليوم مربيتي، متمنية لها ليلة سعيدة، وأنني لن أرى بعد اليوم إشارة الصليب ترسمها علي بعادة قديمة، قائلة لي: «أرجو لك نوماً هانئاً يا آنسة»؟ وأنني لن أعمل ولن ألعب بعد اليوم مع صونيا، ولن أقرع جدار غرفتها في الصباح، فأسمع ضحكها الرنان؟ هل يعقل أنني سأصبح منذ اليوم غريبة عن نفسي، وأن تحقّق آمالي ورغباتي سيفتح لي باب حياة جديدة؟ وهل يعقل أن تكون هذه الحياة الجديدة هي خاتمة المطاف؟». وانتظرت سرجي ميخائيلوفتش نافدة الصبر، فقد كان يشق علي أن أخلو الى خواطري وحيدة. ووصل سرجي مبكراً، وحين وصل إنما صدقت أخيراً أن زواجي واقع في هذا اليوم حقاً، فكفت هذه الفكرة عن تعذيبي.

وقبل الغداء ذهبنا الىٰ الكنيسة لاقامة صلاة على روح أبي. وحدّثت نفسي أثناء العودة قائلة: «لو أنه لا يزال حياً...»، واستندت الى ذراع

الرجـل الـذي كان خير صديق لمن كنت أفكر فيـه. كنت أثناء القداس، حيـن ألمـس بجبهتي البلاطات الباردة في الكنيسـة، أتخيـل أبي تخيلاً قوياً حتى لأكاد أراه، وأؤمن ايماناً راسـخاً بأن روحه تفهمني وتحبِّذ ما وقـع عليه اختياري، وبلغت من ذلك كلـه أنني ظللت الى تلك اللحظة أتصـور أن روحـه تحلِّـق فوقنـا وتباركنـا. وانصهرت ذكرياتـي وآمالي وسـعادتي وأسـاي، انصهر ذلـك كله في إحسـاس واحد قوي مُسْـكِرٍ يناسـب ذلك السكون الطري، وذلك الصمت السـاجي، وذلك العري في الحقول، وذلك الشـحوب في السـماء التي تسـقط منها على جميع الأشـياء أشـعة مضيئة لكنهـا واهنة تحـاول أن تحرق خـدي فلا تفلح. وكان يبـدو لـي أن زوجـي يفهمنـي ويشـاركني عواطفـي. كان يتقـدم صامتاً، وكان وجهه الذي أختلس النظر اليه يعبّر ذلك التعبير نفسـه عن الفرح والأسى الناعم، الذي كان يتجلى في الطبيعة وكان يملأ نفسي.

والتفت الي فجأة، فعرفت أنه يريد أن يقول لي شـيئاً. فقلت لنفسي: «مـاذا لو كلمني عما أنا أفكر فيـه؟»، فإذا هو يحدثني عن أبي، حتى من دون أن يذكر اسمه. قال:

- قال لي ذات يوم مازحاً: ماذا لو تزوجت ماشا؟

فقلت وأنا أضغط ذراعه التي أتكئ عليها مزيداً من الضغط:

- لو كان حياً لسعد اليوم سعادة عظيمة!

قال سرجي ميخائيلوفتش وهو ينظر إلى عينيَّ:

- نعم، لم تكوني إلا طفلة في ذلك الحين، وكنت أقبّل عينيك لا لشـيء إلا لأنهما تشبهان عينيه، ولم أكن أتنبأ بأنني سأحبهما لذاتهما. وكنت أناديك في ذلك الزمان ماشا.

قلت: خاطبني بصيغة المفرد.

قال:

- هممت أن أخاطبك بصيغة المفرد. اليوم إنما أحسّ بأنك لي حقاً.

وتلبثت عليَّ نظرته الهادئة السعيدة الآسرة.

وظللنا نتقدم خلال الحقول في طريق لا يكاد يبين، وكانت خطانا وصوتانا تقطع وحدها الصمت. في إحدى الجهتين يمتد حقل يضرب لونه الى سمرة، قد غطته الحشفة، وأخذ فلاح يشق فيه بمحراثه سُلماً أسود ما ينفك يزداد عرضاً. فمنظر هذا الحقل يشمل الأقاصي من فوق الوادي، ويصل الى الغابة التي تعرّت أشجارها من الأوراق، ويضم قطيع الأفراس الذي يمر عند سفح الأكمة ويبدو قريباً كل القرب. وفي الجهة الأخرى، وأمامنا حتى البستان والمنزل الذي يلمح في آخره، يعلو قمح الخريف مخضوضراً هنا وهناك في الحقل الأسود الذي ذاب عنه الصقيع. وعلى كل شيء تتلألأ شمس باردة، على كل شيء تستريح خطوط طويلة من الكوكب البكر، تتموج حولنا، وتسقط على حشفة يبَّسها الجليد، وتلتصق بأعيننا وشعرنا وثيابنا. فإذا تكلمنا ترجَّع صوتانا وتلبثا فوقنا في الهواء الساكن كأننا وحيدان في هذا العالم تحت قبة هذه السماء الزرقاء التي تتوهج فيها شمس لا حرارة لها ترتعش كالمتراقصة.

أنا أيضاً كنت أود أن أخاطبه بصيغة المفرد لكنني لا أجرؤ. ثم عزمت أمري فقلت له بهذه الصيغة مدمدمة:

- لماذا تسرع في السير هذا الاسراع؟

واحمرّ وجهي احمراراً شديداً رغم إرادتي.

فأبطأ في خطوه، ونظر إليَّ بمزيد من العاطفة والحنان، ومزيد من السعادة أيضاً.

حتى إذا وصلنا البيت وجدنا أمه تنتظرنا مع الضيوف الذين كانت دعوتهم أمراً لا غنى عنه. فلم أخلُ اليه ولم أتفرّد به الى أن ركبنا العربة عند خروجنا من الكنيسة ذاهبين الى نيكولسكويا.

كانت الكنيسة شبه خالية. فكنت أرى حماتي واقفة على سجادة بقرب الخورس، وأرى كاتيا وقد وضعت على رأسها طاقية لها شريط بلون البنفسج، وأخذت الدموع تسيل على عينيها، وأرى خادمين أو ثلاثة يتأملونني مستطلعين. لم أنظر الى سرجي ميخائيلوفتش، ولكنني كنت أحس بحضوره الى جانبي. وحرصت على أن أسمع كلمات الصلوات سماعاً واضحاً، حتى لقد كنت أرددها، ولكن نفسي لم ترجِّع أي صدى لها. كنت لا أستطيع أن أصلِّي. فأنا أنظر، مبهوتةً، الى الأيقونات، والشموع، والصليب المطرز على حلة القداس التي يلبسها الكاهن، وحاجز الأيقونات، والزجاج المعشَّق، ولا أفهم شيئاً. لكنني أحسُّ بأن حادثاً خارقاً يتم حولي. حتى إذا التفت الكاهن الينا مع صليبه، هنّأني وقال إنه هو الذي عمَّدني، وإن إرادة الله شاءت أن يزوِّجني هو أيضاً. وقبّلتنا حماتي وكاتيا، ودوَّى صوت جريجوار منادياً المركبة. فأدهشني وروَّعني أن يكون كل شيء قد انتهى، وأن نفسي لم يحدث فيها أي شيء استثنائي يناسب السرّ الذي تحقّق. وقبَّل كل منا الآخر، ولكن هذه القبلة بدت لي غريبة لا علاقة لها بعاطفتنا. حتى لقد قلت بيني وبين نفسي: «أهذا هو الأمر كله؟». وخرجنا الى فناء الكنيسة، وترجّعت جلبة العجلات ثقيلةً تحت القبة، ولطمت

وجهي نسمة هواء بارد، ووضع سرجي ميخائيلوفتش قبعته على رأسه، وساعدني في صعود العربة. وأبصرت القمر من خلال الزجاج وقد حفت بـه هالة أيام الجليد. وجلس زوجي بقربي، وأغلق باب المركبة. شعرت بما يشبه أن يكون طعنةً في قلبي. لكأن ما أراه فيه من ثقة هادئه يجرح شعوري ويؤذي كرامتي. ودوًى صوت كاتيا تحضّني على أن أغطي رأسي، وسارت العجلات على الطريق المرصوف أولاً، ثم انخرطت في الطريق اللين الرخو، ورحلنا!... غصت في ركن من العربة، وأخذت أتأمل، من خلال الزجاج، الحقول البعيدة، والطريق الذي يوغل في سناء القمر، البارد. ومن دون أن أنظر الى سرجي، كنت أحسه بجانبي، وأقول لنفسي: «هذه اللحظات التي طالما انتظرتها لم تجئني بشيء كثير»، وبدا لي أنه من المهانة والمذلة أن أبقى هنا وحيدة قريبة منه هذا القرب كلّه. فالتفتّ وقد عقدت العزم على أن أقول له شيئاً. ولكن الكلمات لم تسعفني، فكأن ما كنت أحمله من حنان قد زال وحلَّ محله إحساس بالمهانة والخوف.

قال سرجي برقة ولطف، رداً على نظرتي إليه:

- كنت إلى هذه الدقيقة لا أصدّق أن هذا ممكن.

قلت: نعم... ولكن... لا أدري لماذا أنا خائفة!

- خائفة مني يا صديقتي؟

قال ذلك وهو يتناول يدي ويميل عليها. فسكنت يدي في يده بلا حياة، وشعرت بقلبي الموجع يتقلص برداً. وقلت مدمدمة: نعم.

ولكن قلبي أخذ يخفق في تلك اللحظة خفقاناً أشد، وارتجفت يدي وضغطت يده، واجتاحتني حرارة، وراحت عيناي تبحثان عن نظرته في

ما يشبه الظلام، وأدركت فجأة أن الخوف قد بارحني، وأن تلك الخشية كانت حباً، حباً جديداً كل الجدة، حباً أعمق مما كان يملأ قلبي قبل ذلك من حب. وأحسست بأنني ملك يمينه، فأسعدني ما له عليَّ من سلطان.

القسم الثاني

- 1 -

انقضت الأيام والأسابيع. ومرَّ شهران من حياة في الريف هادئة معتزلة لا نحس بمرورها، أو ذلك ما اعتقدته حينذاك على الأقل. والواقع أن الانفعالات والاحساسات والسعادة التي عرفناها في تلك الأسابيع القليلة يمكن أن تكفي حياةً بكاملها. صحيح أن الأحلام التي بنيناها عن أسلوب حياتنا المعتزلة لم تتحقق كما كنا نتمنى. ولكن حياتنا نفسها لم تكن أقلَّ مما حلمنا به. كان ينقصنا العمل الصارم، وشعور القيام بالواجب، والتفاني، والتضحية بالنفس في سبيل الغير مما كنت أتخيله أثناء الخطوبة، فلم يكن بيننا إلا حب أناني، ورغبة لدى كل منا في أن يحبه الآخر، وفرح دائم ونسيان كامل لكل ما عدا ذلك في الكون. صحيح أن زوجي كان في بعض الأحيان يعتزل بمكتبه ليعمل، أو كان يسافر الى المدينة، أو كان يمضي يهتم بشؤون أعماله. لكنني كنت أرى رؤية واضحة أنه كان عليه كثيراً أن يتركني. حتى لقد كان يعترف لي هو نفسه أن كل ما عداي يبدو له خليقاً بأن يهمل فلا

يتصور أن في وسعه بعد الآن أن يهتم به. وكذلك كان شأني أنا. كنت أقرأ، وأعزف على البيانو، وأعنى بأمر المدرسة، أو أصحب حماتي. ولكنني كنت لا أفعل شيئاً من هذا كله لأن له علاقة به، فمتى غابت صورته عن عمل من الأعمال، هجرت ذلك العمل، لاعتقادي بأنه لا يمكن أن يوجد في العالم شيء غير زوجي! لعل هذا لم يكن إلا أنانية. ولكن هذه الأنانية كانت تحمل إلي السعادة، وترفعني فوق مستوى الحياة اليومية. كان العالم في نظري خالياً إلا من زوجي، وكنت أعد زوجي أحسن رجل على وجه الأرض. فكنت لا أستطيع أن أحيا إلا من أجله، كيما أظل في نظره ما كان يريد أن يراه فيَّ. وكنت في نظره أجمل امرأة في العالم، وكان يراني متحلية بجميع المزايا والفضائل. وكنت أحاول أن أكون كذلك في نظر هذا الرجل الذي أعده أحسن رجل على وجه الأرض.

في ذات يوم دخل غرفتي بينما كنت أصلِّي. فنظرت اليه واستمررت في تلاوة صلواتي. فجلس بقرب النافذة حتى لا يزعجني، وفتح كتاباً. وبدا لي أنه ينظر إلي، فالتفت نحوه، فابتسم، فانفجرت ضاحكة، ولم أستطع أن أستأنف تلاوة صلواتي.

قلت أساله:

- هل صليت؟

- نعم. أكملي صلاتك.

- آمل أن تصلي حقاً.

وأراد أن يخرج من دون جواب. لكنني استوقفته، وقلت له:

- عزيزي، أرجوك، افعل هذا من أجلي، اتل صلواتك معي. فوقف الى

جانبـي، ودلّى ذراعيـه بحركة خرقاء، وبدأ يتلو صلاته متـردداً عابس الوجه، وينظر إليَّ من حين إلى حين ناشداً مساعدتي ورضاي.

فلما انتهى عانقته ضاحكة.

قال وهو يحمَرُّ ويقبِّل يديَّ:

- دائماً أنت، دائماً أنت! لكأنني عدت إلى السنة العاشرة من عمري!

كان منزلنا واحداً من تلك المنازل الريفية العريقة التي تعاقبت عليها عدة أجيال يملأ قلوبها الحب والاحترام. ففي هذا المنزل تشيع ذكريات عائلية نبيلة أصبحت ذكرياتي أنا منذ حللت فيه. الأثاث والترتيب الذي أقامته تاتيانا سيميونوفنا يذكران بالأزمنة القديمة. لا يمكن أن نزعم أن كل شـيء فـي هذا المنـزل كان جميلاً وأنيقـاً. ولكننا نستطيع أن نقول إن كل شـيء فيـه، ابتداء مـن الخدم وانتهـاء بالأثاث ومـروراً بالطعام، كان وافـراً، ونظيفـاً، ومتينـاً، وكان فـي حالة حسـنة، وكان يحمل على الاحتـرام. الأثاث فـي الصالون رُتّب متناظراً، وكذلـك الصور المعلقة في الجدران. وعلى الأرض مُدَّت بسط وحصر. وفي المقصورة وُضع بيانـو ذو ذيـل، وخزانتان مختلفتان لهما أدراج، ودواوين واسـكملات مرصعة. وفي غرفتي التي زينتها تاتيانا سـيمونوفنا، وُضعت أجمل قطع الأثـاث التي تنتمي الـى عصور مختلفة، ومنها مرآة قديمة كنت في أول الأمر لا أسـتطيع أن أنظر الى صورتـي فيها إلا وأرتاع، لكنها غدت بعد ذلك عزيزة على نفسـي كصديق قديم. وكان صوت تاتيانا سـيميونوفنا لا يُسـمع في المنزل أبداً. كل شـيء يجري بدقة تامة كسـاعة مضبوطة، رغم كثرة الخدم. فجميع الخدم ينتعلون أحذية مرنة ليست بذات كعب (إن تاتيانا سيميونوفنا ترى في ضجة وقع الأقدام إزعاجاً لا يضارعه في

هذا العالم إزعاج) وكانوا كالفخورين بما هم فيه، وكانوا يرتعدون أمام السيدة العجوز تهيباً، وينظرون إلينا، أنا وزوجي، نظرة رقيقة تحمل معنى الحماية والرعاية. الخلاصة أن كل واحد كان يبدو عليه أنه يقوم بواجبه راضياً كل الرضا مبتهجاً أعظم الابتهاج. وفي كل يوم من أيام السبت كانت أرض المنزل تُغسَل حتماً وكانت تُنظَّف السجاجيد، وفي مطلع كل شهر كانت تُقام الصلاة مع التبرك بالماء المقدس، وفي عيد تاتيانا سيمونوفنا، أو في عيد ابنها (أو في عيدي أنا الذي احتفل به لأول مرة في هذا الخريف) كانت تولم ولائم يدعي إليها جيران أرضنا جميعاً. إن هذه الطقوس الثابتة والعادات الراسخة يرجع عهدها الى أبعد زمان تتذكره تاتيانا سيميونوفنا. وكان زوجي لا يتدخل في شؤون المنزل، ولا يهتم إلا بشؤون الأراضي والفلاحين، واقفاً على هذه الشؤون وقته كله. إنه ينهض من نومه في ساعة مبكرة جداً، في الصيف وفي الشتاء على السواء، فاذا استيقظت أنا لم أجده. وكان يرجع الى البيت عادة في موعد الشاي، وكنا نشرب الشاي معاً في هذا الموعد وحيدين، كل يوم تقريباً، بعد أن يكون قد عانى أنواع المتاعب والهموم، فاذا هو عند موعد الشاي يعود الى ذلك المرح الخاص الذي كنا نسميه «السُّكر الوحشي». وكنت في كثير من الأحيان أسأله أن يحكي لي ما جرى له في الصباح، فكان يتدفق في هراء يبلغ من شدة الهزل أننا كنا نختنق بالضحك اختناقاً. وربما سألته في بعض الأحيان أن يقصَّ علي شيئاً فيه جد، فيكبح ابتسامته، ويطيع أمري، فكنت أتأمل عينيه، وأنظر الى شفتيه اللتين تتحركان ولا أفهم شيئاً، وإنما يسعدني أن أراه وأن أسمع صوته. فكان يسألني قائلاً:

- ماذا قلت؟ هيّا كرري ما قلت!

ولكننـي أعجـز عن تكـرار أي شـيء. وكان يبدو لي أمـراً غريباً كل الغرابـة أن يتحـدث «هو» إليَّ «أنا» لا عنه ولا عني، بل عن شـيء آخر. لـكأن كل مـا عدانا كان لا يمكن أن يسـتحق منا الاكتـراث. وبعد ذلك بزمـن طويـل إنمـا بـدأت أفهـم همومه وأشـاركه فيهـا. وكانـت تاتيانا سـيميونوفنا لا تظهر إلا حين نجلس الى المائدة للغداء، وكانت تشرب الشـاي وحدها، ولا تكلّمنا إلا بواسـطة سـفراء. وفـي عالمنا الخاص، السـعيد، المجنـون قليـلاً، كانـت أصداء ذلـك العالم الآخـر الرصين، المحتـرم اللائـق، تترجّـع ترجُّعـاً غريباً، حتـى إنني كثيراً مـا كنت أفقد تحكّمي بنفسـي وأنفجر ضاحكة حين كانـت خادمتها تأتي إلي، عاقدة يديها على صدرها، قائلة إن تاتيانا سيميونوفنا تود أن تعرف كيف قضينا ليلتنـا بعد حفلـة الليلة البارحة، وتبلغنا أنها قد شـعرت بألـم في جنبها طوال الليل، وأن كلباً غبياً قد حرمها النوم بنباحه.

- وتسـألك مولاتي هل أحببت فطائر هذا الصباح، لأن مولاتي تحب أن تذكّـرك بأن الذي صنعها ليس هو تاراس بل هو نيقولا، على سـبيل التجربة. ومولاتي ترى أن البسكويت كان طيباً، أما البسكوت فكان شواؤه زائداً.

قلمـا كنا نجتمع قبـل الغداء. فأنا أقرأ أو أعزف، وسـرجي يكتب أو يخـرج مرة أخرى. وكنا، قبل الجلوس الى المائدة في السـاعة الرابعة، نجلـس فـي الصالـون، فكانت حماتي تطلـع علينا مهيبة محاطة بنسـاء نبيـلات أخنـى عليهـن الدهـر، أو بجوّابات لا يخلـو منزلنا مـن اثنتين منهـم أو ثـلاث. وكان زوجـي، علـى عادتـه القديمة، يقـدم ذراعه الى أمـه، ولكنها كانت تطلـب منه أن يقدم ذراعه الأخرى إليّ أنا دائماً، فاذا

وصلنا الى الباب كان لا بد أن نتصادم هناك. وكانت تاتيانا سيميونوفنا تـرأس المائـدة، وكانـت الأحاديـث تـدور على أمـور فيها جـد وأبهة. والكلمـات التي نتبادلها أنـا وزوجي تتخلل هذه الجلسـات المتفخمة أثنـاء الغـداء تخلـلاً ممتعـاً. وكانت تنشـب بيـن الابن وأمـه في بعض الأحيـان مناقشـات، يتبادلان بعـض اللذعات، وكنت أحـب كثيراً هذه المناقشـات واللذعـات، لأنها تدل علـى الرابطة القوية التـي تربط بين سـرجي وحماتي. وبعد الغداء كانت «ماما» تسـتقر في الصالون جالسة على المقعد الضخم، وتأخذ تسـحق تبغاً أو تقص أوراق كتاب وصلها حديثـاً. وكنـا فـي أثناء ذلك نقـرأ بصوت عال، أو ننسـلّ الـى الصالون الصغيـر بقرب البيانـو. كنا نقرأ كثيراً، ولكن الموسـيقى كانت مسـرّتنا المفضلـة، فهي في كل مرة تثير فينا إحساسـات جديدة، وتتيح لكل منا أن يكتشـف صاحبـه مرة أخرى. فإذا عزفـت مقطوعات جديدة، جلس هو على ديوان، بعيداً عني، فلا أكاد أبصره، وحاول من شـدة الحياء أن يخفي المشاعر التي تحدثها الموسيقى في نفسه. ولكنني كنت في كثير مـن الأحيـان أدنو منه في لحظـة لا ينتظر فيها ذلك، فأرى في قسـمات وجهه ما كان يحاول أن يخفيه من انفعالات من دون أن يفلح. وكثيراً ما كانت «ماما» تحب أن ترانا في الصالون الصغير، ولكن كان واضحاً أنها تخشى أن تضايقنا. فكانت أحياناً تجتاز الصالون الصغير متظاهرة بأنها لا ترانـا، مصطنعة عـدم الاكتراث، ولكنني كنت أعلم أنه لا شـيء كان يوجب عليها أن تذهب الى غرفتها ثم تعود بهذه السـرعة. وفي المسـاء كنا نحتسي الشاي في الصالون، وكنت أنا التي أقدم الشاي، فبذلك كان يجتمع شـمل المنزل مرة أخرى. وقد ظل هذا الاحتفال بالشـاي، أمام

السماور الملتمع، وهذا التوزيع للأقداح والفناجين، يربكني ويحدث في نفسي اضطراباً خلال مدة طويلة. كان يبدو لي دائماً أنني غير جديرة بهذا الشرف، وأنني أصغر سناً وأقلُّ خبرة من أن أدير حنفية سماور فخم هذه الفخامة، وأن أضع الكؤوس على الصينية التي تحملها نيكيتا وأن أقول لها: «لبطرس ايفاتش... لماري مينيشنا...»، أو أن أسأل هل السُّكّر كاف؟ وأن أفكر في الاحتفاظ بشيء منه للمربية العجوز والخدم المستحقين. وكان زوجي يقول دائماً:

– ممتاز! ممتاز! لكأنك شخص كبير!

وبعد الشاي كانت «ماما» تلعب بالورق لعبة الصبر، أو تطلب من ماري مينيشنا أن تتنبأ لها بالمستقبل، ثم تقبّلنا كلينا وترسم علينا اشارة الصليب، فنمضي الى غرفتنا. وكنا في أكثر الوقت نظل نتحدث الى ما بعد منتصف الليل، فكانت تلك أجمل فترة من فترات يومنا. كان سرجي يقص عليَّ ماضيه، وكنا نبني مشاريع، أو نسترسل في بحوث فلسفية، محاولين أن نتكلم بصوت خافت، حتى لا يسمعنا أحد فوق، وحتى لا تعرف تاتيانا سيميونوفنا أننا ساهران، لأنها كانت تطلب منا دائماً أن ننام في وقت مبكِّر. وقد يعضّنا الجوع أحياناً، فنتسلل الى حجرة الخدمة، فنهيء وجبة باردة، مستظلين بحماية نيكيتا، ثم نأكل في غرفتنا ما نكون قد هيأناه، مستضيئين بنور شمعة واحدة. كنا كلانا نعيش كالغرباء في هذا البيت الواسع القديم الذي لا تبارح أرواح الماضي ركناً من أركانه، والذي تملأه روح تاتيانا سيميونوفنا القاسية بحضورها في كل مكان. وكان كل شيء، لا تاتيانا سيميونوفنا وحدها، بل كذلك الخدم الرجال، والخادمات العجائز، والأثاث، واللوحات،

كل ذلك يشيع في نفسي شعور الاحترام، بل يثير فيها نوعاً من الخشية، وإحساساً بأننا، أنا وسرجي، لسنا في مكاننا، وأن علينا أن نكون حذرين وأن نكون منتبهين أشد الانتباه. حين أتذكر الآن ذلك، أرى أن أموراً كثيرة، وهذا النظام الثابت المطرد الذي لا يتغير، وهذا الجمهور من الناس العاطلين المتطفلين، أن ذلك كله ليس مما يكفل الراحة، بل لعله يثقل على النفس. أما في ذلك العهد فقد كانت تلك المضايقة نفسها لا تزيد على أن تشحذ حبنا وتزيد أواره. فلا أنا ولا سرجي أظهرنا شيئاً من الامتعاض أو البرم. حتى إن زوجي كان يتحاشى أن يرى ما يمكن أن يستحق اللوم. كان خادم «ماما»، دمتري سيدوروف، وهو من عشاق الغليون، يدخل دائماً بعد الغداء الى مكتب سرجي، بينما نكون نحن في الصالون الصغير، فيأخذ لنفسه تبغاً من أحد الادراج. فليتكم ترون الخوف الفرح الذي كان يعبِّر عنه وجه زوجي إذ يقترب مني على رؤوس الأصابع، غامزاً بعينيه، ملوحاً باصبعه، ليدلني على دمتري الذي لا يخطر بباله أن أحداً يراه. حتى إذا خرج الخادم من المكتب من دون أن يبصرنا، فرحاً بأن كل شيء قد انتهى على خير، قال لي زوجي إنني ملاك رائع، وقبَّلني، على عادته في جميع الأحوال. وكان هذا الهدوء وهذا التسامح وهذه اللامبالاة بأي شيء، كان ذلك كله يضايقني أحياناً، من دون أن أرى أن سلوكي هو هذا السلوك نفسه، فآخذ ألوم سرجي قائلة لنفسي: «لكأنه طفل لا يجرؤ أن يظهر إرادته!».

وفي ذات يوم لمت سرجي على ضعفه، فهتف يقول لي:

– هل لإنسان أن يستاء حين يكون سعيداً كسعادتي؟ لأن يخضع المرء لغيره فذلك أسهل من أن يخضع غيره له. هذه قناعتي منذ زمن طويل. وما

من ظرف من الظروف إلا يمكن أن يسعد المرء فيه. إن سعادتنا كبيرة جداً. لا أستطيع أن أغضب. الآن لا وجود للشر في نظري، ولست أرى إلا ما يبعث على الشفقة أو ما يبعث على الضحك! لا تنسي خاصةً أن «الأحسن عدو الحسن». هل تصدِّقين أنني حين أسمع الجرس أو حين تُحمل إليَّ رسالة، يعتريني خوف؟ إنني أخاف من الحياة، أخاف أن أرى الأشياء تتغير، ولا شيء يمكن أن يكون أفضل من الحاضر.

كنت أصدِّق كلامه من دون أن أفهمه. كنت سعيدة. وكنت أظن أن الأمور لا يمكن أن تجري على غير هذا النحو، وأنها تجري هذا المجرى لدى جميع الناس. ومع ذلك كنت أتخيَّل أنه لا بد أن توجد سعادة أخرى، ليست أكبر من هذه السعادة ولكنها مختلفة عنها.

هكذا انقضى شهران. وجاء الشتاء ببرده وعواصفه الثلجية. فأخذت العزلة تثقل على نفسي، رغم أن سرجي لا يزال بقربي، وأخذت أحس بأن الحياة رتيبة تجري على وتيرة واحدة، وأصبحت لا أرى جديداً أكتشفه لا فيه ولا في نفسي، حتى لقد كنا نبدو كمن يتراجع دائماً الى وراء. صار زوجي يمضي الى أعماله ويهتم بها أكثر من أي وقت مضى، وتصورت أن له عالماً مستقلاً عني لا يريد لي أن أنفذ إليه. أصبح هدوؤه الكامل الذي لا يعكره شيء، يثير غيظي. صحيح أن حبي له لم يضعف، وصحيح أن سعادتي بأنه يحبني لم تنقص. ولكن حبه أصبح لا يزداد، بل هو ثابت على حاله، فتسلل الى نفسي شعور آخر هو نوع من القلق. صار لا يكفيني أن أحَبَّ، بعد أن ذقت سعادة هذا الحب. صرت كأنني أوثر حياة صاخبةً مضطربة، على هذه الحياة الهادئة الساكنة. صرت أتوق الى انفعالات ومخاطر يمكن أن

تتطلب مني تضحيات. صرت أحس بفيض من الطاقة لا أستعمله في حياتي الهادئة هذه، وأخذت تعتريني نوبات غمٍّ أحاول أن أخفيها عن زوجي كما يخفي المرء شيئاً مخزياً، ثم تعقب هذه النوبات اندفاعات حنان رقيق ومحبة عارمة مجنونة تروِّع زوجي. بل إن زوجي قد أدرك حالتي النفسية هذه قبل أن أدركها أنا بمدة طويلة، فاقترح عليَّ أن نسافر الى المدينة. ولكني رجوته أن لا نغير من حياتنا شيئاً حتى لا نحطم سعادتنا. ذلك أنني كنت سعيدة حقاً. وانما كان يعذبني أن أرى أن هذه السعادة لا تكلّفني أي جهد، ولا تقتضيني أية تضيحة، مع أن نفسي تفيض بطاقة كبيرة يمكن أن أنفقها في جهود وأن أبذلها في تضحيات. كنت أحب زوجي، وكنت أعلم أنني في نظره كل شيء. ولكنني كنت أتمنى أن يرى جميع الناس حبنا، وأن أُمنع من حبه، فأظل أحبه مع ذلك. كان فكري وقلبي ممتلئين، ولكن الشعور بالشباب لا يزال قوياً في نفسي، وما زلت أحتاج الى أن أتحرك، وذلك لم يكن يتاح لي في حياتنا الساكنة هذه. لماذا قال لي سرجي إن في وسعنا أن نسافر الى المدينة متى شئت أنا ذلك؟ لولا أنه قال لي هذا الكلام، فلعلني كنت سأدرك أخيراً أن ما أشعر به من عنت وإرهاق ليس إلا سخفاً ضاراً، وأنني أنا المذنبة الوحيدة، وأن التضحية التي أتوق إليها هي في متناول يدي، فليس عليَّ إلا أن أتغلب على ما أعانيه من غَمّ!

ولكن الفكرة التي تصوِّر لي أن السفر يمكن أن ينقذني من حالة الغم هذه، أصبحت لا تفارقني. وظللت أشعر في الوقت نفسه بخجل وخزي، بل أشعر بألم ومضض، حين أتصور أنني سأنتزع سرجي من كل ما يحبه ويؤثره. ويمضي الوقت، وتتراكم الثلوج مزيداً من

التراكـم علـى جدران المنـزل، ونحن لا نزال وحدنا، لـم يتغير أحد منا تجاه الآخر، على حين أن عالماً بكامله، عالماً متألقاً صاخباً، كان يتألم ويلهـو، هنـاك، مـن دون أن نخطر له على بـال، ومـن دون أن يفكر في حياتنا التي تنقضي. وأسوأ ما في الأمر أننا كنا نرى عاداتنا تجمِّد حياتنا يوماً بعد يوم في قالب ثابت لا يتغيَّر شكله، وأننا كنا نرى حبنا يفقد كل حرية ليطابق مجرى الزمن الذي يجري مطرداً هادئاً. فنحن عند الصباح في مرح، ونحن بعد الظهر في احترام، فاذا جاء المسـاء صرنا في حنان وحـب. أصبحـت أقول لنفسـي: «طيـب... إنه لشـيء عظيـم أن يفعل الإنسـان الخير، وأن يعيش حياة مستقيمة، كما يقول، ولكن لدينا متسع من الوقت للوصول الى هذه المرحلة، أما الآن فثمة أشـياء كثيرة أخرى تختزن نفسي طاقة كبيرة للفوز بها». ليست «الحياة البسيطة السهلة» هي مـا أريـد، وإنما أنا أريد حياة نضال وصراع. أريـد أن أحس بأن العاطفة هـي التي تقودني. أما الآن فان الحياة هي التي تقود عاطفتي. وددت لو أتقدم أنا وسـرجي من حافة هاوية، وأن أقول له: «خطوة أخرى فأسقط فـي الهاوية، حركة واحدة فأهلك»، فإذا هو يمسـكني بذراعيه القويتين وقد شحب لونه، ثم اذا هو يحملني الى أي مكان.

أخـذت هـذه الحالـة النفسـية تؤثر في صحتـي، وأخـذت أعصابي تهتاج. وشـعرت فـي ذات صباح بأنني أسـوأ حالاً مما ألفـت أن أكون فيه من سـوء الحال، وعاد سـرجي من مكتبه معتكر المـزاج، وهذا أمر كان لا يقـع له إلا في النادر القليل. فسـرعان ما لاحظت ذلك، وسـألته عما به. فلم يشـأ أن يجيبني، وقال إن الأمر لا يسـتحق أن يحدِّثني فيه. ثم علمت بعد ذلك أن رئيس الشـرطة كان قد استدعى فلاحينا، وطلب

منهـم مطالب غير مشـروعة، وهدَّدهم بالملاحقة اذا هـم لم يلبوا تلك المطالـب، ومـا ذلـك إلا لأنه كان لا يحـب زوجي. ولـم يفلح زوجي في التغاضـي عن هذا الحادث، واعتباره أمراً مضحـكاً تافهاً. وإنما هو غضب غضباً شـديداً، ثم لم يشـأ أن يكلمني في ما حدث. ولكن بدا لي أنـا أنه إنما يتجنّب الخوض معي في الحديـث لأنه يعدّني طفلة عاجزةً عن فهم ما يشغل باله. فأشحت عنه، وأرسلت الى ماري مينيشنا خادمةً ترجوهـا باسـمي أن تجيء إلينا لتناول الشـاي معنا. حتـى إذا فرغنا من الشـاي التي تعجلت الانتهـاء منها، اقتدت ماري مينيشـنا الى الصالون الصغيـر، وأخذت أكلمها في أي شـيء، متعمدةً أن يكون صوتي عالياً. وكان سـرجي يذرع الغرفـة ذاهباً آيبـاً، ويلقي علينا نظرات سـريعة من حيـن الـى حين. فـكان لنظراته هذه تأثير غريب في نفسـي، إذ اشـتدت رغبتي في الكلام اشـتداداً أكبر، بل أصبحت أرغب في الضحك أيضاً، فـكان كل مـا أقولـه، وكل مـا تقوله مـاري مينيشـنا يبدو لـي باعثاً على الضحك والقهقهة. وهذا هو سـرجي ينسل ذاهباً الى مكتبه من دون أن يقول شـيئاً، ويغلق البـاب وراءه. فما إن غاب عني، حتى زايلني مرحي دفعـةً واحـدة، فدهشـت ماري مينيشـنا دهشـةً شـديدة، وسـألتني عما يحـدث. فلم أجبها، وجلسـت على الديـوان كابحةً رغبتـي في البكاء. وقلت أحدث نفسـي: «ما الذي يشـغل باله ويحملـه على هذا التفكير؟ إنـه يجعـل من الحبة قبـة. فلو أفضى إلـيَّ بالأمر، لعرفت كيـف أبيِّن له تفاهـة ذلك كله. ولكنه يصـرّ على الاعتقاد بأنني لا أسـتطيع أن أفهمه، كأنـه في حاجة إلى إذلالي بجلال هدوئـه ورصانته، وفي حاجة الى أن يكـون دائمـاً على صواب، وأن أكون دائماً على خطـأ. ولكنني أنا أيضاً

علـى حق حين أشـعر بالضجر والسـأم، وحين أرغب فـي أن أحيا وأن أتحـرك بدلاً مـن أن أبقى في مكاني وأحسّ بالزمـان يتعداني. إني أريد أن أتقـدم، أن أرى جديـداً في كل يوم، وفي كل سـاعة، أما هو فيريد أن يلبث سـاكناً جامداً وأكون بقربه. وما أسـهل الأمر عليه مع ذلك! ليس حتماً عليه أن يرحل بي الى المدينة، وحسـبه أن يكون مثلي، فلا يشـغل بالـه فـي ما لا طائل تحته، ولا يكتم ما يعتمل في نفسـه، حسـبه أن يحيا ببسـاطة! وذلك بعينه ما ينصحني به، ثم لا يسـتطيع أن يلزم به نفسه. إنه ليس بسيطاً. كذلك هو!».

وأحسسـت بالدمـوع تفيـض بها عيناي، واشـتد غيظي منـه وحنقي عليـه. ثم أحسسـت برعب مس هذا الغيظ وهـذا الحنق، فمضيت ألحق به. كان جالسـاً في مكتبه، مكباً على كتابة شيء. فلما سمع وقع خطاي التفـت إلـيَّ لحظـةً، ثم عاد يسـتأنف كتابتـه هادئاً غير مكتـرث. واذ لم تعجبنـي نظرته، لـم أقترب من الطاولة، بل فتحـت كتاباً وطفقت أقلِّب صفحاته. وقطع سرجي كتابته مرةً أخرى ونظر إليَّ.

قال:

- ماشا، أنت معتكرة المزاج!

فلـم أجبـه إلا بنظـرة بـاردة تعنـي: «لـم هـذا السـؤال! يـا لهـا مـن ملاحظات!».

فهـزَّ رأسـه، وابتسـم بخجـل ورقـة وعاطفـة. ولكـن ابتسـامتي لم تستجيب لابتسامته، وذلك يحدث أول مرة.

قلت أسأله:

- ماذا وقع لك اليوم لماذا لم تقل لي؟

- أمـر تافـه، انزعاج طفيف! ومع ذلك يمكنني الآن أن أحكيه لك. ذهب فلاحان الى المدينة...

ولكنني لم أدعه يكمل كلامه، بل قاطعته سائلة:

- ولماذا لم تحك لي حين سألتك، وبينما كنا نحسو الشاي؟

فأجاب:

- كان يمكن أن أقول سخافات، لأني كنت غاضباً.

- في ذلك الوقت إنما كان ينبغي لك أن تحكي لي.

- لماذا؟

- أتظن أني لا أستطيع أن أساعدك في أي أمر من الأمور، في أي يوم من الأيام؟

قال وهو يرمي قلمه:

- كيـف هـذا؟ أعتقد أني من دونك لا أسـتطيع أن أعيش أصلاً. فأنت لا تقتصرين على مساعدتي دائماً في كل أمر، وإنما أنت تعملين كل شيء.

ثم أضاف يقول ضاحكاً:

- مـا هـذه الأفكار التي تسـاورك؟ أنا لا أحيا إلا بك. كل شـيء يبدو لي كاملاً لسبب واحد هو وجودك، وهو أنه يجب عليَّ أن...

- نعم، نعم، أعلم، أنا طفلة مدلَّلَةٌ يجب عليك أن تهدئها. ألا فاعلم أنني لا أريد الهدوء، وأنني يكفيني هدوؤك الشديد أنت! نعم، يكفيني ويزيد!

قلت ذلك بلهجة لم يملك سـرجي إزاءها إلا أن ينظر إليَّ مبهوتاً اذ يكتشف فيَّ شيئاً لا عهد له به. ثم اذا هو يستأنف حديثه مقاطعاً كلامي، خائفاً أن أمضي فيه الى نهايته فأفصح عن كل ما يعتمل في نفسـي وقال يختم كلامة:

- ذلك هو الأمر إذاً، فكيف كان يمكن أن تفصلي فيه؟

فأجبته:

- لم أعد أريد أن أناقش في هذا.

الحق أنني كنت أحب كثيراً أن أصغي إليه، ولكنني كنت أشعر من تعكير هدوئه بلذة كبيرة. وأردفت أقول:

- لا أريد أن أمثِّل أنني أحيا، وإنما أريد أن أحيا، كما تحيا أنت.

فعبَّرت قسماته المتحركة الحسَّاسة عن انتباه شديد.

وتابعت كلامي فقلت:

- أريد أن أحيا معك مساويةً لك مساواة الند للند... أريد أن...

ولم أستطع أن أكمل جملتي، فقد لاح في وجهه حزن عميق. ولبث ساكتاً لحظة. ثم قال أخيراً:

- في أي شيء لا تساوينني مساوية الند للند؟ لماذا تقولين هذا الكلام؟ ألأنني أنا الذي أجادل رئيس الشرطة والفلاحين السكارى، لا أنت...

قلت:

- ليس هذا فحسب!

وتابع كلامة فقال:

- رحماك يا صديقتي، حاولي أن تفهميني. أنا أعلم أن القلق يعذب كثيراً، فقد عشت كثيراً فعرفت هذه الحقيقة. وأنا أحبك، فأريد أن أجنِّبك القلق. وهذا ما يجعلني أتمسك بالحياة، فأنا لا أحيا الا بحبي لك. فيجب عليك من جهتك أن لا تمنعي عني الحياة.

قلت من دون أن أنظر إليه:

- أنت دائماً على حق.

لقد أحنقني مرةً أخرى أن أراه محتفظاً بهدوئه، محتفظاً بنظرته الواضحة الى الأمور، بينما أنا غاضبة حانقة مع شعوري بشيء يشبه الندم في الوقت نفسه.

قال:

- ماشا! ما بك؟ ليس الأمر أن أكون على صواب أو أن أكون على خطأ: الأمر غير هذا تماماً: ماذا تأخذين عليَّ؟ ماذا يحنقك مني؟ فكّري قبل أن تجيبي، وحدثيني عما في قرارة نفسك. أنت مستاءة مني، ساخطة عليَّ، ولا بد أنك على حق. فأشرحي لي ما ارتكبت من خطأ وما ارتكبت من ذنب.

كيف كان يمكنني أن أكشف له عمَّا بنفسي؟ ومما زاد اضطرابي أنه فهمني فوراً، فما أنا ازاءه إلا طفلة، ولا يمكنني أن أفعل شيئاً إلا حزره وأدركه.

قلت:

- لا آخذ عليك شيئاً. كل ما في الأمر أنني أضجر وأود أن لا أضجر. لكنك تقول إن هذا ما يجب أن يكون، وأنت على حق دائماً...

وقد نظرت إليه وأنا أتكلم. فرأيت أنني بلغت غايتي وفزت بمأربي، فقد زايله هدوؤه، وعبّرت قسمات وجهه عن حزن شديد وهول. وها هوذا يقول بصوت يخنقه الانفعال خنقاً:

- ماشا! ليس هذا لعباً. مصيرنا سيتقرر. أرجوك. لا تقولي شيئاً قبل أن تسمعيني. لماذا تتعمدين تعذيبي؟

فقاطعته قائلةً ببرود، كأنني لست أنا التي أتكلم، وإنما تتكلم بلساني روح شريرة.

- أعرف. سوف تكون على حق أيضاً. الأفضل أن لا تتكلم. إنك على حق.

فقال بصوت مختلج:

- لو علمت ما الذي تفعلينه...

فطفقت أبكي، وشعرت بتخفّف.

كان سرجي جالساً بقربي، صامتاً لا ينطق بكلمة. وكنت أحس بشفقة عليه، وأشعر بخزي من نفسي، وكنت غاضبةً ساخطة على ما اجترحت. كنت لا أنظر إليه. وكان يخيَّل إليَّ أنه في هذه اللحظة يتفرّس فيَّ إما بقسوة وشدة، وإما بارتباك وحيرة. فالتفتّ إليه: فإذا أنا أرى نظراته تفيض رقة وعاطفة وحناناً، وكأنها تسألني الصفح والعفو والغفران فأمسكت يده، وقلت له:

- سامحني! كنت لا أعرف ماذا أعمل أو ماذا أقول!...

- نعم، ولكنني أنا أعرف، ولقد قلت الحقيقة.

- ماذا تعني؟

قال:

- يجب أن نسافر الى بطرسبرغ.

ثم أردف

- لا بقاء لنا هنا!

قلت:

- لك ما تشاء.

فضمَّني إلى صدره وقبَّلني. وقال:

- سامحيني. أنا مذنب في حقك.

عزفت له في ذلك المساء مدةً طويلة، فكان يذرع الغرفة مجمجماً ببعض الكلام. كان من عاداته أن يكلّم نفسه على هذا النحو همساً،

وكثيـراً ما كنت أسـأله عمَّا يحدّث به نفسـه، فكان يفكـر قليلاً، ثم يذكر لـي ما كان يناجي به نفسـه. كان في أكثر الأحيان يتلو أبياتاً من الشـعر، أو يقول أشياء تافهة، ولكنني كنت أستطيع أن أستخرج من هذه الأشياء التافهة ما يكون عليه من حالة نفسية.

فلما سألته في هذه المرة:

- بمَ تحدِّث نفسك؟

توقف عن السير، وتفكّر قليلاً، ثم أنشدني بيتين من شعر ليرمونتوف:

... كان المتمرد ينشد العاصفة

كأنه فيها سيجد الهواء.

قلت لنفسـي: « إنه أكثـر كثيراً من رجل. إنه يعرف كل شـيء. كيف لا يُحَبّ؟».

ونهضت فأمسـكت يده وأخذت أسـير الى جانبه محاولةً أن أسـاير بخطواتي خطواته.

سألني وهو ينظر إليَّ مبتسماً:

- أليس كذلك؟

فدمدمت أقول: نعم

واجتاحنا كلينا مرح مجنون على حين فجأة، فكانت عينانا تضحكان، وأخذت خطواتنا تكبر ثم تكبر، وكدنا نسير على رؤوس الأقدام.

وما كان أشد انشداه جريجوار، وانبهات ماما التي كانت تعبث بورق اللعب في الصالون، حين اجتزنا جميع الغرف بهذه الخطوات نفسـها، الـى أن بلغنا غرفة الطعام، فتوقفنـا وانفجرنا ضاحكين ينظر كل منا الى صاحبه!

وبعد خمسة عشر يوماً، في عشية الأعياد، وصلنا بطرسبرغ.

- 2 -

كانـت رحلتنـا الى بطرسـبرغ، والأسـبوع الـذي قضيناه بموسـكو، وأهلي وأهله، وتجهيز مسكننا الجديد، والطريق، والمدن والوجوه التي لا أعرفها، كان ذلك كله أشـبه بحلم. وكان وجود سرجي وحبه يزيدان هذه المشـاعر الجديدة المتنوعة الفرحة تأججـاً وضياءً، حتى بدت لي حياتنا الهادئة في الريف بعيدةً لا قيمة لها. وما كان أشـد دهشـتي حين وجـدت المجتمع الراقـي لا يصدمني بتكبّر بارد، وانما رأيتني أُسـتَقْبَلُ فـي كل مـكان بحفاوة كبيـرة ومودة صادقـة «لا عند أقربائي فحسـب، بـلٍ عند سـائر من لقيـت من ناس أيضـاً»، حتى لكأنهم جميعـاً كانوا لا يفكِّـرون إلا فيَّ، ولا ينتظرون إلا وصولي ليكونوا سـعداء. وكذلك لم أكن أتوقع كثيراً أن أرى لزوجي في حلقات المجتمع الراقي، التي كنت أعدّهـا جديـرة بأكبـر الاهتمام، أصدقاء كثـر لم يحدثنـي عنهم في يوم مـن الأيام. وكثيراً ما تعجبت وتألمت حين كنت أسـمعه يصدر أحكاماً قاسـية في حق هـؤلاء الناس الذين كنـت أراهم طيبين جـداً. وكنت لا

أفهـم لـماذا يبدي لهم هـذه الجفوة كلها، ولماذا يتجنـب لقاءات كانت تجذبنـي وترضيني أكبر الرضا. كان يبـدو لي أن المرء كلما عرف عدداً مـن خيار النـاس أكبر كان له ذلك أحسـن وأفضـل وكان جميع أولئك الناس يبدون لي طيبين أخياراً.

لقد قال سرجي قبل رحيلنا عن الريف:

– اسمعي، نحن هنا أشبه بقارون ثراءً أما هناك فلن نكون فاحشي الغنى، لذلك يجب علينا أن لا نمكث في المدينة الى ما بعد «أسبوع الآلام»، ولا أن نختلـف الـى المجتمع كثيراً، والا ارتبكت أحوالنا. ثـم إنني لا أريد لك أنت أن...

وقد أجبته عندئذ بقولي:

– المجتمع؟ ما لنا وللمجتمع؟ سوف يكفينا أن نذهب الى المسرح، وأن نرى أقرباءنا، وأن نشهد الأوبرا، وأن نختلف الى بضع حفلات موسيقية، فما يجيء «أسبوع الآلام» الا ونكون قد قفلنا راجعين.

ولكـن ما إن وصلنا الى بطرسـبرج حتى كانت هـذه النيَّات كلها قد نُسيت. ورأيتني أتنقل فجأة الى عالم جديد زاخر بالحركة، مترع بأشياء جذابة لا عهد لي بها، فإذا أنا – ربما على غير شعور – أطرد ماضيَّ من خيالـي حالاً، وأتنكر لكل مشـاريع هذا الماضي. فكنت أحدث نفسـي قائلـة: «لـم يكن ذلك كلـه الا مزاحاً. ما كان قبل اليوم شـيء. الآن تبدأ الحياة حقاً! ما الذي سيحدث لي أيضاً؟».

– أما القلق والغَمّ اللذان كانا يعذباني في الريف، فسرعان ما زالا بما يشبه المعجزة. وأصبح حبي لسـرجي هادئاً رصيناً، فأنا الآن لا أتسـاءل هل نقص حبه له. ثم إنني أصبحت لا أسـتطيع أن أشـك في حبه: فهو يحزر على الفور

أيسر ما يدور في ذهني من أفكار، وهو يشاركني كل ما يجيش في قلبي من عواطف، وهو يحقق لي كل ما يقوم في نفسي من رغبات. وقد زال هدوؤه، أو قُلْ إن هذا الهدوء أصبح لا يحنقني. وكثيراً ما كان يقول لي، بعد زيارة قمنا بها، أو بعد لقاء لنا بأناس جدد، أو في بيتنا مساء، حين يأخذني خوف من أن أكون قد ارتكبت غلطة من الغلطات في قيامي بواجبات ربة الدار:

- مرحى للبنت الممتازة! عظيم! لا تخشي شيئاً! كنت عظيمة حقاً! فكان ثناؤه هذا يرضيني أعظم الرضا.

ولقد أسرع يكتب رسالة الى أمه بعد وصولنا، فلما ناداني لأضيف الى الرسالة بضع كلمات، لم يشأ أن أقرأ ما كتبه الى أمه، فلما أصررت أذن لي بقراءة الرسالة، وقد وقعت عيني على هذه الأسطر:

«لسوف تنكرين ماشا اذا رأيتيها، بل إنني لأنكرها أنا نفسي. من أين جاءتها هذه الثقة الفتانة الأخاذة، وهذه «اللطافة» التي تأسر قلوب من يرونها، وهذه الروح الاجتماعية الراقية، وهذه الكياسة واللباقة في معاملة الناس؟ وكل ذلك الى بساطة وطيبة وذوق. إنني التهب حماسة لها، ومهما أعجب بها فلن أوفّيها حقها من الإعجاب! ولولا أن حبي كامل لا يحتمل زيادة لأحببتها مزيداً من الحب!».

قلت لنفسي: «كذلك أنا إذاً!». وشعرت بفرح بلغ من القوة أنني اعتقدت بأن حبي قد كبر واشتد.

إن أنواع النجاح التي لقيتها عند جميع من قامت بيننا وبينهم صلات، كانت شيئاً لم ترقَ اليه آمالي. من كل حدب وصوب كانْ يقال لي إنني فتنت لبَّ عم هنا، وأنني قد جُنّت بحبي عمة هناك، فلان يؤكد أن بطرسبرج كلهاً ليس فيها امرأة يمكن أن تضاهي بي. وفلانة تؤكد أنني لو

شـئت لأصبحت «أرقّ» امرأة في المجتمع بأسره. وهذه قريبة لزوجي، الأميرة «د...»، وهي سيدة من سيدات المجتمع تقدمت في السن قليلاً فما هي الآن في ريعان الشـباب، هذه هي تولع بي فجأة، وتغرقني أكثر من أي سـيدة أخـرى بمدح يبلغ من القوة أنه أدار رأسـي فإذا أنا منه في سُـكْر. وحين دعتني قريبته هذه أول مـرة الى حفلة رقص وألحّت على زوجي أن نلبّي الدعوة، التفت زوجي الي وهو يبتسـم ابتسـامة ماكرة لا تكاد تُلحظ، وسألني هل أحب أن أحضر الحفلة، هززت رأسي موافقة، وشعرت بحمرة تصبغ وجهي. فقال وهو يضحك ضحكة طيبة كريمة:

- ولكأنك مذنبة تعترف بما في نفسها من رغبات!

- ألم تقل لي أنت إن علينا أن لا نختلف الى المجتمع؟ ثم إنك لا تحب هذه الحفلات...

كذلك أجبته مبتسمة وأنا ألقي عليه نظرة توسّل. قال:

- نحضر الحفلة ان كنت تحبين ذلك كثيراً.

- لا، حقاً ربما كان الأفضل أن لا نحضرها.

سألني مرةً أخرى:

- هل ترغبين في حضورها؟ هل ترغبين في ذلك كثيراً؟

فلم أجبه. فأردف يقول:

- ليس المجتمع في ذاته شراً كبيراً، ولكن كبت الرغبات شيء سيء.

وختم كلامة بلهجة حاسمة:

- يجب أن نحضر الحفلة... حتماً...

قلت:

- الحقيقة أنني لا شيء يغريني كما يغريني حضور حفلة الرقص هذه.

وذهبنا الى تلك السهرة، فكان سروري بها يفوق كل ما كنت أتوقع، اذ أحسست أكثر من أي وقت مضى، أنني كنت مركز الكون، فكل شيء ينجذب إليَّ ويدور حولي. الصالة مضاءة لي وحدي، الموسيقى تُعزف من أجلي، وهذه الجمهرة من الناس الذين يُعْجَبون بي احتشدوا ليروني. الجميع، من الحلاق والخادمة، الى الراقصين والسادة المسنين الذين يجتازون الصالة، كانوا كمن يقولون لي أو يفهمونني أنهم يحبونني. والرأي الذي قام في أذهان الحشد كله عني في تلك الحفلة، وهو الرأي الذي نقلته إليّ قريبتي، هو أنني لا أشبه أية امرأة أخرى، وأن فيَّ شيئاً خاصاً، شيئاً من الريف بسيطاً رائعاً أخّاذاً آسراً. وقد راق لي هذا النجاح وبلغت من الابتهاج به أني اعترفت لسرجي برغبتي في حضور حفلتين أو ثلاثاً من حفلات الرقص هذه «لأصل منها الى حد الشَّبَع والتخمة» (أضفت ذلك رياءً).

وقد وافقني زوجي على هذه الرغبة راضياً، وأصبح في الآونة الأولى يصحبني مغتبطاً اغتباطاً واضحاً، فكأنه نسي ما سبق أن قاله أو كأنه عدل منه.

وبعد ذلك أخذ يبدو عليه الضجر. صار واضحاً أن الحياة التي نحياها قد أخذت تثقل على نفسه. ولكنني لم أبالي. فاذا وقع بصري أحياناً على نظرته الرصينة المتفرّسة محدقةً إليَّ كتساؤل أخرس، تظاهرت بأنني لا أفهم معنى هذه النظرة. لقد بلغت من النشوة بما حسبته حباً أثيره حولي، وبما أنا غارقة فيه من جو الأناقة والمسرّات والجِدّة لأول مرة في حياتي، أن ما كان لسرجي عليَّ من سلطان روحي قد كفَّ عن الجثوم على صدري، وصار يفرحني أن لا أكون في هذا العالم مساوية

له مساواة الند للند فحسب، بل أن أحس بأنني متفوقة عليه أيضاً. ومن أجل ذلك كان حبي له يزداد، مع استقلال عنه وانعتاق من ربقة رأيه، فكنت لا أفهم ما خوفه عليَّ من حياتي في هذا المجتمع، ولا أدرك الضرر الذي يتصوّر أن يلحقني من اختلافي اليه وترددي عليه. كنت أشعر بعاطفة جديدة من الزهو والعجب بالنفس حين أصل الى سهرة، فإذا بجميع الابصار تتجه اليَّ، واذا بسرجي يسارع الى الاختفاء في جمهرة الناس الذين يرتدون جميعاً ملابس سوداً، كأنما هو يخجل أن يعلن أنه سيدي على مرأى من الجميع.

وكثيراً ما كنت أقول بيني وبين نفسي، وأنا أبحث بعينيَّ بين القامات في آخر الصالة عن قامته التي تمر مستخفيةً وقد ظهر على وجهه الضجر: «انتظر قليلاً! فحين نعود ستعرف وستدرك من الذي كنت أريد أن أتألق من أجله، وستعرف وستدرك أنك أنت من كنت أحب في كل ما أحاطني هذا المساء!».

وكنت أعتقد صادقةً أن كل ما كنت أفوز به من نجاح انما يملأني بهجة من أجله وحده، لأنني أستطيع أن أضحي به في سبيله متى أردت. وكان الشيء الوحيد الذي يبدو لي خطراً عليَّ هو أن يهيم بي أحد ممن ألقاهم في المجتمع، فيغار زوجي. ولكن سرجي كان واثقاً بي أشد الثقة وكان هادئاً أعظم الهدوء، وكان قليل الاكتراث الى أبعد حد، وكنت من جهتي أرى أن جميع هؤلاء الشبان تافهون أكبر التفاهة إذا قيسوا به، فلذلك غدا الأمر الوحيد الذي يحمل على القلق في هذا المجتمع الراقي، لا يثير في نفسي أي خوف، ولا يبعث في نظري على أي خشية. ولكن الاهتمام الذي كنت أُحاط به كان يهيئ لي مع

ذلـك غبطة كبيرة وبهجة عظيمة، ويرضي حبي لنفسـي، ويحملني على الاعتقـاد بأن ما أحمله لزوجي من حـب إنما هو مأثرة من المآثر، فكان ذلك يضفي على علاقتنا مزيداً من الثقة بل من الطلاقة.

قلت له في ذات مساء، ونحن عائدان من حفلة رقص:

- رأيتك تكلم «ن...» بكثير من الحرارة...

قلت له ذلك وأنا أهدِّده ملوحةً باصبعي، وأسمِّي واحدة من مشاهير جميلات بطرسـبرج كان قد حدَّثها أثناء السـهرة حديثـاً طويلاً بالفعل. وإنمـا قلـت له ذلك بغيـة أن أهـزَّه وأن أحرِّكـه: فقد كان سـرجي يبدو صامتاً مسرفاً في الصمت. فدمدم يقول من بين أسنانه وقد تجعَّد وجهه بما يشبه أن يكون تعبيراً عن ألم جسمي:

- لمـاذا هذا الكلام يا ماشـا؟ أأنـت تقولين هذا؟ هذا الـكلام لا يليق بنا نحـن، لا أنـا ولا أنت! دعي مثل هذا الكلام لغيرنـا. إن هذه الصلات الزائفة يمكـن أن تفسـد الصلات الصادقة، وأنا ما زلت آمـل أن ترجع إلينا الصلات الصادقة.

فشعرت بخجل وخزي، ولزمت الصمت. فسألني:

- هل نرجع يا ماشا؟ ما قولك؟

- هي لم تفسد ولن تفسد أبداً.

قلـت له ذلك، وكنت في تلك اللحظة مؤمنة بما قلت إيماناً راسـخاً لا يتزعزع.

- أسأل الله ذلك، وإلا يكون قد آن لنا أن نعود إلى الزيف.

ولـم يتكرر مثـل هذا الحـادث، واعتقـدت طوال الوقـت بعد ذلك أنـه كان مغتبطاً، وكنـت أنا مغتبطةً كثيراً. وإذا اتفـق أن ضجر في بعض

الأحيان، عزَّيت نفسي بأنني قد ضجرت أنا أيضاً من أجله في الريف. أما علاقاتنا فهبها تغيّرت فإنه ليكفي أن نرجع صيفاً إلى منزلنا القديم في نيكولسكويا ونستقر وحيدين مع تاتيانا سيميونوفنا حتى تستقيم جميع الأمور.

وانقضى الشتاء من دون أن أشعر بانقضائه، وقضينا «أسبوع الآلام» ببطرسبرج على خلاف ما كنا ننتويه. وفي الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، كنا على أهبة الرحيل: أعددنا حقائبنا، واشترى سرجي ما كان يريد أن يحمله الى الريف من هدايا وأمتعة، وكان سرجي في حالة نفسية مفعمة بالحنان زاخرة بالفرح. فاذا بابنة عمي تجيء إلينا على غير توقع، فترجونا أن نبقى الى يوم السبت، من أجل أن نحضر الحفلة التي ستقيمها الكونتيسة «ر...». وقالت ابنة عمي إن الكونتيسة قد ألحت كثيراً على ضرورة حضوري الحفلة، وأن الأمير «م...» الذي كان حينذاك ماراً ببطرسبرج، يحاول منذ حفلة الرقص الأخيرة أن يتعرَّف إليَّ، وأنه لم يقبل حضور حفلة الكونتيسة إلا لهذه الغاية وحدها، وأنه ينادي بأنني أجمل امرأة في روسيا. وأضافت ابنة عمي قولها إن المدينة كلها ستشهد الاستقبال الفخم وإن تفويتنا هذه الحفلة أمر لا يُعقل أبداً.

كان سرجي في الطرف الآخر من الصالون آخذاً في حديثٍ مع أحد. وسألتني ابنة عمي:

– أتجيئين اذاً يا ماري؟

فأجبتها مترددةً. وأنا أنظر الى جهة زوجي:

– علينا أن نسافر غداة غد.

وتلاقى بصرانا، فأسرع يشيح وجهه.

قالت ابنة العم:

- سأقنعه بالبقاء. وفي يوم السبت سندوِّخ الرؤوس، هه؟

قلت معترضة وقد بدأت أستسلم:

- ولكن هذا سيقلب مشاريعنا. لقد أعددنا حقائبنا.

وهبَّ زوجي يقول من آخر الصالة محاولاً أن يكظم غيظه، هبَّ يقول بصوت لم أعهده فيه من قبل:

- خير لها أن تمضي الى الأمير منذ هذا المساء لتنحني له احتراماً وإجلالاً.

فقالت ابنة عمي ضاحكة:

- آ... يميناً إنه لغيور! هذه أول مرة أراه فيها على هذا الحال. يا سرجي ميخائيلوفتش، أنا لا ألحّ هذا الإلحاح من أجل الأمير بل من أجلنا جميعاً. إن الكونتيسة «ر...» قد أصرَّت إصراراً شديداً على ضرورة مجيئها!

فقال سرجي ببرود:

- هذا شأنها وحدها.

وغادر الغرفة.

رأيت أنه أشد اضطراباً مما عهدت أن ألاحظ فيه من اضطراب، فأقلقني ذلك وعذّبني، فلم أقطع لابنة العم أي وعد، حتى إذا انصرفت مضيت ألحق به.

كان يذرع الغرفة شارد الذهن حالماً، فلم يرني، ولم يسمع وقع خطاي حين دخلت سائرةً على رؤوس الأصابع.

قلت لنفسي وأنا أنظر اليه: «إنه يتخيل نفسه منذ الآن في منزل نيكولسكويا القديم! يتخيل طعام الفطور في الصالون النيِّر، ويتخيل

الحقول، وفلاّحيه، وسهراتنا في الصالون الصغير، ووجبات عشائنا في الليل سرّاً... لا، لا، إن جميع ما في الدنيا من حفلات رقص، وجميع ما يزجيه أمراء العالم من معسول الثناء والمديح، لا يساوي عندي خجله المضيء المشرق، وعاطفته الرقيقة الحنون».

وفيما أنا أهمُّ أن أعلن أنني لن أذهب الى الحفلة، وأنني لا أرغب في حضورها، التفت على حين فجأة، فلما رآني قطّب حاجبيه، وزال ما كان يعبر عنه وجهه من شرود الذهن والاستغراق في الحلم، وعادت نظرته تعبِّر من جديد عن رجاحة العقل وحصافة الرأي والحكمة والتعقل، وعن معنى الرعاية الهادئة والحماية النيِّرة، فكأنه لا يريد أن أرى فيه انساناً من البشر، وانما يريد أن أرى فيه إلهاً أو نصف إله، فسألني وهو يلتفت نحوي بقلة اكتراث ويصطنع الوقار والهدوء:

– ماذا يا صديقتي؟

فأغضبني أن أراه يتظاهر هذا التظاهر، ويمنع عني وجهه الحق الذي أحبّه. فلم أجبه.

– هل ترغبين في حضور تلك الحفلة يوم السبت؟

قلت:

– كنت أرغب. ولكن ذلك لا يرضيك. وقد حزمنا جميع أمتعتنا على كل حال.

لم يسبق في يوم من الأيام أن رمقني بنظرة باردة هذه البرودة كلها، ولا أن خاطبني بلهجة جافة هذا الجفاف كله. قال:

– لن أسافر قبل يوم الثلاثاء، وسآمر بفتح جميع الحقائب، ففي وسعك إذاً أن تحضري تلك الحفلة اذا أحببت. أحضريها. لن أسافر.

وعلى عادته حين يهتاج، أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً من دون أن ينظر اليَّ.

قلت من دون أن أتحرك من مكاني وأنا أتابعه بنظري:

- حقاً إنني لا أفهمك. تزعم أنك لا تفقد هدوءك أبداً (الحق أنه لم يزعم هذا في يوم من الأيام)، فلماذا تكلمني بهذه اللهجة الغريبة؟. انني مستعدة لأن أضحّي في سبيلك بهذه المسَرَّة، فإذا أنت تطالبني بأن أذهب إليها، والأنكى من ذلك أنك تتبع في هذا أسلوباً ساخراً لا عهد لي به فيك!

- طيب!... أنت «تضحين بنفسك» (قال ذلك مشدداً على هذه الكلمة)، وأنا أضحي بنفسي أيضاً. فهل يرغب الإنسان في أكثر من هذا؟ كلانا سمح كريم. هل يمكن أن يكون الإنسان سعيداً في حياته الزوجية سعادة أكثر من هذه السعادة؟

تلك أول مرة أسمعه ينطق فيها بكلمات ساخرة سخراً قاسياً الى هذا الحد. فجرحني تهكمه بدلاً من أن يخجلني، وسرى إليَّ اهتياجه بدلاً من أن يخيفني. أهو الذي يتكلم بهذه اللهجة حقاً، هو الذي كان دائماً ينتقي العبارات الطنانة في علاقاتنا، هو الذي كان صريحاً وبسيطاً في جميع الأحوال؟ ولماذا؟ لأنني مستعدة لأن أضحّي في سبيله بمسرة لا أجد فيها أي ضير، لأنني قبل دقيقة واحدة فهمته كل الفهم، وأحببته أعظم الحب؟ لقد تغيَّر حالانا، فالآن هو الذي يتحاشى الكلمات المباشرة البسيطة، وأنا التي أنشدها وأتحراها.

قلت له متنهدة:

- لقد تبدلت كثيراً! ماذا جنيت من ذنب في حقك؟ ليست المسألة مسألة هذه السهرة، فلا بد أنك تحمل لي حقداً قديماً، لماذا لا تكون صريحاً؟ هلاً قلت لي ما تأخذه عليَّ، من دون مواربة!

وقلت لنفسي: «بماذا عساه يجيب»، كنت مرتاحة الى أنه ليس هناك ما يأخذه عليَّ خلال هذا الشتاء.

وتقدمت الى وسط الغرفة، بحيث لا بد أن يلامسني أثناء مروره. وكنت لا أحوِّل عنه بصري. وبرق في خاطري أنه «سيقترب مني، فيقبلني، فينتهي كل شيء»، حتى لقد شقَّ على نفسي أن أتصوَّر أنني سيكون عليَّ أن أبرهن له على مدى الخطأ الذي ارتكبه. ولكنه وقف جامداً في آخر الغرفة، ونظر إليَّ، وقال يسألني:

- ألم تفهمي بعد؟

- لا.

- سأقول لك اذاً. انني أشمئز، إنني لأول مرة في حياتي أشمئز مما أشعر به ويستحيل عليَّ أن لا أشعر به.

قال ذلك وصمت، وكان واضحاً أنه ارتاع من نبرة صوته الخشنة.

سألته والدموع في عينيَّ:

- ولكن ماذا هنالك؟

- انني أشمئز حين أعلم أن الامير قد وجدك جميلة، وحين أراك مستعدة كل الاستعداد لأن تركضي إليه ناسية زوجك ونفسك، مهملةً ما لك من كرامة المرأة، رافضةً أن تفهمي ما لا بد أن أشعر به عنك اذ ألاحظ أنك تفتقدين الإحساس بالشرف، حتى لتعلني لزوجك أنك «تضحين» بنفسك، فكأنك تقولين: «كان يشرفني كثيراً أن أظهر لعيني صاحب السمو، لكنني أضحي بنفسي».

وكان كلما أوغل في الكلام ازداد اندفاعاً وحرارة، وازدادت نبرات صوته مرارة وقسوة ولذعاً. لم يسبق أن رأيته على هذه الحال في يوم

من الأيام، ولم أكن أتوقع منه مثل هذه الغضبة. وأحسست بالدم يزدحم في قلبي، وشعرت بجزع وهلع، ولكنني في الوقت نفسه شعرت بأنني أُهان إهانة لا أستحقها، وبأن كرامتي تُجرح جرحاً بالغاً، فاضطربت وأردت أن أنتقم.

قلت له: كنت أتوقع هذا منذ مدة طويلة. تكلم. أكمل!

فأردف يقول:

- لا أدري ما الذي كنت تتوقعينه. أما أنا فقد كنت أتوقع أسوأ النتائج، حين كنت أراك كل يوم في ذلك الحمأ، وفي ذلك الفراغ، وفي ذلك الترف، وفي ذلك المجتمع الغبي بأسره. وتحقّقت مخاوفي... وأحسست اليوم بخزي وعار، وتألمت كما لم أتألم من قبل قط. تألمت لك، حين دسَّت صاحبتك يديها الوسختين في قلبي فتكلمت عن الغيرة، بل كلمتني عن غيرتي! وعن غيرتي ممن؟ من رجل لا نعرفه كلانا... ثم ترفضين أنت، بما يشبه العمد، أن تفهمي، فتكلمينني عن تضحية تقومين بها في سبيلي. بماذا تضحّين لي؟ ألا إني لأشعر عنك بالعار... ألا إني لأرثي لحالك الذليلة... ألا إنني لأحس بخزي!... مسكينة ضحية!

هكذا ختم كلامه. فقلت لنفسي: «ها... هذه هي إذاً سلطة الزوج على زوجته. يهين امرأة بريئة ويذلها إذلالاً! هذه هي اذاً حقوق الزوج. ولكنني لن أخضع!».

قلت وقد أحسست بمنخريَّ يتسعان اتساعاً غير طبيعي، وشعرت بالدم يبرح وجهي:

- لا. لا أضحي لكَ بشيء. سوف أحضر السهرة يوم السبت. سوف أحضرها حتماً.

فصرخ يقول وقد اجتاحته سورة غضب رهيبة لم يستطع كبحها:

- أتمنى لك المسرة، ولكن كل شيء بيننا قد انتهى! ولن يعذّبني أمرك بعد اليوم أبداً.

ثم عاد يتكلم. فقال:

- لقد كنت غبياً حين...

ولكن شفتيه اختلجتا، ورأيته يبذل جهداً قوياً من أجل أن يسيطر على نفسه فلا يكمل الجملة التي أوشك أن يقولها.

خشيته وكرهته في تلك الدقيقة. أردت أن أقول له أشياء أخرى كثيرة، انتقاماً للاهانة التي نالني بها. ولكن لو قد فتحت فمي لانفجرت أبكي ولانحطّ قدري أمامه. فغادرت الغرفة من دون أن أقول شيئاً. ولكن ما إن انقطع عن سمعي صوت وقع خطاه، حتى أحسست فجأة بخوف مما فعلنا. شعرت بخوف شديد اذ تصورت أن الرابطة التي كانت كلَّ سعادتي قد تتحطم الى الابد، وأغراني أن أقفل راجعة اليه. ولكنني تساءلت: «هل استردَّ من هدوئه ما يكفي لأن يفهمني حين سأمدُّ اليه يدي صامتةً وأنظر اليه حزينة؟ هل سيدرك عندئذ شهامتي ونبل نفسي؟ أم تراه سيصف أساي بأنه تصنّع وتظاهر؟ وماذا لو غفر لي وقَبِلَ ندمي وتوبتي بتكبر هادئ وشعور بأنه كان على حق؟ ثم لماذا، لماذا أهانني بتلك القسوة الشديدة أنا التي أحبه هذا الحب كله؟».

ولم أرجع اليه، بل مضيت الى غرفتي، وطفقت أبكي مدة طويلة، وأتذكر حديثنا كلمةً كلمة، وأحلُّ محلَّ الجمل التي قيلت جملاً غيرها، وأضيف إليها تعابير أرقّ، فأخذ الواقع يظهر لي بكل هوله مرة أخرى، فيؤجج إحساسي بالإهانة مزيداً من التأجج. ولما خرجت من غرفتي

في المســاء لتنـاول الشـاي مـع «س....» الذي جـاء يزورنـا، فالتقيت بزوجي، أدركت أن هوةً سحيقة قد قامت بيننا منذ هذا اليوم.

وسألني «س...» متى ننوي أن نسافر، فانبرى زوجي يجيبه فوراً قبل أن أنطق أنا بشيء:

– يوم الثلاثاء. لأننا سنحضر حفلةً تقيمها الكونتيسة «ر...».

وأضاف يسألني أنا:

– ذلك أنك ستحضرين الحفلة، أليس كذلك؟

روَّعتنـي هذه النبـرة المألوفة في صوت زوجـي، فألقيت عليه نظرة وجلـة. كانـت عيناه منصبَّتين عليَّ انصباباً، وكانتـا تعبران عن فيض من الغضب والسخرية، مع بقاء صوته مطرداً بارداً.

قلت أجيبه:

– نعم

وحين خلونا في المساء، دنا مني، ومدَّ اليَّ يده، وقال:

– أرجوك أن تنسي كل الكلام الذي أفلت مني.

فأخذت يده، وألمت بشـفتي ابتسـامة مترددة، وأوشكت دموعي أن تسـيل، ولكنه أسرع يسـتلّ يده، كأنه يخشى أن ترقّ نفسه، وجلس على مقعد بعيداً عني.

قلت لنفسـي: «ألا يزال يعتقد بأنه على حق؟». وكنت أهمُّ أن أشرح له ما بنفسي، وأن أعلن له رغبتي في العدول عن حضور الحفلة، فجمد الكلام على شفتي ولم أقل شيئاً.

قال:

– يجب أن أكتب الى ماما أننا أرجأنا سفرنا، وإلا قلقت.

- فسألته: متى تنوي أن نسافر؟

فأجاب:

- يوم الثلاثاء، بعد السهرة.

قلت وأنا أنظر في عينيه:

- أرجو أن لا أكون أنا سبب هذا التأخير.

ولكن عينيه كانتا تنظران إليَّ من دون أن تعبِّرا عن شيء، فكأن حجاباً يخفي عني نظرته. وبدا لي وجهه شائخاً منفِّراً على حين فجأة.

ومضينا الى السهرة. حتى ليمكن أن يُظن أن علاقاتنا قد عادت علاقات صداقة. والواقع أن هذه العلاقات لم ترجع الى ما كانت عليه من قبل.

وفي أثناء السهرة، بينما كنت جالسةً مع ضيوف آخرين، تقدم مني الأمير، فوجدت نفسي مضطرةً الى النهوض لأكلمه. وبحثت عن زوجي بعينيَّ كأنما رغم ارادتي، فلمحته في آخر الصالة ينظر اليَّ ويشيح عني. فاذا أنا أحس بضيق وخجل بلغا من الشدة أنني شعرت بحرج قوي واصطبغت بحمرة بلغت مني العنق على مرأى من الأمير، ولكن كان لا بد لي من البقاء واقفةً ومن الاستماع الى ما كان يقوله لي وهو ينظر اليَّ من الرأس الى القدمين. ولم تطل محادثتنا، اذ لم يكن للأمير مقعد يجلس عليه بقربي، ولا بد أنه أدرك ما أنا فيه من ارتباك. تكلمنا عن حفلة الرقص الماضية، وعن اصطيافي، وما الى ذلك. وحين تركني أعرب لي عن رغبته في التعرف الى زوجي، ورأيتهما يلتقيان ويتكلمان في آخر الصالة. ولا شك أن الأمير قال شيئاً عني، لأنه التفت الى جهتي في وسط محادثتهما مبتسِّماً.

وقـد احمرّ وجه زوجي فجـأة، وحيًّا الأمير بانحناءة شـديدة، وبادر الـى تركـه. فاحمر وجهي أنـا أيضاً، وخجلـت مما لا بـد أن الأمير رآه مـن رأي فيَّ وفي زوجـي خاصة. وتراءى لي أن جميـع الناس لاحظوا خجلي الأخرق حين كنت أكلـم الأمير، ولاحظوا بادرته الغريبة. والله يعلـم كيف فسـروا هذه كله، وبمـاذا عللوه. تُرى ألم يحزروا المناقشـة التي كانت قد نشبت بيني وببن سرجي؟

أوصلتنـي ابنة عمي الـى بيتي، فتحدثنا في أثنـاء الطريق عن زوجي ولم أسـتطع أن أملك زمام نفسي، فحكيت لها كل ما حدث بصدد هذه السـهرة المشـؤومة. فأخذت تواسـيني، وقالت إن هذا شجار عادي لا يـدل على شـيء، وليس له شـأن أو قيمـة، ولن تبقى له آثـار. ووصفت لـي طبع سـرجي، وأعربت لي عن رأيهـا هي، فقالت إنه أصبح شـديد الكبرياء قليل الإفصاح عما بنفسه. فأضفت أنا في الكلام بهذا المعنى، وخيِّل إليَّ أنني أصبحت الآن أشد هدوءاً، وأصبحت أفهم زوجي أكثر مما كنت أفهمه من قبل.

ولكننـي حيـن خلوت الى سـرجي ثقل علـى ضميري هـذا الحكم الـذي أصدرتـه في حقه، وأحسسـت بأنني فـي إصدار هـذا الحكم قد قارفت جرماً، وشعرت بأن الهوة التي أصبحت تفصل أحدنا عن الآخر قد اشتد عمقها.

- 3 -

منذ ذلك اليوم تبدلت حياتنا وتبدلت علاقاتنا تبدلاً كاملاً. لسنا الآن سـعيدين معاً كما كنا سـعيدين معاً من قبل. صرنا نتحاشى الخوض في بعض الموضوعات، وصار تخاطبنا بحضور شخص ثالث أسهل علينا مـن تخاطبنا حيـن يخلو أحدنـا الى صاحبـه. ومتـى دار الحديث على الحيـاة بالريـف، أو جاء الحديـث على ذكر السـهرة، اضطرب بصرانا، فاتقـى كل منـا توجيه نظره الى الآخر. لكأننا نشـعر كلانا بموضع الهوة التـي تفصـل بيننا، فنحن نخشـى أن نقترب من ذلـك الموضع. اقتنعت بأنـه شـديد الكبرياء سـريع الغضب، وبأن عليَّ أن أكـون حذرة حتى لا أمـس النقاط الحسّاسـة في نفسـه. وظل هو مقتنعاً بأنني لا أسـتطيع أن أحيا بعيدةً عن المجتمع، وبأن عليه أن ينصاع لهذا الميل الذي يؤسَـف له. وتحاشـينا كلانا أن نتكاشـف ونتصارح في هذه الامور، وحمل كل منا آراء خاطئة في الآخر. وأصبحنا منذ مدة طويلة لا نعدّ نفسـينا أكمل مخلوقات الله على هذه الارض، وصرنا نقارن بيننا وبين غيرنا، وأصبح

كل منا يصدر حكماً في حق الآخر بينه وبين نفسه.

وقد أصبت بوعكة قبل سفرنا، فلم نرحل الى الريف، وانما ذهبنا الى مصيف، ومن المصيف رجعِ سرجي الى أمه وحده. وكنت حين تركني قد أبللت من مرضي إبلالاً كافياً فأستطيع أن أتبعه، ولكنه أقنعني بالبقاء كالخائف على صحتي. فأحسست بأن ما يشغل باله ليس حالتي الصحية، وانما هو طراز الحياة التي سنحياها في الريف، فلم ألحف كثيراً، وبقيت في المصيف. وقد خلَّف لي سفره فراغاً، وشعرت بوحدة موحشة، ولكنني لاحظت حين عاد أنه أصبح لا يحمل الى حياتي ما كان يضيفه إليها في الماضي. وزالت علاقاتنا القديمة شيئاً بعد شيء، وحلَّت محلها علاقات أخرى، فلا الفكرة التي تخطر ببالي أو العاطفة التي تجيش في نفسي تعذبني كذنبٍ حين لا أنقلها اليه وأحدثه عنها، ولا كل فعل من أفعاله أو كل قول من أقواله يبدو لي مثال الكمال، ولا الضحك الذي كنا نضحكه فرحَيْن لغير سبب ظاهر حين ينظر أحدنا الى الآخر قد بقي منه أثر. وحين لاحظنا هذا التبدل، كان الأوان قد فات. أصبح لكل منا هموم خاصة تشغل باله فلا يحاول أن يشرك فيها صاحبه. وأصبح لا يقلقنا أن نرى أن لكل منا عالماً مستقلاً لا ينفذ إليه الآخر. وقد بلغنا من التعوّد على هذه الحال أننا أصبحنا بعد سنة لا يضطرب بصرانا إذا التقيا. واختفت فورات مرحه، وزالت انطلاقته الصبيانية، وانقضى ما كان يغيظني منه في الماضي من جلال التسامح وقلة الاكتراث. وغابت نظرته العميقة تلك التي كانت تملأني تهيباً وتملأني ارتياحاً. وانقطعت الصلوات المشتركة، وكفَّت اندفاعات الحماسة. وأصبحنا في كثير من الأحيان لا نلتقي لعدة أيام، فسرجي

يغيب ولا يؤسـفه أن يتركني وحيدة، وأنـا من جهتي محاطة بالناس فلا أشعر بالحاجة الى وجوده.

خلت حياتنا من المشاجرات والمشاحنات. كنت أحاول أن أرضيه، وكان هو ينفّذ جميع رغباتي، فكان يبدو أننا نعيش في وفاق تام وتفاهم كامل.

فإذا خلا أحدنا الى صاحبه - وهذا يحدث نادراً - لم أشعر لا بحرج، ولا بفرح، ولا بانفعال، فكأنني قد خلوت الى نفسي لا إليه. كنت أعلم أن هذا زوجي وليس انسـاناً جديداً مجهولاً، وأنه رجل طيب... زوجي الـذي أعرفـه كما أعرف نفسـي. كنت على ثقة بأنني أعرف سـلفاً ما قد يفعلـه، ومـا قـد يقولـه، وبأنني أعرف سـلفاً كيف سـينظر الـيَّ، فإذا لم تصـدق تنبؤاتـي، اعتقـدت أنه أخطأ وضـلَّ الطريق. الخلاصـة أنه كان زوجـي، لا أكثر مـن ذلك! وكنت أرى أن الأمر لا بـد أن يكون كذلك، وأن ليـس ثمة علاقات أخرى يمكن أن تقوم بيننا، وإن لم يكن بيننا غير هـذه العلاقات في يوم مـن الأيام. كان إذا غاب - ولا سـيما في الآونة الاولى - أشـعر بعزلة، وأشـعر بخوف. كنت في غيابه أدرك أنه سند لي أكثـر ممـا أدرك ذلك فـي حضوره. فإذا عـاد وثبت الى عنقـه فرحةً، ثم لا تنقضي سـاعتان إلا أكون قد نسـيت ذلك الفرح نسـياناً تاماً، ولم يبق عندي ما أقوله له. في لحظات الحنان وحدها، وهو حنان هادئ معتدل، إنما كنت أستشـف مـا بيننا من خلاف فيحز في نفسـي ذلك ويحزنني، ويتراءى لي أنني أقرأ هذه المعاني نفسـها في عينيه أيضاً. وكنت أعرف أن لهـذا الحنـان حـداً، لا يريد أن يتجـاوزه، وأنني أصبحـت أنا عاجزة عـن تجاوز ذلـك الحـد. وكان يعتريني حزن في بعـض الأحيان ولكن

وقتي لا يتسـع للتوقّف عند أي شـيء، فكنت أحاول أن أتلهى عن ذلك الحزن بتسـليات ما أكثرهـا! إن حياة المجتمع التي أسـكرني تألقها في البداية وأرضى حبي لنفسي، قد استولت على ميولي في النهاية استيلاء تاماً، وأصبحت عادة متأصلة، وكبلتني بأغلالها وحلت في نفسي محل العاطفـة. أصبحت لا أخلو الى نفسـي، وأخشـى أن أتعمـق في تحليل وضعي. وصار وقتي مشـغولاً من الضحى الى ساعة متأخرة من الليل، فأنا لا أملكه وإن لم أخرج. وأصبح هذا لا يحمل إليَّ بهجةً ولا يحمل إلـيَّ ضجراً: وبتُّ أعتقـد بأن الامور يجب أن تجـري هذا المجرى، لا مجرى آخر.

ثلاث سنين انقضت على هذا الحال، ما تغيرت في خلالها علاقاتنا، بـل بقيـت ثابتة جامدة، فلا هي تسـوء ولا هي تتحسـن. وقـد طرأ على حياتنا الزوجية في هذه المدة حادثان، لكنهما لم يبدلا حياتنا في شيء. فأما الحادث لاول فهو ولادة ابني الأول، وأما الحادث الثاني فهو وفاة تاتيانا سـيميونوفنا. وقد اسـتولى عليَّ حب الأم في أول الأمر اسـتيلاءً بلغ من القوة، وأحسسـت بنشـوة بلغت من الشـدة ومن قلة توقعي لها، أنني انتظرت أن أرى حياتي تتبدل. ولكن ما إن انقضى شـهران، وما إن اسـتأنفت الخروج، حتى أخذت تلك العاطفة تتناقص ثم إذا هي تصبح عادة من العادات، وقياماً بواجب. ولم يكن هذا حال سـرجي، فإنه منذ ولادة ابننـا قـد أصبح رقيقاً هادئاً يحب البقاء في البيت، وعاد اليه حنانه القديم ومرحه السـابق، الا أنه يصب الآن هذا الحنان وهذا المرح على الطفـل. وكثيـراً ما اتفق لي، حين كنت أدخل مخدع ابني بثوب المسـاء لأتمنى له ليلة سعيدة، أن ألقى زوجي عنده، فأرى نظرته المثقلة باللوم

تحدِّق إليَّ، فأحس بخجل. ثم روَّعتني قلة اكترائي بالطفل على حين فجأة، فكنت أسأل نفسي: «أأكون أسوأ من النساء الأخريات؟ ما العمل؟... إنني أحب ابني، ولكنني لا أستطيع أن أقضي بجانبه سحابة نهاري، وإلا شعرت بضجر. وما أنا بقادرة على التظاهر!».

وقد سبَّب موت حماتي حزناً شديداً لسرجي، حتى لقد كان يقول: «يؤلمني أن أعيش في نيكولسكويا من دونها». أما أنا فرغم ما أحسست به من حسرة لموتها، ورغم أنني شاركت سرجي ألمه، أصبحت أجد الحياة في الريف أهدأ وأمتع. وفي خلال هذه السنين الثلاث، قضينا الشطر الأكبر من وقتنا في المدينة، ولم أعد الى نيكولسكويا إلا مرةً واحدة منذ شهرين. وفي السنة الثالثة سافرنا الى الخارج. فقضينا فصل الصيف في مدينة من مدن المياه المعدنية.

كنت حينذاك في الحادية والعشرين من عمري. وكانت أحوالنا زاهرة في ما أتصور، وكنت لا أطلب من حياتي الزوجية شيئاً أكثر مما كانت تعطيني. كان يبدو على جميع من يعرفونني أنهم يحبونني. وكنت في كمال الصحة والعافية، وكانت زينتي من أشد الزينات أناقة، وكنت أعرف أنني جميلة، وكان الجو رائعاً، وكان يحيط بي جو ساحر من الجمال والاناقة، وكنت أحس بغبطة كبيرة. ما أشعر به الآن ليس هو ذلك الفرح الذي عرفته في نيكولسكويا، حيث كنت أشعر بأنني سعيدة بنفسي، وأنني أستحق تلك السعادة التي كانت كبيرة ولا شك، ولكنها كانت لا تروي كل ظمأي الى السعادة. ذلك كان شيئاً آخر. على أنني في هذا الصيف كنت مغتبطة. كنت لا أتمنى شيئاً، ولا آمل في شيء، ولا أخشى من شيء وكانت حياتي تبدو لي ملأى، وكنت

هادئة البال مرتاحة الضمير. ولم يكن بين جميع الشباب المصطافين من أستطيع أن أميِّزه على غيره، ولا حتى عن الأمير «ك...»، سفيرنا الذي كان يغازلني. وكان بين المصطافين شباب، وكان بينهم مسنون. فمن فرنسي أشقر، الى انجليزي ذي لحية صغيرة. ولكنهم جميعاً متساوون في نظري، لا أكترث بهذا أكثر مما أكترث بذاك، وإن يكن وجودهم ضرورة لا غنى عنها، فهم الذين كانوا يخلقون ذلك الجو المرح الذي كان يحيط بي. واحد فقط، هو المركيز الايطالي «د...» استطاع أن يجتذب انتباهي أكثر من غيره، وذلك بجرأة التعابير التي كان يستعملها في التعبير عن إعجابه بي. كان لا يفوِّت فرصة واحدة تمكنه من مصاحبتي للرقص أو ركوب الخيل أو الذهاب الى الكازينو، أو غير ذلك، وتمكّنه من أن يعلن لي أنني جميلة. ولقد رأيته من النافذة مراراً يحوِّم حول منزلنا، وكثيراً ما كانت نظرة عينيه المضايقتين، المحدِّقتين، تجعلني أحمرّ وأشيح وجهي. كان شاباً، وكان وسيماً، وكان أنيقاً، وكانت ابتسامته وجبهته، خاصة، تذكراني بسرجي، وان يكن المركيز أجمل كثيراً من سرجي. لقد أذهلني هذا الشبه، رغم أنه شتان بين ما يعبر عنه مظهره العام وفمه ونظرته وذقنه المستطيلة من حيوانية تفسد جميع قسمات وجهه، وبين ما تعبر عنه طلعة زوجي من طيبة رائعة وهدوء كامل يجذباني إليه ويفتناني به. وقد افترضت حينذاك أنه هائم بحبي، حتى لقد اتفق لي أن أحسست باعتزاز بنفسي واشفاق عليه وأنا أفكر فيه. وكنت أحاول في بعض الأحيان أن أهدئه وأن أرده الى سكينة تشبه سكينة الصداقة، ولكنه كان يتغافل عن محاولاتي هذه، ويظل يضايقني بتولّهه الذي كان يكظمه ولكنه يهم أن ينفجر في كل لحظة.

كنت أخشى هذا الرجل من دون أن اعترف لنفسي بذلك، وكنت أفكر فيه كثيراً. وقد عرفه زوجي فكان يخاطبه بلهجة جافة باردة، وكان يعامله بتكبّر واستعلاء، كما كان يفعل ذلك مع الآخرين الذين لم يكن في نظرهم إلا زوجي، بل ولكن جفوته للأمير وتكبّره عليه كان أشد وأوضح. وقد مرضت في آخر الصيف فلزمت غرفتي خمسة عشر يوماً، فلما خرجت أول مرة، علمت أن ليدي «س...» التي كانت تنتظر منذ مدة طويلة، وكانت معروفة بجمالها، وصلت أثناء غيابي. ولقد تكوّنت حولي حلقة من الناس، واستُقبلت استقبالاً حاراً فيه كثير من الفرح الشديد، ولكن الحلقة التي أحاطت باللبوة الجديدة كانت ألمع من حلقتي. وكان الذين حولي لا يتحدثون إلا عنها وعن جمالها. وقد دلوني عليها، فرأيت أنها حلوة فعلاً، ولكن أزعجني عجبها بنفسها ولم أكتم رأيي. ثم إذا بكل ما كان يبدو لي قبل ذلك مسلياً، أصبح يبدو لي الآن مضجراً. وقد نظَّمت ليدي «س...» في الغد رحلة الى القصر، فرفضت أن أنضم الى الرحلة. فما كان أشد دهشتي حين رأيت أن أحداً لم يبق في صحبتي تقريباً، فإذا كل شيء يتغير في نظري تغيراً حاسماً، فكل شيء ممل، وكل انسان غبي، وهممت أن أبكي، وقررت أن أختم علاجي بالمياه المعدنية بأقصى سرعة فأعود الى روسيا. واجتاحتني عواطف خبيثة، ولكنني لم أشأ أن أعترف لنفسي بها. وكان الوهن لا يزال يبدو عليَّ من آثار المرض، فانقطعت عن الظهور في المجتمع الواسع، وصرت أكتفي بأن أخرج الى المياه وحيدةً في الصباح من وقت الى وقت، أو أمضي أتنزه في ظاهر المدينة مع «ل.م.» الصديقة الروسية. وكان زوجي في تلك الآونة غائباً: فقد سافر الى هايدلبرغ

أياماً، بانتظار انتهاء مدة علاجي ثم العودة الى روسيا، وكان لا يلمُّ بي إلا نادراً.

وفي ذات يوم قادت ليدي «س...» الجماعة كلها الى الصيد. فذهبت بعد الظهر أنا و«ل.م.»، الى القصر. ففيما كانت العربة تجتاز السور سائرةً على طريق متعرج تحفه من جانبيه أشجار الكستناء القديمة التي تُرى من خلالها أرباض المدينة وقد أضاءتها أشعة الشمس الغاربة، أخذنا نتحدث حديث جد، كما لم يحدث لنا ذلك من قبل أبداً. فاذا بالسيدة «ل.م.» التي كنت أعرفها معرفة حسنة، تبدو لي لأول مرة، امرأة طيبة ذكية يستطيع الانسان أن يقول لها كل شيء ويسرّه أن يعدّها صديقة. تكلمنا عن الأسرة، وعن الأولاد، وعن الحياة الخالية من المعنى التي نعيشها هنا، وتمنينا أن نرجع الى روسيا، الى الريف، واعترانا شيء من حزن عذب. كان الظل بين أسوار القصر أميل الى البرودة، وفي أعلى كانت الشمس تتلاعب على الانقاض، وكانت تُسمع أصوات خطى وكلام، وكان باب كبير من أبواب السور أشبه باطار يُرى منه منظر مدينة بادن الجميل الذي يبدو لنا، نحن الروس، باهتاً بارداً. وجلسنا لنستريح، وأخذنا نتأمل غروب الشمس صامتتين. وأخذت أصوات الكلام تترجع جليةً بعض الجلاء، وخيِّل إليَّ أنني أسمع أحداً ينطق باسمي. فانصت فإذا أنا أسمع كل كلمة من الكلمات. إنني أعرف الصوتين اللذين يتكلمان: هما صوت المركيز «د...» وصوت صديق فرنسي له كنت أعرفه أيضاً. كانا يتكلمان عني وعن ليدي «س...». وكان الفرنسي يقارن بيني وبينها، محللاً جمالي وجمالها. لم يقل عني شيئاً يهينني، ولكن الدم ازدحم في قلبي حين

فهمت الآراء التي كان يعرضها. كان يذكر بالتفصيل عناصر جمالي وعناصر الجمال في ليدي «س...». فقال إن لي ولداً، على حين أن ليدي «س...» لا يتجاوز عمرها التاسعة عشرة. وقال إن شعري أجمل ولكن قامة ليدي «س...» أرشق، وقال إن الانجليزية عدا ذلك سيدة عظيمة، أما صاحبتك فليست الا واحدة من تلك الأميرات الروسيات اللواتي أصبحنا نرى منهن أعداداً كبيرة هنا»، وختم كلامه بقوله إنني كنت على حق حين لم أحاول أن أنافس ليدي «س...»، وإنني قد دُفنت في بادن دفناً، فلن تقوم لي فيها قائمة بعد الآن.

- إنني أرثي لحالها وتأخذني بها شفقة.

فأضاف الفرنسي وهو يضحك ضحكة فرحة قاسية:

- إلا أن تقرر أن تسرِّي عن نفسها بك.

فانبرى الصوت ذو اللكنة الايطالية يقول:

- إذا سافرت فسوف أتبعها.

- يا للإنسان السعيد! إنه لا يزال قادراً على الحب.

كذلك قال الفرنسي ضاحكاً.

فقال الصوت الآخر بعد صمت قصير:

- الحب! إنني لا أستطيع الامتناع عن الحب! الحياة بغير حب ليست شيئاً. لا أحلى من أن يجعل المرء حياته رواية. ورواياتي لا تقف أبداً في منتصف الطريق. وسوف أعرف كيف أمضي بروايتي هذه الى نهايتها أيضاَ.

قال الفرنسي:

- أتمنى لك حظاً حسناً يا صديقي.

لم نسمع تتمة الحديث، لأنهما انعطفا عند الزاوية، وسمعنا وقع

أقدامهما يصل إلينا من الجهة الأخرى، ثم هبطا السلّم، فما هي إلا بضع لحظات حتى دخلا من باب في جانب، فما كان أشد دهشتهما حين رأيانا هناك. وقد احمرّ وجهي حين دنا المركيز «د...» مني، وخفت كثيراً حين قدَّم اليَّ ذراعه ونحن نغادر القصر. لم يكن في وسعي أن أصدَّه، وسرنا متجهين الى العربة في إثر «ل.م.» التي مشت أمامنا مع الفرنسي. كنت ملسوعة مما قاله عني هذا الفرنسي، رغم اعترافي في دخيلتي بأنه عبَّر عمَّا كنت أحسُّه أنا نفسي. ولكن أقوال المركيز قد أدهشتني، وأثارتني غلظتها. كان يعذبني أن أتصوَّر أنه لا يخشاني رغم أنني سمعت كلامه. وشعرت باشمئزاز شديد من إحساسي بشدة قربه مني. فكنت أحاول أن أمسك ذراعه من دون أن أشعر بملامستها، وكنت لا أنظر اليه، ولا أردّ على كلامه، وأحثّ الخطى وراء «ل.م.» والفرنسي. كلمني المركيز عن جمال المنظر وعن سعادته بهذا اللقاء الذي لم يكن يأمل أن يحظى به، وكلمني عن أمور كثيرة أخرى، ولكنني كنت لا أصغي اليه، وإنما أفكّر في زوجي، وأفكّر في ابني، وأفكر في روسيا. كان شيء ما يُشعرني بخزي، وكنت أحس بحسرات وندامات، وأحس برغبات غامضة مبهمة، وأستعجل العودة الى غرفتي المعتزلة من «أوتيل بادي»، لأفكر في كل ما شبَّ في نفسي من مشاعر. ولكن «ل.م.» كانت تسير بخطى بطيئة، والعربة لا تزال بعيدة، وكان رفيقي كمن يصرُّ إصراراً عنيداً على أن يجعل سيره بطيئاً، حتى لكأنه يحاول أن يستوقفني.

قلت محدثةً نفسي: «مستحيل»، وحثثت الخطى عازمة جازمة. ولكن ها هوذا يحبسني عن الإسراع، حتى إنه يضغط ذراعي. وغابت

«ل.م.» عند منعطف الطريق، فأصبحنا أنا والمركيز وحيدين تماماً. خفت خوفاً شديداً.

قلت وأنا أحاول أن أخلِّص ذراعي: معذرة.

ولكن تخريمة كمي اشتبكت بأحد أزراره. فمال بجذعه عليَّ وأخذ يخلص الزر من التخريمة، فكانت يداه، اللتين لا تلبسان قفازين، تلامس ذراعي. فاذا بإحساس جديد عليَّ، إحساس هو مزيج من هول ولذة معاً، يُجري في ظهري قشعريرة باردة. فرفعت بصري اليه لألقي عليه نظرة باردة تجعله يشعر بمدى ما يوقظ في نفسي من احتقار له. ولكن عينيَّ عبَّرتا عن شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف، عبَّرتا عن جزعي واضطرابي. وكانت عيناه الملتهبتان، المخضلتان، القريبتان مني كل القرب، تحدقان الى نحري وعنقي، وكانت يداه تنزلقان على ذراعي، وكانت شفتاه المنفرجتان تتكلمان فتقولان إنه يحبني وإنني كل شيء عنده، وكانت شفتاه تقتربان مزيداً من الاقتراب، وكانت يداه تضغطان يديَّ مزيداً من الضغط فتحرقاني حرقاً. شعرت بنيران تجري في شراييني، وزاغ بصري، وارتجفت، وماتت في حلقي الكلمات التي كان يجب أن توقفه. وفجأة شعرب بقبلة على خدي، فرأيتني جامدة لا أتحرك، ورأيتني أنظر إليه مرتعشة. كنت عاجزة عن أن أقول شيئاً أو أن أقوم بحركة، وكنت مرتاعة ارتياعاً هائلاً، أنتظر شيئاً وأتمنى شيئاً!... لم يدم ذلك كله الا لحظة واحدة. ولكن هذه اللحظة كانت رهيبة! لقد رأيته كله في تلك الثانية. قرأت ما في وجهه قراءة واضحة: رأيت جبهته المحدبة التي تظهر تحت قبعته والتي كانت تذكرني بزوجي، ورأيت أنفه، ذلك الأنف الجميل المستقيم ذا المنخرين الفاغرين، ورأيت

خديه الحليقيـن الناعمين، ورأيت رقبته الملوَّحة، فأبغضته، وخشـيته، وبـدا لي غريباً عنـي كل الغرابة، بعيداً عني كل البعد، لا يمت اليَّ بصلة من الصلات. ولكن ما كان أشد انعكاس اضطراب هذا الرجل البغيض إلـيَّ، الغريب عني، وما كان أشـد انعكاس هواه المشـبوب في نفسـي! شـعرت برغبـة قويـة لا تـكاد تقاوم فـي أن استسـلم لقبلات هـذا الفم العامي الجميل، وأن أستسلم لعناق يديه البيضاوين المزدانة أصابعهما بالخواتم. شـعرت برغبة قوية في أن أهوي منكسـة الـرأس الى الهاوية التي تجذبني الى ملذات محرَّمة...

وقلت أحدث نفسي: «إنني شقية شقاء كبيراً، فلا بأس في أن أشقى مزيداً من الشقاء، وأن ينزل عليَّ مزيد من البلاء!...».

وضمني الى صدره بذراعه، ومال على وجهي.

وتابعت حديثي الى نفسـي قائلـة: «ألا فليقترب مني العار ولتقترب مني الخطيئة مزيداً من الاقتراب!...».

دمدم يقول بصوت ذكَّرني بصوت سرجي تذكيراً عجيباً:

- أحبك.

ووافاني خيال زوجي وخيال ابني كانسانين كانا عزيزين على نفسي فـي الماضـي، ولكـن كل صلـة لهما بـي قـد انقطعـت الآن. وفي تلك اللحظـة ترجَّع صوت «ل.م.» وراء المنعطـف يناديني على حين فجأة. فسـرعان ما اسـترددت هدوئي، وسـعيت الى «ل.م.» بما يشبه الركض مـن دون أن أنظر الـى المركيز. وحيـن ركبنا العربة انمـا رفعت بصري اليـه. فخلـع قبعتـه وطلب مني شـيئاً وهو يبتسـم. كان لا يـدرك التقزز الشديد الذي كنت أشعر به منه في تلك اللحظة.

وبدت لي حياتي شقية أكبر الشقاء، وبدا لي مستقبلي خالياً من كل أمل، وبدا لي ماضيَّ أسود شديد السواد. وأخذت «ل.م.» تكلمني فكنت لا أفهم منها شيئاً. كان يلوح لي أنها لا تكلمني إلا شفقة عليَّ، واخفاءً لما أوقظه في نفسها من شعور الاحتقار. فكنت أرى ذلك الاحتقار في كل كلمة من كلماتها، وفي كل نظرة من نظراتها، وقد مازجته شفقةٌ تُهين الكرامة. كان عار القبلة يحرق خدي حرقاً، وكان تصور سرجي وابني يحطِّم نفسي تحطيماً. حتى إذا صرت في غرفتي أملت أن أستطيع التفكير في حالي، ولكن العزلة صعقتني. ولم أكمل حسو الشاي الذي أتيت به، ثم إذا أنا أشرع - لا أدري لماذا - في الاستعداد بسرعة محمومة للسفر على قطار المساء ذاهبةً الى زوجي في هايدلبرغ.

فلما استقر بي المقام مع خادمتي في عربة القطار الخالية، وتحرَّك القطار قليلاً فهبَّت عليَّ أنسام طرية من النافذة، استرددت قدرتي على التفكير وتصوَّرت ماضيَّ ومستقبلي تصوراً أوضح. فإذا بحياتي الزوجية كلها منذ وصولنا الى بطرسبرج تتراءى لي في ضوء جديد، واذا هي تثقل على ضميري حملاً باهظاً يخنقني خنقاً. ولأول مرة تذكرت العهود الأولى من إقامتنا بالريف، وتذكرت ما كنا ننويه من مشاريع، ولأول مرة خطر ببالي هذا السؤال، ماذا كانت أفراحه هو خلال تلك السنين؟ وشعرت بأنني مذنبة في حق سرجي. ثم تابعت تساؤلي: «ولكن لماذا لم يوقفني؟ لماذا كان يتظاهر ذلك التظاهر؟ لماذا تجنب كل مكاشفة ومصارحة بيننا؟ لماذا أهانني؟ لماذا لم يستعمل ما لحبه من سلطان عليَّ؟ أم أنه قد انقطع عن حبي؟». ولكن، مهما يكن خطأه،

فان قبلة الرجل الغريب هي التي كانت تحرق خدي، وكنت أحس ذلك إحساساً قوياً. وكنت كلما اقترب القطار من هايدلبرغ أتصوَّر زوجي تصوراً أوضح. وأخاف من لقائنا القريب خوفاً أشد. قلت أحدث نفسي: «سوف أقول له كل شيء، كل شيء، سوف أغسل كل شيء بدموع الندم، وسوف يغفر لي». ولكنني كنت أنا نفسي لا أعرف ما هذا «الكل شيء» الذي سأقوله له، وكنت لا أصدِّق كثيراً أنه سيغفر لي.

وما إن دخلت غرفة سرجي، ورأيت وجهه الهادئ رغم ما اعتراه من دهشة، حتى أحسست أن ليس هناك شيء أعترف له به، وأن ليس عليَّ أن التمس مغفرته. وظل ألمي دفيناً، وبقيت ندامتي مستخفية في قرارة نفسي.

قال سرجي:

- يا لها من فكرة أن تجيئي! كنت أنتوي أن أذهب اليك أنا في الغد.

ولكنه حين أنعم النظر في وجهي، بدا عليه الهلع، وهتف يسألني:

- ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟

فأجبته وأنا لا أكاد أستطيع حبس دموعي:

- لا شيء. جئت هكذا. لنرجع. لنسافر من الغد. لنعد الى روسيا.

فتأملني صامتاً مدة طويلة، ثم قال:

- ولكن هلاَّ قلت لي ماذا وقع لك؟

فإذا أنا أحمرُّ وأخفض عينيَّ برغم إرادتي. فبرقت في عينيه نظرة غضب شديد. فخفت مما قد يساوره من أفكار، فإذا أنا أجيبه بتظاهر أدهشني ما فيه من مكر:

- لم يقع لي شيء. كل ما هنالك أنني شعرت بضجر، وأحسست بحزن

مـن وحدتي، وفكرت كثيراً فـي حياتنا وفيك. إنني أُذنـب في حقك منذ مدة طويلة. لماذا تصحبني الى حيث لا تحب أن تصحبني؟

وكررت أقول:

- انني أذنب في حقك منذ زمن طويل.

وترقرقت في عينيَّ دموع جديدة. وأضفت:

- لنعد إلى الريف، لنعد إلى الريف ثم لا نغادره أبداً.

فقال يجيبني ببرود:

- يـا صديقتـي، جنّبيني مشـاهد العاطفة هذه! لأن تحبـي أن تعودي الى الريف فهذا أمر حسن جداً، لأننا في ضيق مالي. أما أن تقولي إنك تحبين أن تعودي الى الريف ثم لا نغادره «أبداً» فذلك حلم. أنا أعلم أنك لن تستطيعي البقاء في الريـف.

اسمعي: اشربي قليلاً من الشاي، فإن شرب الشاي سينفعك.

أضاف ذلك وهو ينهض ليقرع الجرس ويأمر بشاي.

تخيلـت ما كان يفكر فيه، وجرح شـعوري ما تصـورت أنه يدور في خيالـه من أفكار حيـن وقع بصري علـى نظراته التي كانـت تحدِّق إليَّ معبِّرة عن قلة التصديق وغموض الفهم. لا! إنه لا يريد ولا يسـتطيع أن يفهمني. وخرجت من الغرفة متحججةً بأنني ذاهبة الى الطفل، شـاعرةً برغبة قوية في أن أبكي، أبكي، أبكي...

- 4 -

استيقظ منزل نيكولسكويا الخاوي البارد. غير أن ما كان يحيا فيه من قبل لم تعد اليه الحياة. لقد ماتت ماما، ونحن الآن وحيدان، وجهاً لوجه، لا نتمنى هذه الوحدة، بل هي تربكنا وتحرجنا. وانقضى الشتاء قاسياً عليَّ، كنت متعبة، ولم أبلَّ الا بعد ولادة ابننا الثاني. وكانت صلاتي بسرجي على حالها لم تتبدل، ففيها تحفّظ وفيها صداقة معاً، كما كانت أيامَ إقامتنا في المدينة. ولكن في الريف كانت كل بلاطة من الأرض، وكانت جميع الجدران، وكان جميع الأثاث، كان ذلك كله يذكّرني بما كان يمثّله سرجي في نظري، وبما كان له من منزلة في قلبي، ويذكرني إذاً بما قد فقدت وما قد ضيَّعت. لكأن إساءة لم تغتفر قد قامت الآن جداراً بيننا، يريد أن يعاقبني على ذنب قارفته، مع تظاهره بأنه لا ينتبه إليه. ولم يكن هناك أي سبب يحضّني على الاعتذار إليه، وعلى طلب مغفرته: كان عقابه لي هو أنه أصبح لا يسلّم إليَّ نفسه كلها كما كان يفعل في الماضي. ولكنه أصبح لا يسلم نفسه أيضاً الى شيء

ولا إلـى أحـد، كأنما هـو أصبح بلا نفس البتة. وكنـت أتخيل في بعض الأحيـان أنه يتظاهر بذلك تظاهراً لا لشـيء إلا أن يعذبني، وأن العاطفة القديمـة لا تـزال حيّة في نفسـه، فكنت أحاول أن أوقـظ تلك العاطفة. ولكن سـرجي يتحاشـى دائماً نوبات الصراحة التي كانت تلمُّ بي، حتى لكأنـه يقـدِّر أنه اصطنعهـا اصطناعـاً، وكان يتهـرّب من كل استسـلام للعاطفة والحنان مخافة أن يكون ذلك مضحكاً سـخيفاً. وكانت نظرته ونبرة صوته تقولان: «أنا أعرف كل شـيء، أعرف كل شـيء، فلا داعي الـى أن تتكلمي. كل ما تريدين أن تقوليـه أنا أعرفه. وأنا اعرف أيضاً أن أفعالـك لا تتفق كلها وأقوالك». وكان هذا الخوف من الصدق يؤلمني فـي أول الأمـر إيلامـاً شـديداً، لكنني تعوَّدت ذلـك في النهايـة وألفته، مقـدِّرةً أن ما كان سـرجي لا يشـعر به ليـس هو الصراحة نفسـها بل هو الحاجـة الـى الصراحـة. أصبحت لا أجـرؤ أن أسـأله أن يتلـو صلواته معي، أو أن يأتي يسـتمع الى عزفي. وقد نشـأت بيننا قواعد نلتزمها في حسـن التعامل. كان كل منا يعيش حياةً مسـتقلة عن حياة الآخر. أما هو فمنصـرف الى أعماله التي لا يجـب عليَّ ولا يمكنني أن أهتم بها، وأما أنا فماضية في فراغي الذي أصبح لا يضايقه ولا يسوؤه كما كان يضايقه ويسـوؤه في الماضـي. والولدان لا يزالان صغيرين، فلا يسـتطيعان أن يجمعا بيننا.

وحـلَّ الربيـع، فجـاءت كاتيا وصونيـا تقضيان الصيف فـي الريف، وقامت في منزل نيكولسـكويا أعمال اصـلاح وتغيير، فانتقلنا الى منزل بوكروفسـكويا. انه لا يزال ذلك المنزل القديم نفسـه، بشرفته، ومائدته التـي تُطوى، والبيانـو في الصالون النيِّر، وغرفتي القديمة ذات السـتائر

البيض التي كانت أحلامي وأنا فتاة، كأنها منسية في ركن منها. كان في تلك الغرفة سريران: أحدهما هو السرير الذي كنت أنام عليه في الماضي، وقد خُصَّ به الآن كوكو السمين، الذي آتي اليه في كل مساء لأرسم عليه إشارة الصليب، والذي كان يبعثر أغطيته، والثاني سرير أصغر من الأول كان يظهر فيه رأس فانيا خارجاً من أقماطه. فاذا فرغت من رسم إشارة الصليب عليهما كليهما، كنت في كثير من الأحيان أقف في وسط الغرفة الصامتة، فإذا برؤى من الشباب نسيتها منذ زمن بعيد تنبجس الآن فجأة من الزوايا والجدران والستائر. كانت أصوات من عهد الشباب تأخذ تغني ألحاناً ساذجة. أين كانت هذه الرؤى؟ هذه الأغنيات العزيزة العذبة؟ إن كل ما تجرأت فحلمت به قد تحقق. إن أحلاماً غامضة قد تجسّدت. ولكن الواقع قد أصبح حياة أليمة صعبة خالية من الفرح. ولم يكن قد تغيَّر شيء مع ذلك: فمن النافذة ما تزال تُرى نفس الحديقة، ولا تزال تمتد نفس الأرض، ولا تزال تثوي نفس الدكة، وهناك، بعد الوادي، لا تزال تتردد نفس الأغاني التي يرسلها الشحرور من الغدير، ولا تزال تظهر نفس أشجار الليلك المزهرة، ولا يزال يطل على المنزل نفس القمر. ولكن كل شيء كان يبدو مع ذلك أنه تبدل تبدلاً يبلغ غاية القسوة، وتغير تغيراً لا سبيل الى الرجوع عنه! ما كان أشد الصقيع والبعد في كل ما كان يمكن أن يبدو غالياً وقريباً! وكما كنت أفعل في الماضي، أجلس الآن في الصالون مع كاتيا، ونأخذ نتكلم عنه. ولكن كاتيا قد تغضّن وجهها، وشحُبَ لونها، وفارق عينيها ما كان يتلألأ فيهما من بريق الفرح والأمل، فهما تعبّران عن حزن مشفق وحسرات عميقة. نحن الآن لا نتحمس لسرجي كما كنا نتحمس له

من قبل. فارقنا ما كنا نشعر به في الماضي من دهشة السعادة الكبرى، والرغبة في أن نحدِّث العالم بأسره عما يدور في رأسينا: نحن الآن نتكلم بصوت خافت كما تتكلم متآمرتان، ونتساءل للمرة المائة لماذا تبدَّل مجرى الأمور هذا التبدّل المحزن!

ولا يزال سرجي كما كان، إلا الغضن بين الحاجبين فقد ازداد عمقاً، وإلا شعر الصدغين فقد اشتدّ بياضه. أما نظرته فلا تزال محجوبة عني بغمامة قاتمة. وما أزال أنا أيضاً كما كنت، ولكن لم يبق في قلبي لا حب ولا رغبة في الحب. وطارت الحاجة الى العمل، وتبدد الرضا عن النفس. وما أكثر ما أصبحت حماساتي الدينية الماضية تبدو لي الآن غريبة، وكذلك ما كنت أحمله له من حب، وما كنت أشعر به من امتلاء حياتي! أصبحت لا أفهم الآن ما كنت أعتقد في سالف الزمان أنه واضح وحق: أعني سعادة الإنسان بأن يحيا في سبيل غيره. علام يحيا في سبيل غيره بينما هو قد فقد الرغبة في الحياة من أجل نفسه؟

وكنت قد هجرت الموسيقى منذ سافرنا الى بطرسبرغ. ولكن البيانو القديم ودفاتر الموسيقى القديمة أصبحت تجتذبني الآن من جديد.

وفي يوم من الأيام كنت أشعر باعياء، فبقيت في البيت وحدي. وكانت كاتيا وصونيا قد ذهبتا مع سرجي لتفقد أعمال الإصلاح والتجديد في منزل نيكولسكويا. وهُيِّئ الشاي، فنزلت، وبانتظار عودتهم جلست الى البيانو، فتحت دفتر الموسيقى على سوناتة «شبه فانتازيا»، وأخذت أعزفها. لم يكن في المنزل أحد، وكانت النوافذ مفتوحة تطل على الحديقة، وترجَّعتْ في الغرفة الأصوات المألوفة الحزينة المهيبة. فلما أنهيت عزف القسم الأول رأيتني، على غير شعور

مني، بحكم عادة قديمة، ألتفت نحو الزاوية التي كان يقف فيها سرجي ليصغي الى عزفي. ولكنني لم أر سرجي. وكان الكرسي في ركنه من الغرفة، الكرسي الذي أصبح منذ زمن بعيد لا يُستعمل. ومن النافذة أبصرت شجيرة من شجيرات الليلك تتوهج وراءها الشمس الغاربة، وهبّت طراوة المساء على الغرفة من المصاريع المفتوحة. وضعت كوعيَّ على البيانو، ودفنت وجهي في يديَّ، وأخذت أحلم. بقيت على هذه الحال زمناً، استعرض الماضي الذي مات إلى الأبد فأتألم، وأحاول أن أخلق مستقبلاً وأنا متهيبة وجلة، لكنني لا أرى أمامي شيئاً، فكأني أصبحت لا أتمنى شيئاً ولا آمل في شيء.

قلت أحدث نفسي وأنا أرفع رأسي مرتاعة: «هل يمكن أن تكون حياتي انتهت؟». ومن أجل أن أكفَّ عن التفكير، ومن أجل أن أنسى، عدت أعزف على البيانو ما كنت أعزف.

وقلت مناجيةً نفسي: «اغفر لي يا رب إذا كنت مذنبة، أو أعد إليَّ كل ما كان في نفسي من جمال عظيم، أو أرشدني الى ما يجب عليَّ أن أفعله! كيف ينبغي لي أن أحيا الآن؟...».

ودوَّت قرقعة عجلات على العشب، ووصل الى سمعي من درجات الشرفة وقع خطى متأنية مألوفة لم تلبث أن غابت. ولكن وقع هذه الخطى أصبح لا يحدث في نفسي ما كان يحدثه من صدى. فلما أنهيت عزفي ترجَّع وقع تلك الخطى ورائي، وأحسست بيدٍ توضع على كتفي، قال:

- ما أحسنها من فكرة أن تعزفي هذه السوناتة.

فلم أجب.

- ألم تشربي الشاي؟

فحركت رأسي بإشارة النفي، ولم ألتفت الى وراء حتى لا أفضح ما كنت أعانيه من انفعال شوَّه ملامح وجهي تشويهاً.

قال:

- ستصلان حالاً. كانت الخيل توشك أن تجمع، فنزلتا في الطريق.

فأجبته قائلةً وأنا أخرج الى الشرفة، آملةً أن يتبعني:

- فلننتظرهما.

لكنه سألني عن ابنينا وذهب إليهما.

ومن جديد جعلني وجوده وصوته البسيط الصادق أعتقد بأنني لم أفقد شيئاً. ماذا أتمنى أكثر من هذا؟ ان سرجي رجل طيب رقيق عذب، نعمَ الاب هو ونعم الزوج! انني لأجهل أنا نفسي ماذا ينقصني! جلست تحت طنف الشرفة، على تلك الدكة نفسها التي جلست عليها يومَ صارحته. كانت الشمس قد غابت، وكان الغسق يحل، وكانت سحابة سوداء من سحابات الربيع تُظلّ المنزل والحديقة. ووراء الأشجار فقط إنما كان يُرى طرف من السماء مع آخر انعكاسة حمراء تتوهج عليه وأول نجمة طلعت فيه. كان كل شيء ملفَّع بظل السحابة ينتظر هطول مطر الربيع. وكانت الريح قد سكنت، فما من ورقة على أغصان الشجر، ولا من عشبة في الأرض تهتز. وكانت أشذاء أزهار شجر الليلك والكرز البري تفوح قويةً في الحديقة وعلى الشرفة، حتى لكأن الفضاء كله مزهر. وكان العبق يصل موجات موجات، قويةً تارة وضعيفة تارة، حتى ليشتهي المرء أن يغمض عينيه فلا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً، وإنما هو يغتذي بهذا الأرج اللذيذ وحده. وكانت أجمات

الدهلية والورد التي لم تطلع أزهارها بعد، تعلو ساكنة فوق تربتها السوداء المعزوقة، كأنها تنمو نمواً بطيئاً على دعاماتها البيض المقلّمة منذ قليل. ومن الوادي كانت تصل الى السمع أصوات جوقة الضفادع متناغمةً حادة، فهي تتعجل الغناء قبل أن يطردها هطول الأمطار الى جوف الماء. وكان يلفُّ غناءها هذا صوت خرير الماء ناعماً متصلاً. والشحارير تتنافس على الزقزقة قلقةً طائرة من مكان الى مكان. ومن جديد أراد عندليب أن يستقر في الأجمة تحت النافذة، فلما خرجت سمعته يهرب إلى ممرَّ الاشجار، ويأخذ يصدر هناك نغمة واحدة لا تتغير، ثم لا يلبث أن يسكت منتظراً ما سيكون.

ولم أفلح أنا أيضاً في أن أهدئ نفسي منتظرةً ومؤمّلةً أن يحدث شيء ما.

ونزل سرجي، وجلس بجانبي. قال:

- يخيَّل إليَّ أنهما ستبتلان كلتاهما بالمطر.

فأجبته:

- نعم.

ولبثنا صامتين برهة طويلة.

كانت السحابة تنخفض في الهواء الساكن مزيداً من الانخفاض واشتد الصمت عمقاً، وعبقاً، وسكوناً. وفجأةً هطلت قطرة على طنف الشرفة وهو من قماش، فارتج الطنف وبدا أن قطرة الماء ترتد عنه واثبة. وتحطمت قطرة أخرى على الحجر في ممر الأشجار. وسقطت قطرة ثالثة على نبات البلسكاء محدثةً ضجة خفيفة، ثم إذا بمطر مدرار ينهمر انهماراً ما ينفك يشتد لحظة بعد لحظة. فصمتت العنادل والضفادع

سكوتاً تاماً، ولم يبق إلا خرير الماء، ولكن خرير الماء يبدو الآن بسبب المطر الغزير أنأى وأبعد، وكأنه معلق بالهواء. وهذا عصفور لا بد أنه كان محتمياً بالأوراق اليابسة غيرَ بعيد عن الشرفة، يأخذ يصدر نغمتين رتيبتين على إيقاع مطرد.

نهض سرجي وأراد أن ينصرف. فسألته لأصدَّه عن الانصراف:

– الى أين تمضي؟ نحن هنا في أحسن مكان.

فأجابني قائلاً:

– يجب أن آمر بأن تحمل إليهما مظلة وأحذية من مطاط.

– لا داعي الى هذا. فسوف ينقطع المطر حالاً.

وافق. وبقينا كلانا بقرب الدرابزين. واستندت بذراعي الى الدفٍ الرطب، وملت برأسي الى الخارج منزلقةً. فبلَّ المطر البارد شعري وعنقي. وما هي إلا برهة قصيرة حتى كانت السحابة التي تظللنا قد انقشعت، وحلَّت محلَّ أصوات انهمار المطر قطرات الماء تسقط عن أوراق الأشجار متباعدة. وعادت الضفادع تنقُّ تحت، وتحركت العنادل واستأنفت صداحها على جانبي الأجمات. وأضاء أمامنا كل شيء.

قال سرجي وهو يجلس فوق الدرابزين، ويطوف بيده على شعري المخضّل.

– ما أحلى هذا الجو!

فكان لهذه الملاطفة البسيطة أثر اللوم والتأنيب في نفسي، حتى لقد هممت أن أبكي.

قال:

- هل يحتاج رجل أكثر من هذا؟ أنا الآن راضٍ مغتبط. لم أعد في حاجة إلى شيء. إني سعيد كلَّ السعادة.

قلت بيني وبين نفسي: «ما هكذا كنت تحدثني عن السعادة في الماضي. كنت، مهما تبلغ من سعادة، تظل ظامئاً غيرَ مرتوٍ، وتظل تكلمني عن رغباتك. وها أنت ذا الآن راضٍ هادئ، بينما أنا تزخر نفسي بندم لم أعبِّر عنه، وتمتلئ عيناي بدموع لا تطلب إلا أن تنسكب».

قلت:

- نعم، الجو حلو. ولكني حزينة لأن كل شيء جميل هذا الجمال كله، بينما أنا أحس في نفسي برغباتٍ مضطربة مشوشة، وحولي هذا الجمال وهذا الهدوء. هل يمكن أن يكون فرحك بالطبيعة خالياً من كل حنين، فلا تتمنى المستحيل، ولا تأسف على الماضي؟

استلّ يده من شعري، وصمت لحظة، ثم قال وهو يتذكر:

- نعم، أنا أيضاً كان يحدث لي هذا في الماضي، ولا سيما إبان الربيع. أنا أيضاً كنت أقضي ليالي كاملة في رغبات وأمنيات. كانت تلك الليالي جميلة!... ولكن المستقبل كان في ذلك الحين ملكاً لنا، أما الآن فهو من الماضي. أنا الآن راضٍ بما هو موجود، سعيد به.

ختم كلامه بهذه الجملة الأخيرة بلهجة تبلغ من الثقة ومن الطلاقة أنني اعتقدت بصدقه رغم ما أحدثته هذه الأقوال في نفسي من ألم.

سألته:

- وهل أصبحت لا تتمنى شيئاً؟

فأجاب وقد حزر ما يدور في فكري:

- لا أتمنى شيئاً مستحيلاً.

ثم أضاف وهو يمسِّد شعري بيده كما تُلاعَبُ طفلة:

- لقد بللت شعرك، فأنت تحسدين أوراق الشجر وأعشاب الأرض على أن الأمطار بلّلتها، وتودين لو تكونين عشبة، ورقةً، مطراً. وأنا لا أزيد على أن أفرح حين أتأمل كلَّ ما هو على هذه الأرض جميل، وفتيّ.

عدت أسأله وقد أخذ قلبي ينقبض مزيداً من الانقباض:

- ولست آسفاً على شيء من الماضي؟

فلبث لحظةً شارد الذهن صامتاً، ولاحظت أنه يحاول أن يجيبني بصراحة تامة، ثم قال مقتضباً:

- لا!

فهتفت أقول وأنا التفت إليه لأحدق في عينيه:

- ليس هذا صحيحاً! ليس هذا صحيحاً! ألست تأسفت على الماضي حقاً؟

فكرر قوله:

- لا. أنا شاكر لهذا الماضي، ولكنني غير آسف عليه!

- ألا تودُّ إذاً أن ترجع الى وراء؟

أشاح سرجي وجهه ونظر في الحديقة.

- لا، لا أودُّ ذلك، كما لا أود أن يكون لي جناحان. فهذه أمنية مستحيلة!

- ولا تحاول أن تصلح الامر؟ ألا تأخذ شيئاً على نفسك ولا عليَّ؟

- أبداً. ليس في الإمكان أبدع مما كان!

قلت له وأنا ألمس ذراعه ليلتفت اليَّ:

- اسمع. لماذا لم تقل لي في يوم من الأيام أنك تتمنى أن تراني أحيا على طريقتك، لماذا منحتني تلك الحرية التي لم أحسن استعمالها، لماذا كففت

عن توجيهي وإرشادي؟ لو أنك أردت، لو أنك كلَّفت نفسك عناء توجيهي توجيهاً آخر لما حدث شيء...

هكذا تابعت كلامي بصوت تظهر فيه الحسرة والملامة، اللتان حلَّتا محل الحب، ظهوراً ما ينفك يزداد.

فقال مدهوشاً وهو يلتفت إليَّ:

- ما الذي كان يمكن أن لا يحدث؟ انه لم يحدث شيء. كان كل شيء حسناً.

وأضاف يقول مبتسماً:

- بل حسنٌ جداً.

قلت محدثةً نفسي: «هل يُعقل أن لا يفهم؟ أم تراه لا يريد أن يفهم وهذا أنكى؟

وفاضت عيناي بالدموع. وهتفت أقول فجأة:

- ليس هناك شيء. ليس هناك إلا أنك تعاقبني بقلة الإكتراث بل بالاحتقار وأنا بريئة. ليس هناك إلا أنك حرمتني من كل ما كان عزيزاً على نفسي من دون أن ارتكب أي خطأ.

قال وكأنه لم يفهم ما قلت:

- لم هذا يا عزيزتي؟

- بل دعني أتم كلامي. لقد منعت عني ثقتك، وحبك، وحتى احترامك. فلن أصدِّق أنك تحبني الآن بعد الذي كان في الماضي. لا، يجب أن أعبِّر عن كل ما يعذبني منذ زمن طويل...

قلت هذه الجملة الأخيرة لأمنعه من مقاطعتي، وواصلت كلامي:

- أهو ذنبي أنني كنت لا أعرف الحياة، وأنك تركتني أبحث وحيدة؟...

أهو ذنبي إذا كنتُ أدركت بنفسي ما نحن في حاجة إليه، وناضلت منذ قرابة سنة في سبيل أن أعود اليك، فإذا أنت تصدني وتنبذني كأنك لا تدرك ما أنا ساعية إليه، وإذا أنت تفعل ذلك كله على نحو يبقيك بريئاً من كل مأخذ عليك، ويجعلني أنا الآثمة... المذنبة؟ نعم، إنك تريد من جديد أن تلقيني الى تلك الحياة التي أوشكت أن تشقيك وتشقيني.

قال سرجي يسألني بدهش وقلق صادقين:

– متى ظهر مني هذا؟

– ألم تقل أمس، وهذا كلام تردده دائماً، انني لن أستطيع أن أعيش هنا، وأن علينا أن نرجع في هذ الشتاء الى بطرسبرغ التي غدت كريهة الى نفسي؟ إنك، بدلاً من أن تساعدني، تتحاشى كل مكاشفة، وتتجنب كل كلمة صريحة، وكل قول فيه عاطفة وحنان. حتى إذا زلّت قدمي في المستقبل وسقطت، رحت تأخذ عليَّ سقوطي مغتبطاً مبتهجاً.

قال بلهجة باردة رصينة:

– انتظري. انتظري. ليس حسناً هذا الذي تقولين. وهو إن دلَّ على شيء فإنما يدلّ على أنك لا تحملين لي شعوراً طيباً، وإنما يدل على أنك لا...

– على أنني لا أحبك؟ تكلّم، تكلّم!

وانحبست الدموع في عيني. وجلست على الدكة، وغطيت وجهي بمنديلي.

قلت أحدث نفسي وأنا أحاول أن أكظم شهيقاً كان يخنقني: «هكذا يفهمني!». وقال صوت في قلبي: «انتهى، انتهى حبنا». ولم يقترب سرجي مني، ولم يحاول أن يروِّح عني. لقد ساءه وآذاه ما قلته. وكان صوته هادئاً وجافاً. قال:

- لا أدري مـاذا تأخذيـن عليَّ! أتأخذين عليَّ أننـي غدوت لا أحبك كما كنت أحبك في الماضي...

دمدمت أقول في منديلي:

- في الماضي...

وانسكبت دموعي أشد مرارة وغزارة.

وتابع هو كلامه فقال:

- الذنب ذنب الزمن، وذنبنا نحن. لكل زمن حبه...

وصمت لحظة ثم استأنف:

- هـل تريديـن أن أقـول لـك الحقيقة، ما دمـت حريصة علـى الصراحة هـذا الحـرص الشـديد؟ كما كنـت سـنةَ تعارفنا، أقضـي ليالي مسـهَّدةً أفكر فيـك وأُنشـئ حبَّك، فكان هـذا الحب يزداد في قلبي ويشـتد، كذلك قضيت فـي بطرسـبرغ وفي الخـارج ليالـي أرقٍ رهيبةً أحطـم فيها هـذا الحب الذي كان يعذبنـي تعذيبـاً. الحق أنني لم أصـل إلى إفنائه، وإنمـا أفنيت منه ما كان يؤلمنـي، وبلغـت الهـدوء، فأنا ما أزال أحبـك، ولكنني أحبك حبـاً آخر غير الحب القديم.

- أتسـمي هـذا حباً وما هو إلا تعذيب؟ لماذا سـمحت لـي أن أعيش في المجتمع وقد كنت تعرف شؤمه وضرره حتى لقد كففت عن حبي بسببه؟

- ليس هو المجتمع يا صديقتي!

- لماذا لم تستعمل سلطتك فتوثقني وتضربني؟ لو فعلت بي ذلك لكنتُ أسـعد قلباً، وأحسـن حالاً، ولما كنت أشـعر بأي خزي، أما الآن فقد حُرمت من كل ما كان يصنع سعادتي.

وشهقت باكيةً مرةً أخرى، وعدت أغطي وجهي.

وفـي تلك اللحظة كانت كاتيا وصونيا تصعدان إلى الشـرفة مبتلّتين فرحتيـن، وتتكلمان بصوت عـال وتضحكان. ولكنهمـا حين أبصرتانا صمتتا وأسرعتا تنسحبان.

فلمـا انصرفتـا بقينـا صامتين برهـةً طويلـة. وقد ظللـت أبكي حتى شـفيت غليلـي وشـعرت بتخفـف وراحة. ونظـرت الى سـرجي. كان جالسـاً، مسـنداً رأسـه الى يديه. وقد أراد أن يردَّ علـى نظرتي بأن يقول شـيئاً مـا، ولكنه لم يزد علـى أن تنهَّد تنهـداً ثقيلاً، وعاد يخفض رأسـه ويلقيه على يديه.

دنوت منه، وباعدت ذراعه. فشخص إليَّ ببصره الحالم. وقال كمن يتابع ما كان ماضياً فيه من تفكير:

- نعـم، يجـب علينـا جميعاً، وعلى النسـاء منا خاصة، أن نختبر بأنفسـنا جميـع مـا في الحياة من حماقـات، حتى نعود إلى الحيـاة الصادقة. كنت في ذلـك الحين لمَّـا تتجاوزي تلك السـفاسـف الحلـوة التي كنـت أحبها فيك، فتركتك تتعلّقين بها، لشعوري بأنني ليس من حقي أن أستبدَّ بك، وأن أجبرك على شـيء من الأشـياء إجبـاراً، رغم أن ذلـك كان ولَّى عني عهـده منذ مدة طويلة.

- إذا كنت تحبني، فلماذا اهتممت معي بتلك السفاسـف وأبحت لي أن أهتم بها؟

- لأنـك مـا كنـت لتصدقي كلامـي ولـو أردت. فإنما كان ينبغـي لك أن تتعلمي بنفسك. وذلك ما فعلتيه.

قلت:

- كنت تفكر بالعقل، كنت تفكر بالعقل كثيراً، وكان ينبغي أن تحب أكثر.

وصمتنا من جديد.

قال وهو ينهض فجأة ويأخذ يذرع أرض الشرفة:

- ما قلتيه قاس لكنه صحيح. نعم، صحيح.

وأضاف يقول وهو يقف أمامي:

- لقد أذنبت. ما كان ينبغي أن أسمح لك بأن تحبيني، أو كان ينبغي أن أحبك أنا حباً أبسط.

قلت في خجل:

- لننسَ هذا كله!

قال:

- ما ذهب لا يعود، ولن يعود أبداً.

وقد رقَّ صوته أثناء نطقه بهذه العبارة.

قلت وأنا أضع يدي على كتفه:

- بل عاد كل شيء منذ الآن.

فأمسك يدي يشد عليها وقال:

- كذبتُ حين قلت إني غير آسف على شيء. فالحق أنني أتحسر وأبكي على ذلك الحب الذي زال ولن تدبَّ فيه الحياة ثانية. من المذنب! لا أدري. لا يزال هناك حب، لكنه ليس ذلك الحب الماضي. ولا يزال مكانه باقياً، لكنه ليس الآن إلا ألماً. ثم أضاف:

خاليةً من القوة والنسغ تبقى الذكريات ويبقى الامتنان، ولكن...

قاطعت قائلة:

- لا تقل هذا الكلام. لندع لكل شيء أن يعود كما كان... هذا ممكن، أليس ممكناً؟

ألقيت عليه هذا السؤال محدقةً الى عينيه. كانت عيناه واضحتين، هادئتين، وكانت نظرتهما المتجهة اليَّ غير ذات عمق.

ولقد كنت أعرف، وأنا أتكلم، أن رغباتي وأمانيَّ كانت مستحيلة. وألمَّت بشفتيه ابتسامة هادئة متواضعة، شائخة على حين فجأة. وقال:

– أنت في ريعان الصبا، وأنا شيخ هرم لم يبق عندي ما تبتغين. لماذا يغش المرء نفسه؟

أضاف ذلك وهو لا يزال يبتسم. فبقيت صامتةً بقربه، وهدأ اضطراب نفسي.

واستطرد يقول:

– لا نتحمسْن لاستئناف حياتنا. لا نخدعن أنفسنا. لنشكر الله على أن ما كنا نعانيه من أنواع القلق والغم والاهتياج قد زال. ليس علينا أن نبحث ولا أن نتشكى. لقد وجدنا شيئاً من قبل، فحسبنا هذا النصيب الذي نلناه من السعادة. وإنما يجب علينا الآن أن نعمل وأن نمهّد الطريق لهما...

قال هذا وهو يومئ الى المربية التي اقتربت حاملةً فانيا على ذراعيها ثم توقفت عند العتبة. وأردف يقول خاتماً كلامه مائلاً عليَّ ليقبِّل رأسي:

– نعم يا صديقتي، هكذا. إن الذي يقبلك الآن ليس عاشقاً مولهاً بل هو صديق قديم.

من الحديقة كانت أشذاء الليل العبقة تصّاعد الينا أجمل أرجاً، وكانت أصوات السكون الساجي تصل الى أسماعنا أشد مهابة، وكانت النجوم تطلع في السماء أوفر عدداً. ونظرت الى سرجي، فإذا أنا أشعر بتخفف وتروُّح، كأن نفسي قد تحررت فجأة من عصب مريض كان

يسبب ألماً شديداً. وأدركت أن الحب الماضي قد ذهب الى غير رجعة، كالزمان نفسه الذي لا يؤوب الى وراء، بل أدركت أن عودة ذلك الحب ليست مستحيلة فحسب، بل هي أيضاً مربكة متعبة مؤلمة. حتى لقد تساءلت: هل كان ذلك العهد الماضي سعيداً حقاً الى الحد الذي كان يزينه لي خيالي؟ وما أبعد ذلك العهد! ما أبعده!...

قال سرجي:

- آن أن نمضي إلى الشاي.

وقام فتبعته إلى الصالون.

وعند الباب اصطدمت بالمربية حاملةً فانيا. فأخذته بين ذراعي، وغطيت قدميه الصغيرتين الحمراوين، وضممته الى صدري، وقبّلته قبلة خفيفة لم تكد تلامسه. فحرك الطفل يديه الصغيرتين المتباعدة أناملهما وهو شبه نائم، وفتح عينيه المغمضتين كأنه يحاول أن يتذكر شيئاً ما، وتلبث بصره عليَّ، وبرق فيهما ما يشبه أن يكون خاطرة، وتجمعت شفتاه وانفرجتا تبتسمان.

قلت أحدِّث نفسي وأنا أضمه الى صدري بتوتر في جميع أعضائي، ولا أكاد أستطيع أن ألجم نفسي عن شدِّه شداً قوياً يؤلمه: «إنه لي، لي أنا، لي أنا». وطفقت أقبِّل قدميه الصغيرتين الباردتين، وبطنه الصغير، ويديه، ورأسه الذي لم يكد ينبت فيه الزغب.

دنا سرجي مني. فأسرعت أغطي وجه الطفل، ثم كشفت عنه ثانية. فقال سرجي وهو يلمس باصبعه ذقن فانيا:

- إيفان سرجيتش!

ولكني عدت أغطي رأس إيفان سرجيتش. لا أحد غيري يجب أن

ينظـر اليه. وتأملت زوجي. كانت عينـاه تضحكان وهو ينظر الى عينيَّ، فشعرت - لأول مرة منذ مدة طويلة - بشيء من الفرح الخفيف السهل وأنا أنظر إلى عينيه.

في ذلك اليوم انتهت قصتي مع زوجي. أصبح الحب السابق ذكرى عزيـزة، وزال إلى الأبد. ونشـأت عاطفة جديدة، هي حب ابنيَّ وأبيهم، فهـذه العاطفة الجديدة تقوم عليها حياة أخرى وسـعادة مختلفة ما أزال أعيشها إلى هذه اللحظة...

ليو تولستوي

بوليكوشكا

ترجمة: د. سامي الدروبي

بوليكوشكا

- 1 -

كما تأمر سيدتي! ولكن آل دوتلوف يُرثى لحالهم. هم جميعاً شبان طيبون!... فإذا لم نرسل الآن للتجنيد أحد الخدم، فمن المحقق أن واحداً منهم سيُجنَّد. حتى إن الجميع يرشحونهم منذ الآن. ولكن ما دامت هذه هي إرادتك...

قال الوكيل ذلك وعاد يضع يده اليمنى على يده اليسرى، ثم يضع اليدين كلتيهما على بطنه، ويميل برأسه الى جانب، ويمص شفتيه الرقيقتين حتى ليكاد يخرج من ذلك صوت، ويرفع عينيه، ويصمت وقد وضح أنه ينتوي أن يصمت مدة طويلة وأن يصغي - من دون معارضة - الى جميع السخافات التي لا بد أن تقولها له السيدة.

انه الوكيل الذي اختير من بين الخدم. هو رجل حليق اللحية يرتدي ردنجوتاً طويلاً (ذا تفصيلة خاصة يلبسها الوكلاء). كان في ذلك المساء من أماسيْ الخريف يقدم تقريره لسيدته. فأما السيدة فالتقرير في تصورها هو أن تصغي الى كشف حساب عن الأعمال الجارية في

أملاكهـا وأن تصدر أوامرها بصدد الأعمال الآتيـة. وأما الوكيل إيجور ميخائيلوفتش، فالتقرير في تصوره هو أن يُضطر الى الوقوف على ساقيه ساعتين في زاوية من الزوايا، ملتفتاً بوجهه الى الديوان، وأن يصغي الى ثرثرة ليس لها أية علاقة بالاعمال، وأن يقود السيدة بجميع الوسائل الى أن تجيـب عن جميـع اقتراحات إيجور ميخائيلوفتـش، بعد وقت، وقد نفد صبرها بقولها: «طيب، طيب».

والحديـث يـدور الآن علـى التجنيـد، لقـد كان ينبغي ارسـال ثلاثة مجندين من أراضي بوكروفسكويا. وقد تمَّ انتقاء اثنين من هؤلاء الثلاثة بحكم الظـروف العائلية والأخلاقية والاقتصاديـة، فلا يمكن أن يكون هناك تردد ولا جدال حولهما لا من جهة «المير» ولا من جهة السـيدة، ولا من جهة الرأي العام.

ولكن اختيار المجنَّد الثالث هو الذي يمكن أن يكون محل مناقشة. فالوكيـل يريـد أن يحمي الشـبان الثلاثة من عائلة دولتوف، وأن يرسـل قناً اسـمه بوليكوشكا. إن بوليكوشكا هذا ربّ أسرة سيئ السمعة جداً، فوجئ عدة مرات وهو يسرق أكياساً وأعنةً وعلفاً.

غير أن المالكة التي كانت كثيراً ما تلاعب أطفال بوليكوشـكا الذين يلبسـون خرقاً بالية، والتي كانت تحـاول، عملاً بنصوص من الانجيل، أن تـرده الى الصراط المسـتقيم، كانت لا تريد أن ترسـله مجنَّداً. وهي مـن جهة أخرى لا تريد أن تؤذي شـبان دولتـوف، الذين لا تعرفهم ولا رأتهم في يوم من الايام. ولكن – لسـبب من الاسـباب لا يعرفه الا الله – كانت السـيدة لا تسـتطيع أن تفهم شـيئاً، ولا عزم الوكيل أمره على أن يشـرح لها بوضوح كامل أن واحداً من أسـرة دولتوف سيُجنَّد اذا لم

يتم ارسـال بوليكوشكا. كانت السـيدة تقول بحرارة: «إنني لا أريد شراً بأسـرة دولتوف»، فكان ينبغي للوكيل أن يقول لها: «ما عليك إذاً إلا أن تدفعي ثلاثمائة روبل بدلاً». ولكن السياسـة والكياسـة لا تحتملان أن يقول لها هذا الكلام.

فكان الوكيل، إيجور ميخائيلوفتش، واقفاً وقفةً هادئة، بل كان يستند الـى الجـدار مرخيـاً ثقل جسـمه على إحـدى قدميه، ويمضـي يلاحظ اختلاج شـفتي السيدة، وحركة كشكشـة قبعتهـا في الظل الـذي تلقيه علـى الجدار وعلـى اللوحات، محتفظـاً على وجهه بتعبيـر عن المذلة والخنـوع. ولكنـه لا يجد أن مـن الضروري أبـداً أن ينفذ الـى معنى ما تقول. وكانت السيدة تُفيض في الحديث متكلمةً ببطء.

كانت ترتسـم خلف أذني الوكيل تقبضـات تثاؤب عصبي في بعض الأحيان، ولكنه يسرع الى إخفائها بحذق ومهارة، واضعاً يده على فمه، متظاهراً بأنه يسعل.

لقد أتيح لي في الآونة الاخيرة أن أرى اللورد بالمرستون جالساً في مكانه، لابسـاً قبعته، بينما أعضاء المعارضة يهشـمون الوزارة تهشـيماً، ثـم إذا هـو ينهض فجأة فيـردُّ بخطاب طوله ثلاث سـاعات على جميع اعتراضـات خصومه. رأيـت ذلك ولـم أدهش له. لأنني سـبق أن رأيت ألـوف المـرات شـيئاً شـبيهاً بذلك بيـن إيجـور ميخائيلوفتـش ومالكة الاراضي التي هو وكيلها. ورأيت كيف كان، إذا أحسَّ بنعاس، أو اذا بدا له أن السـيدة أفرطت في حماسـتها، ينقل ثقل جسمه عن قدمه اليسرى الى قدمه اليمنى، ويأخذ في الكلام مبتدئاً بجملته التي هي من الشـعائر المقدسة:

- كما تريدين يا سيدتي، ولكن...

وها هو ذا يكمل كلامه في هذه المرة فيقول:

- ولكـن... ولكن المجلس منعقد الآن عنـدي، أمام المكتب، ولا بد من حسم هذه المسألة. وقد ورد في الأمر أنه يجب سوق المجندين الـى المدينة قبل عيـد الصعـود. والفلاحون وقع اختيارهم على أسـرة دولتوف، فليس هناك غيرهم. إن «المير» لا ينظر الى مصالحك. «المير» لا يهمـه إن كنّا ندمِّر أسـرة دولتـوف. ولكنني أنا، أعرف مـا يلقى أفراد أسـرة دولتوف من عناء، وما يقاسـون من شـقاء. انهم منـذ كنت وكيلاً يعيشون حياة فقر شديد. لقد انتظر الشيخ، بكثير من العناء، أن يشب ابن أخيـه عن الطوق، فاذا نحن ندمّرهم الآن مرة أخرى، وأرجو أن تثقي يا سـيدتي أنني أهتم بمصالحك كأنها مصالحي. خسارة يا سيدتي. ولكن كما تريدين. ما هم أقربائي ولا أخوتي، ولا أنا قبضت منهم شيئاً...

قالت السيدة تقاطعه:

- لا أشك في هذا!

ولكنها سرعان ما خطر ببالها أن آل دولتوف قد اشتروه.

واستطرد الوكيل يقول:

- ... إن بيتهم أحسن البيوت صيانة في بوكروفسكويا. إنهم فلاحون يخشـون الله ويحبون العمل. الشـيخ يدبـر أملاك الكنيسـة منذ ثلاثين عاماً. لا يشـرب خمرةً، ولا يحلف أبداً، ولا ينقطع عن حضور القداس يوماً (كان الوكيل يعرف النقطة الحساسـة في نفس السـيدة). والشـيء الرئيسي أنه ليس له إلا ابنان. أما الآخرون فهم أبناء أخيه. و«المير» وقع اختياره عليه. والواقع أن البيوت التي فيها اثنان يعملان تخضع للقرعة.

على حين أن البيوت الأخرى، حتى تلك التي تضم ثلاثة أبناء يعملون، قد خضعت للقرعة، فاذا هي التي تعدُّ الآن على حق، واذا بالآخرين هم الذين يجب أن يتألموا بسبب فضيلتهم.

هل أصبحت السيدة لا تفهم شيئاً. لم تفهم ماذا يعني بقوله «القرعة بين اثنين» وماذا يعني بقوله «الفضيلة»، فهي الآن لا تسمع إلا أصواتاً، هي الآن لا تزيد على أن تلاحظ أزرار ردنجوت الوكيل، المصنوعة من قماش نانكين، فترى ان الزر الأعلى، الذي لا شك أنه يعقده أقل مما يعقد الأزرار الأخرى، مخيط خياطة متينة، وترى أن الزر الأوسط يتدلى كثيراً وأنه كان يجب أن تعاد خياطته منذ مدة طويلة. ولكن كل انسان يعلم أنه ليس من الضروري للمرء في المحادثات، ولا سيما في المحادثات التي تتصل بالأعمال، أن يفهم كل ما يُقال له وإنما يكفيه أن يتذكر ما يريد أن يقوله هو نفسه. فكذلك كانت تفعل السيدة. قالت:

– لماذا لا تريد أن تفهم يا إيجور ميخائيلوفتش؟ إنني لا أتمنى لأحد من آل دولتوف أن يُجنَّد. يخيَّل اليَّ أنك تعرفني حق المعرفة، فتدرك أنني أفعل كلَّ ما يمكنني فعله لمساعدة فلا حيَّ، وأنني لا أريد أذاهم أبداً. أنت تعلم أنني مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل أن أتخلّص من هذه الضرورة المحزنة، فلا يُجنَّد لا دولتوف ولا كوريوشكين (لا أدري هل خطر ببال الوكيل عندئذ أن التخلّص من هذه الضرورة المحزنة لا يحتاج الى التضحية بكل شيء بل بثلاثماية روبل فحسب. مهما يكن من أمر، فقد كان سهلاً أن يخطر هذا بباله). ولكنني أقول لك ببساطة إني لن أرسل بوليكاي بحال من الأحوال. لقد جرى بيني وبينه حديث طويل بعد حكاية الساعة تلك التي اعترف لي أنه سرقها، فحلف

لـي باكيـاً ليصلحنَّ نفسـه، ورأيتـه متأثراً أشـد التأثر، وأنه نـادم أصدق الندامـة (قال إيجور ميخائيلوفتش يحدث نفسـه: «آ... بدأت أغنيتها»، وأخـذ ينظر الى المربَّب الذي كان موضوعاً في كأس، ويتسـاءل: «أهو مربّب برتقال أم هو مربَّب ليمون؟... لعله مر...»)، ومنذ سـبعة أشـهر لم يسكر مرةً واحدة، وكان سلوكه حسناً جداً، حتى لقد قالت لي امرأته إنه أصبح إنساناً آخر يختلف عما كان أشد الاختلاف. فكيف تريد مني أن أعاقبـه بعد أن أصلح أمره وتاب؟ أليس شـيئاً فظيعاً أن يُجنَّد إنسـان له خمسـة أولاد ليس لهـم أحد يطعمهم سـواه؟ لا، لا تكلمني في هذا الأمر، فذلك أفضل...

وارتشفت السيدة بضع جرعات.

فتابـع إيجـور ميخائيلوفتش ببصره مرور السـائل فـي حلقها ثم قال معترضاً بإيجاز وبرود:

- أتأمرين إذاً بإرسال دولتوف؟

فضربت السيدة كفاً بكف وقالت:

- لمـاذا لا تريـد أن تفهمنـي؟ أأنـا أتمنى أذى أسـرة دولتـوف؟ أأنا أكرههم؟ يشهد الله أنني مستعدة لفعل كل شيء في سبيلهم.

حلفت هـذا اليمين ونظرت الى اللوحة المعلّقـة في الركن، ولكنها تذكرت أن اللوحة ليسـت صورة الله، فقالت تحدث نفسـها: «لا ضير. ليـس هذا هو الموضـوع». والغريب أنها في هذه المـرة أيضاً لم يخطر ببالهـا أن من الممكن أن تدفع ثلاثمايـة روبل. وتابعت كلامها مخاطبةً إيجور ميخائيلوفتش:

- ولكـن ما حيلتي؟ هـل أعرف أنا ماذا يجـب أن أعمل وكيف؟ أنا

لا أعرف. لذلك أعتمد عليك. وأنت أدرى بما أريد. فافعل ما من شأنه أن يرضي الجميع، بشرط أن يكون عدلاً. ما العمل؟ ليسوا وحدهم على هذه الحال. جميع الناس تمر بهم أوقات عصيبة. ولكن لا يمكن إرسال بوليكاي. فافهم أن ارسال بوليكاي شيء فظيع عندي.

وكان يمكن أن تستمر في الكلام مدة طويلة من شدة حماستها، ولكن الخادمة دخلت الغرفة في تلك اللحظة. سألتها السيدة:

– ماذا يا دويناشا؟

– وصل فلاح يريد أن يسأل إيجور ميخائيلوفتش هل يأمر بأن يبقى المجلس منتظراً.

كذلك أجابت الخادمة وهي تنظر إلى إيجور ميخائيلوفتش غاضبةً، وتقول لنفسها: «يا للوكيل النحس! لقد بث الاضطراب في نفس مولاتي، فلن تتركني أنام قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل!».

قالت السيدة:

– طيب يا إيجور، اذهب وافعل أحسن ما يجب فعله.

قال الوكيل وقد كف عن الإتيان على ذكر دولتوف:

– أمرك مطاع. ومن يجب أن نرسل للمجيء بالمال من البستاني؟

– ألم يرجع بتروشا من المدينة؟

– لا.

– ونيقولا، ألا يمكن أن يذهب؟

قالت دويناشا:

– أبي راقد في فراشه يعاني من آلام في كليته.

وقال الوكيل يسأل:

- ألا تريدين أن تأمري بأن أذهب أنا نفسي غداً؟

- بل نحن في حاجة إليك هنا يا إيجور.

وفكّرت السيدة، ثم سألت:

- كم مقدار المال الذي يجب الإتيان به من البستاني؟

- أربعمائة واثنان وستون روبلاً.

قالت السيدة وهي تنظر الى وجه إيجور ميخائيلوفتش بحزم:

- أرسلْ بوليكاي.

فقال إيجور ميخائيلوفتش وهو يوسّع فمه كمن يبتسم، من دون أن يكشف عن أسنانه، ومن دون أن يتغير شيء في وجهه:

- أمرك مطاع.

- أرسله اليَّ.

- أمرك مطاع.

وانصرف إيجور ميخائيلوفتش ذاهباً الى مكتبه.

- 2 -

إن بوليـكاي، وهـو رجل تافه فاسـد السـمعة، وفوق ذلـك وافد من قريـة أخرى، كان لا يجـد حمايةً لا لدى الخازنـة ولا لدى الخازن ولا لـدى الوكيـل ولا لدى الخادمة، وكان ركنه أسـوأ ركن رغم أنه وأمرأته وأولاده سـبعة أفراد. لقد بُنيت هذه الأركان في عهد المرحوم صاحب الأملاك على الصورة التالية: في الوسـط كوخ حجري مسـاحته عشـرة أرشينات، حيث توجد مدفأة جُعل حولها ممر، وأقيم عند كل زاوية من زواياها حاجز من ألواح خشبية. فانقسم الكوخ بذلك الى أربعة أركان، وكان كل ركن من هذه الأركان ضيقاً، ولا سـيما الركن الذي فيه أسـرة بوليكاي، لمجاورته الباب. ففي هذا الركن يتزاحم سرير الزوجية وعليه غطاء رقيق ووسـائد من قماش غليظ، وسرير طفل، وطاولة صغيرة لها ثلاث قوائم وعليها يُحضر الطعام ويغسـل الغسيل وتلقى أمتعة الأسرة كلها ويعمل بوليكاي نفسـه (الذي يتعاطى البيطرة)، وسـطول وثياب، ودجاجات، وعجل صغير، وأفراد الأسـرة السبعة. فما كان لأحد منهم

أن يستطيع التحرك في هذا الركن لولا أن لهم الجزء الرابع من سطح المدفأة يعتلونه أشخاصاً وأشياء، ولولا أن لهم الباب يخرجون منه. والحق أنهم ما كانوا يستطيعون أن يخرجوا: فالجو في شهر تشرين الأول بارد، ومن الملابس الدافئة ليس لهم الا فروة خروف يرتدونها هم السبعة جميعاً. ولكنهم كانوا يستطيعون أن يستدفئوا، فأما الصغار فبالركض، وأما الكبار فبالعمل. وهؤلاء وأولئك كانوا يعتلون سطح المدفأة التي تبلغ حرارتها في بعض الاحيان أربعين درجة. قد يبدو لكم أمراً رهيباً أن يعيش الانسان في ظروف كهذه، ولكنهم – هم – قد تعوَّدوا فلا يبالون. وكانت آكولينا تغسل وتخيط لأولادها وزوجها، وكانت تعمل بالنول وتقصر النسيج، وكانت تهيئ الطعام على الموقد المشترك، وتشاتم الجارات وتشاركهم الغيبة والنميمة. وكانت مؤونة الشهر لا تكفي الأولاد وحدهم بل تكفي البقرة أيضاً. كان الحطب وطعام الماشية يردان من عند السادة، إذ كان يوزع من الاسطبل علف في بعض الأحيان. وكانت الأسرة تملك قطعة صغيرة من بستان. وقد ولدت البقرة عجلاً. وكانوا يربون دجاجاً. وكان بوليكاي يُعنى بخيول الاسطبل، وكان يفصد الأفراس والمواشي، وينظف حوافرها، ويصف لها أدوية من اختراعه فيتقاضى على ذلك أجراً يكون تارة مالاً وتارة أغذية. وقد يبقى له في بعض الاحيان شيئٌ من شوفان السادة. فكان في القرية فلاح يعطيه في كل عشرين رطلاً من ضأن ثمناً لمكيالين من شوفان. ولقد كان يمكن أن تكون هذه الحياة مقبولة لولا أن هناك هماً كبيراً يثقل على صدور أفراد الاسرة كلها. ان بوليكاي قد عاش إبان صغره في قرية أخرى، وكان يعمل في مربض خيل. وكان السائس

الذي يعمل معه بوليكاي أكبر لص في البلاد، انتهى به الأمر الى النفي. وقد تعلم بوليكاي الصنعة من هذا السائس فبلغت هذه الحماقات من ترسخها فيه وتمكنها منه منذ طفولته، أنه رغم ما عقد عليه النية بعدئذ من إقلاع عنها، وسلوك الطريق القويم - وتلك نية تُحمد له - لم يفلح في ذلك. لقد كان صغيراً، وكان ضعيفاً ولم يكن له أب ولا أم ولا أحد يحميه.

كان بوليكاي يحب الشراب، وكان لا يطيق - حيثما وجد - أن يكون شيء من الأشياء غير محروس حراسة شديدة: فالحبل القديم، أو السرج العتيق، أو القفل، أو الوتد، أو أي شيء آخر، كان يجد له مكاناً عند بوليكاي إيلتش. وكان يوجد في كل محل أناس يخفون هذه الأشياء ويدفعون ثمنها خمراً أو مالاً بموافقة متبادلة. ان هذه الأرباح هي أسهل الأرباح منالاً كما يقول الشعب: لا تحتاج دراسة ولا عملاً، لا تحتاج شيئاً البتة، ومتى جرَّبها المرء مرة لم يرغب في مهنة أخرى. وليس لهذا النوع من الربح إلا سيئة واحدة، فالمرء يستطيع به أن يحصل على كل شيء بثمن بخس وسهولة كبيرة، وأن يعيش حياة ممتعة، ولكن الصنعة قد تتوقف فجأة بسبب أناس أشرار، فاذا الرجل مضطر أن يدفع كل شيء مرة واحدة، واذا هو يُحرم من السعادة طوال حياته.

وهذا ما وقع فيه بوليكاي.

تزوج بوليكاي. ووهب الله له السعادة: فزوجته، وهي ابنة راعي البقر، امرأة قوية ذكية نشيطة، وقد ولدت له أولاداً كل واحد منهم أجمل من الآخر. واستمر بوليكاي في تجارته. وجرى كل شيء مجرى حسناً. ولكن النحس سقط فجأة. فقبض عليه، قبض عليه في سرقة تافهة، إذ

اختلس أعنة من فلاح، فأُمسك وضُرب ووُشي به الى المالكة، وأصبح يراقَب. وأخذ الناس يشتمونه، وطفق الوكيل يهدده بالخدمة العسكرية، وراحت المالكة تقرِّعه وتؤنبه. وأخذت امرأته تبكي، وصارت حزينة. وأصبح كل شيء يجري مجرى سيئاً. إن بوليكاي رجل طيب وليس خبيثاً، ولكنه ضعيف سكير لا يستطيع أن يلجم هذا الميل السيئ فيه. وصارت امرأته تضربه أحياناً، حتى لقد صارت تضربه إذا رجع إلى البيت ثملاً. وكان هو يبكي.

كان يقول:

- ما أشقاني! ماذا أستطيع أن أعمل؟ ألا فلتفقأ عيناي! لسوف أكفُّ فلا أفعلها بعد اليوم أبداً.

ولكن ما إن ينقضي شهر حتى تسقط عليه نوبة جديدة، فاذا هو يترك البيت فيسكر ويغيب يومين. فيقول الناس متمحكين: «لا بد أنه سرق مالاً فاستطاع أن يقصف». وكانت آخر قصصه قصة سرقته ساعة الجدار في المكتب، وهي ساعة كانت معطلة منذ مدة طويلة. فقد دخل المكتب المفتوح وحيداً في ذات مرة، فرأى الساعة فأغرته فأخذها وباعها في المدينة. وبدأ يبحث عن الساعة كما لو كان أحد في حاجة ماسة الى ذلك. وكان الوكيل خاصة لا يحب بوليكاي. وعُثر على الساعة. وأنبئت السيدة بالخبر. فاستدعت بوليكاي الذي سرعان ما ركع بوليكاي على ركبتيه، واعترف بكل شيء اعترافاً مؤثراً كما علَّمته امرأته أن يفعل.

كان ذلك حسناً جداً. أخذت السيدة تزجي اليه الوعظ، ثم تكلمت وتكلمت ووبخته وأنَّبته وذكرت الله والفضيلة والحياة الآخرة وامرأته

وأولاده حتى جعلته يذرف دموعاً غزيرة. قالت له السيدة:

- انني أصفح عنك، ولكن عذني بأن لا تفعلها بعد اليوم أبداً.

فقال بوليكاي:

- لن أفعلها بعد اليوم أبداً! ألا فلأمت! فلتنتزع أحشائي! وبكى بكاء يثير الشفقة.

وحين عاد بوليكاي الى البيت ظل ينعق طوال النهار كعجل صغير، ولبث قابعاً على سطح المدفأة. ومنذ ذلك الحين لم يؤخذ عليه شيء البتة. ولكن حياته زايلها الفرح. وأصبح الناس ينظرون اليه نظرتهم إلى سارق. حتى إذا جاء موعد التجنيد، أجمع رأيهم على اختياره.

سبق أن قلت إن بوليكاي كان يتعاطى البيطرة. أما كيف غدا بيطرياً، فذلك أمر لا يعرفه أحد، ولا يعرفه هو نفسه. فهو حين كان يعمل في مربض الخيل عند السائس الذي حُكم عليه بالنفي، لم يكن له من وظيفة إلا أن ينظف الاسطبلات من الزبل، وأن يضمِّد الافراس أحياناً، وأن يأتي بالماء. فلا يمكن أن يكون قد تعلم البيطرة هناك. ثم أصبح بعد ذلك حائكاً، فبستانياً يجرف القش في ممرات الاشجار. وعلى سبيل العقوبة أجبر بعدئذ على أن يصنع آجراً، ثم بُعث بواباً الى تاجر يعمل عنده مسخَّراً. فهناك أيضاً لا يمكن أن يكون قد تعلم البيطرة. ولكن أخذ يشيع بين الناس في الآونة الأخيرة أن له باعاً طويلة في الطب البيطري، وأنه حاذق في هذا المجال حذقاً خارقاً. لقد فصد حصاناً، ثم فصد حصاناً آخر، ثم أرقد حصاناً ثالثاً على الأرض وأخذ يكشط شيئاً في فخذه، حتى اذا فرغ من ذلك أمر بتشغيل الحصان وأخذ يجزُّ له عرقوبه الى أن نزف دمه رغم أن الحصان أخذ يتخبط ويصرخ. وقال

بوليكاي في شـرح ذلك أن معناه «سكب الدم من تحت الحافر»، وبعد ذلـك قال لأحد الفلاحين إن من الضروري فصـد وريدين «طلباً لمزيد من السـهولة»، وتنـاول مطرقة فأخذ يهوي بها علـى المفصد المثلَّم ثم عصـب بطن الحصـان بضماد صنعه مـن خمار امرأتـه. وطفق في آخر الأمر يداوي جميع الأمراض بملح الزاج يحله بسـائل قارورة، ويصف للاسـتعمال الداخلـي ما يخطـر بباله مـن دواء. فكلما عـذَّب الأفراس تعذيبـاً أشـد، وأمـات منها عـدداً أكبـر، ازدادت ثقـة الناس به، واشـتد لجوؤهـم إليه.

انـي لأحـس أنه لا يليق بنـا كل اللياقة، نحن السـادة، أن نسـخر من بوليكاي ونتهكّم عليه. فالأسـلوب الذي يعمـد إليه لاجتذاب الثقة هو الأسـلوب نفسـه الـذي كان يؤثر في آبائنـا. ان الفلاح الـذي يضع بطنه على رأس حصانه (وحصانه هو ثروته الوحيدة حتى ليكاد يكون واحداً من أفراد أسـرته)، وينظر الى بوليكاي وقد قطب حاجبيه تقطيباً وقوراً، وينظـر الى يديه البارعتين اللتين شـمَّر كمَّيهما وأخـذ يضغط بهما على الموضـع المؤلم عامداً وجعل يطعن اللحم الحيَّ جريئاً جسـوراً (بينما هو يقول لنفسـه: «هلمَّ، فقد تفلح!»)، ويتظاهر بأنه يعرف أين هو الدم، وأيـن هي المـادة، وأين هـو الوريد الجـاف وأين هو الوريـد الممتلئ، ويقبض بأسـنانه على الخرقة المبلولة أو قارورة الزاج، أقول إن الفلاح الذي يرى هذا كله وقد امتلأت نفسـه بشـعور هو مزيج من ثقة ورعب، لا يمكـن أن يصـدِّق أن بوليـكاي يرفع يـده ليقطع على غيـر هدى. هو نفسـه لا يمكن أن يفعل هذا. ومتى تمَّ هـذا القَضْب وانتهى فلن يمضي يلوم نفسـه على أنه أذن به ووافق عليه. لا أدري هل شـعرتم بما شعرت

بـه أنـا إزاء الطبيب الذي لبّى طلبي فطفق يعذّب أناسـاً أحبةً على قلبي.
أي فرق بين المفصد والقارورة السـحرية البيضاء التي فيها السـليماني وكلمـات: انخـلاع وتسـوّس وفصـد ومادة ومـا الى ذلك مـن كلمات يستعملها الفلاحون، وبين ما نستعمله نحن من مصطلحات حين نقول «الأعصاب والروماتزم والأجسـام العضوية»، الخ؟ ألا إن بيت الشـعر القائل:

«كن جريئاً فخادع النفس واحلم»[1]، ليصدق على الاطباء والبياطرة أكثر مما يصدق على الشعراء.

(1) بالالمانية في الأصل.

- 3 -

في ذلك المساء نفسه، بينما كان أفراد المجلس الذي عليه أن يختار المجند يتصايحون بقرب المكتب وسط الضباب البارد المعهود في ليلة من ليالي شهر تشرين الأول (أكتوبر)، كان بوليكاي جالساً على حافة السرير قرب الطاولة يسحق بقنينةٍ خليطاً لا يعرفه هو نفسه ولكنه يهيئه دواء لحصان، خليطاً فيه سليماني وكبريت وملح جلاودر وعشب تعوَّد بوليكاي أن يقطفه، بعد أن تخيل ذات مرة أن هذا العشب يصلح لمعالجة الربو عند الخيل، ثم وجد أنه ليس من غير المفيد أن يصفه أيضاً لمعالجة أمراض أخرى. كان الاولاد قد ناموا: اثنان على سطح المدفأة، واثنان في السرير، وواحد في المهد الذي كانت آكولينا جالسة بقربه أمام نولها. وكانت بقية من شمعة من شموع السادة التي تُساء حراستها، تشتعل في شمعدان من خشب على حافة النافذة. وكانت آكولينا، من أجل أن لا يتلهى زوجها عن مشاغله المهمة والخطيرة، تنهض من حين الى حين فتقص بأصابعها رأس الشمعة. إن عدداً من

أقويـاء الفكر يعـدُّون بوليكاي بيطرياً جاهلاً ودماغـاً فارغاً. ولكن أكثر النـاس إن كانـوا ينظرون إليـه نظرتهم الى رجل سـيئ، فإنهـم يعتبرونه أستاذاً في فنه. وكانت آكولينا، على أنها كثيراً ما تشـتم زوجها بل كثيراً مـا تضربه عند الحاجـة، تعتقد اعتقـاداً لا يتزعزع بأنه أحـذق بيطري و «أكفأ» رجل في العالم.

كان بوليـكاي فـي تلك اللحظة يسـكب في كفه عنصـراً من عناصر الـدواء (إنـه لا يسـتعمل الموازين أبـداً، حتى إنه يسـخر مـن الصيادلة الألمان الذين يسـتعملونها قائلاً: ليست هذه صيدلية»، وحرَّك بوليكاي المقـدار الذي وضعـه في كفه من عنصر الدواء فوجد أنه قليل فسـكب مقـداراً آخر يسـاوي عشـرة أضعـاف المقـدار الأول، قائلاً: «سـأضع الكمية كلها، فمن شـأن ذلك أن ينفعه نفعاً أعظم». فلما سمعت آكولينا صوت سـيدها ومولاها أسرعت وحدثت نفسها بقولها: «ما أعظمه من عقـل مع ذلك! مـن أين يأتي بهذا العلم كله؟»، واسـتأنفت عملها على نولها. وسـقطت الورقة التي لُـف بها عنصر الدواء، فلـم تدعها آكولينا على الأرض، بل قالت منادية ابنتها:

- آنيوتكا! أسقط أبوك شيئاً فشيليه.

فأخرجـت آنيوتـكا سـاقيها الصغيرتيـن النحيلتيـن العاريتيـن، مـن المعطـف الـذي كان يغطيهـا، ونزلـت تحـت الطاولـة كقطـة صغيرة، وتناولت الورقة، وقالت:

- خذ يا أبي.

ثم عادت ساقاها تختفيان في السرير.

زعقت أختها الصغرى تنهرها بصوت مزقزق غافٍ:

- لماذا تدفعينني؟

فصاحت آكولينا تقول:

- لسوف...

فاذا بالرأسين يختفيان تحت المعطف.

قال بوليكاي وهو يسدُّ القنينة:

- إذا دفع ثلاثة روبلات شفيت الحصان.

وأضاف يقول:

- حتى إن هذا ثمن بخس. إن المرء يكسِّر رأسه تكسيراً ليصنع الدواء. آكولينا، امضي الى نيكيتا فاطلبي لي قليلاً من التبغ أردُّه غداً.

وأخرج بوليكاي من جيب بنطلونه غليوناً من خشب الزيزفون كان في الماضي مدهوناً، وقد زال أنبوبه فاستعيض عن الانبوب بشمع. وأخذ يهيئه.

تركت أكولينا نولها وخرجت من دون أن تتعثر بشيء وهذا أمر صعب جداً. وفتح بوليكاي خزانة صغيرة فوضع فيها قارورة، وأخرج زجاجة حملها الى فمه فعرف أنها فارغة ليس فيها خمرة، فقطب حاجبيه، ولكنه حين حشا غليونه بالتبغ الذي جاءته به امرأته، وأخذ يدخِّن جالساً على حافة السرير أشرق وجهه بالاعتزاز الفرح الذي يشع في وجه رجل فرغ من عمله اليومي. ولعله أخذ يفكر في الوسيلة التي سيعمد إليها غداً ليمسك لسان الحصان ويفرغ في فمه المزيج المدهش أو لعله كان يقول لنفسه: «إن الناس يقدِّرون الرجل حقّ قدره دائماً حين يحتاجون اليه، وان نيكيتا أعطاني تبغاً على كل حال». فكان بوليكاي يشعر بارتياح. ولكن الباب، وهو باب يتحرك بمفصلة

واحدة، فُتح فجأة، فاذا بخادمة «من فوق» تظهر في الركن (ليست هي الخادمة الثانية، بل هي الثالثة، هي الصغرى التي يُحتفظ بها رسولاً). إن اصطلاح «من فوق» يعني منزل السادة كما يعلم الجميع ذلك، ولو كان هذا المنزل يقع تحت لا فوق. وآلسيوتكا - وذلك هو اسم الخادمة - تركض دائماً بسرعة السهم، ولا تثني ذراعيها بل تهزهما مستقيمتين، ولا تهزهما على جنبيها، وانما تهزهما أمام جسمها هزاً موزوناً يتبع سرعة ركضها. وخداها ورديتان دائماً أكثر من ثوبها الوردي. ولسانها يتحرك دائماً بسرعة كسرعة ساقيها.

وثبت آلسيوتكا الى الغرفة وثباً، وتشبثت بجدار المدفأة وأخذت تتأرجح، ثم قالت وكأنها لا تريد أن تنطق بأكثر من ثلاث كلمات معاً، قالت بصوت لاهث مخاطبةً آكولينا:

- السيدة تأمر بوليكاي إيلتش بأن يجيئها فوراً الى فوق، تأمر...

وتوقفت عن الكلام وتنفست تنفساً عميقاً ثم أردفت:

- كان إيجور ميخائيلوفتش عند السيدة، فتكلما عن المجندين، ووقع الاختيار على بوليكاي ايلتش... إن آفدوتيا نيقولافنا تأمر بأن يجيء حالاً. السيدة تأمر...

وتنفست مرة أخرى ثم أكملت جملتها قائلة:

- ... بأن يجيء حالاً.

ونظرت أكسيوتكا الى بوليكايْ والى آكولينا والى الأولاد الذي ظهروا من تحت الغطاء، نظرت اليهم خلال نصف دقيقة، وتناولت قشرة بندق كانت على سطح المدفأة، فرمتها الى آنيوتكا، وقالت مرة أخرى: «... أن يجيء حالاً»، ثم إذا هي تثب خارجة من الغرفة كالريح،

وقد عادت ذراعاها تتحركان على إيقاع جريها.

نهضت آكولينا وأعطت زوجها جزمتيه. إنهما جزمتان من جزمات الجنود مهترئتان متشققتان متمزقتان. وتناولت القفطان الذي كان على المدفأة ومدته إليه من دون أن تنظر. وقالت تسأله:

– ألا تبدل قميصك يا إيلتش؟

فأجاب بوليكاي:

– لا.

لم تنظر آكولينا مرة واحدة الى وجهه بينما كان ينتعل جزمته ويرتدي ثيابه صامتاً. وحسناً فعلت. لقد كان وجه بوليكاي شاحباً، وكان فكه الأسفل يختلج، وكان في عينيه ذلك التعبير الشاكي الوجل البائس بؤساً عميقاً، الذي لا يُرى مثله إلا في أعين الاشخاص الطيبين الضعفاء المذنبين. ومشط بوليكاي شعره وأراد أن يذهب. ولكن امرأته استوقفته، فعدلت طرفاً من قميصه كان خارجاً عن سترته، ووضعت على رأسه طاقيته.

وهذا صوت امرأة النجار يُسمع من خلال الحاجز هاتفاً:

– ماذا يا بوليكاي إيلتش؟ السيدة تستدعيك؟

وكانت امرأة النجار، في ذلك الصباح نفسه، قد نشبت بينها وبين آكولينا مشاجرة ضخمة بسبب آنية للغسيل قلبها أولاد بوليكاي، فسرَّها في الوهلة الأولى أن تعلم أن السيدة تستدعي بوليكاي اليها، فربما كان هذا الاستدعاء لا يبشر بخير له. ولقد كانت امرأة النجار عدا ذلك سيدة تحسن اصطناع الكياسة اللاذعة الشريرة، فلا يجاريها أحد في قوة اللسع بكلمة ترسلها إرسالاً هيناً ليناً ولكنه يصيب مقتلاً، أو ذلك ما

كانت تظنه هي في نفسها. وتابعت تقول:

- لعل السيدة تريد أن ترسله الى المدينة لشراء بعض الأشياء. أظن أن السيدة ترغب في إرسال رجل تثق به وتطمئن إليه، فلذلك ترسلك أنت. فإذا كان الأمر كذلك فاشتر لي ربعاً من الشاي يا بوليكاي إيلتش.

حبست آكولينا دموعها وتقلّصت شفتاها تقلصاً فيه شر. انها تتمنى لو تهجم على هذه المرأة الخبيثة فتقتلع لها شعرها اقتلاعاً. ولكنها حين نظرت الى أولادها وتصورت أنهم سيصيرون يتامى، وأنها ستصير هي امرأة جندي غائب، نسيت سخريات امرأة النجار، وأخفت وجهها في يديها، وجلست على السرير، وهوى رأسها على الوسادة.

تمتمت الصبية الصغيرة مزأزئة وهي تشد معطفها من تحت كوع أمها:

- سحقتني يا أمي.

فصرخت آكولينا تقول:

- ألا فلتموتوا جميعاً! فللشقاء إنما ولدتكم!

وملأت انتحاباتها الغرفة، فما كان أعظم فرح امرأة النجار التي لم تنس آنية الغسيل التي انقلبت عندها في الصباح.

- 4 -

انقضى نصف ساعة. وأخذ الطفل يصرخ. فقامت آكولينا ترضعه. إنها الآن لا تبكي، ولكنها من خلال أصابع يدها التي تسند وجهها الذي لا يزال جميلاً على نحوله، تنظر الى الشمعة التي تشارف على نهايتها، وتحدث نفسها قائلةً: «لماذا تزوجت؟ ما حاجتهم الى هذا العدد كله من الجنود؟ كيف أستطيع أن أنتقم لنفسي من امرأة النجار؟».

وسمعت وقع أقدام زوجها. فجففت دموعها، ونهضت لتفسح له مجال المرور. دخل بوليكاي حازم الخطو. وألقى طاقيته على سريره، وتنفس، وأخذ ينزع حزامه.

– هيه؟ لماذا استدعتك؟

– معروف. بوليكوشكا آخر الناس قاطبة، ولكن حين يكون هناك عمل، فهو الذي يُندب للقيام به. بوليكوشكا هو الذي يُندب للعمل.

– ما هو العمل؟

لم يتعجل بوليكوشكا الإجابة عن هذا السؤال. وأشعل غليونه

وبصق. ثم قال:

- أمرتني بأن أذهب الى تاجر لأقبض منه مالاً.

- لتقبض مالاً؟

ابتسم بوليكوشكا وهزَّ رأسه.

- آه... ما أبرعها في الكلام، ما أحذقها في اختيار الألفاظ. قالت لي: الناس يقولون عنك إنك لا تؤتمن كثيراً، أما أنا فإن ثقتي بك أكبر من ثقتي بأي إنسان آخر. (كان بوليكاي يتكلم بصوت عالٍ ليسمعه الجيران). وقد وعدتني بأن تصلح نفسك. فإليك أولَ امتحان امتحنك به لأصدِّق قولك. اذهب الى التاجر فخذ منه المال وجئني به». فقلت لها: «إن على جميع أقنانك يا سيدتي أن يخدموك كما يُخدم إله. لذلك أحس بأنني أستطيع أن أفعل كل شيء في سبيل صحتك، ولا أرفض أي عمل. سأقوم بكل ما تأمرينني به، لانني عبدك المطيع». (وابتسم بوليكاي مرة أخرى تلك الابتسامة الخاصة المعهودة في انسان ضعيف طيب مذنب). فسألتني: «أهذا مؤكد ومضمون؟ أفهم أن مصيرك رهن به». قلت: «كيف يمكن أن لا أدرك أنني أستطيع أن أفعل كل شيء؟ إذا كان الناس قد حدثوك عني بسوء، فإنهم يمكن أن يقولوا هذا الكلام عن كل انسان. وأنا أعتقد بأنني لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن أفعل شيئاً يخالف سعادتك». الخلاصة أنني بلغت من حسن الكلام أن السيدة لانت كل اللين، وقالت لي: «سوف تكون أنت الرجل الذي أمحضه ثقتي. (وصمت بوليكاي، وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة من جديد). انني أعرف كيف أكلمهم. حين كنت «في السخرة»، كانوا ينزلون عليَّ نزول الصاعقة، فما هي إلا بضع كلمات أقولها له، فإذا هو

يهدأ أكبر الهدوء، وإذا هو يلين حتى لكأنه من مخمل.

سألته آكولينا:

- هل المال الذي ستحمله إلى السيدة مبلغ كبير؟

فأجابها بوليكاي بإهمال:

- حوالى ثلاثة أنصاف ألف روبل.

فهزَّت المرأة رأسها. وقالت:

- متى تسافر؟

- هي تأمر بأن أسافر غداً. وقد قالت لي: «خذ الحصان الذي تريد، ومُرَّ بالمكتب، ثم امض في حراسة الرب».

قالت آكولينا وهي تنهض وترسم على نفسها اشارة الصليب:

- الحمد لله!

ثم دمدمت تقول بصوت خافت حتى لا يسمعها أحد خلف الحاجز:

- اسأل الله أن يعينك ويحميك يا إيلتش!

وأضافت وهي تمسك كمَّ قميصه:

- اسمعني يا إيلتش. انني أضرع إليك وأناشدك يسوع المسيح أن تقبِّل الصليب حين تسافر، وتحلف يميناً لتمتنعنَّ عن شرب قطرة واحدة!

جمجم بوليكوشكا يقول:

- هل تظنين أنني سأشرب وأنا أحمل مثل هذا المبلغ الضخم من المال!

ثم قال بعد صمت وهو يبتسم:

- كان عندها فتاة تعزف على البيانو. ما كان أروعه من عزف! لعلها

الآنسة. كنت واقفاً أمامها، أمام السيدة، في العتبة، وكانت الآنسة في الطرف الآخر. وأخذت تعزف. عزف جميل. أنا يمكنني أن أعزف إذا أردت. سأتعلم العزف. سأتعلم حتماً. أنا شاطر في هذه الأمور. أعطني للغد قميصاً نظيفاً.

ومضيا إلى النوم سعيدين.

- 5 -

في تلك الأثناء كان حشد المجلس يزداد حماسةً أمام المكتب. كان جميع الفلاحين تقريباً محتشدين، وحين كان إيجور ميخائيلوفتش عند السيدة، كانت الرؤوس مغطاةً بطاقياتها، وكان عدد الأصوات التي تشارك في المناقشة يزداد، وكان صخب هذه الأصوات يشتد. كانت ضجة الأصوات الخشنة التي تتخللها من حين إلى حين أقوال متقطعة ضاحكة، تملأ الهواء، وكانت هذه الجلبة تصل إلى نوافذ السيدة كهدير بحر هائج، فتشعر السيدة منها بقلق عصبي شبيه بالقلق الذي تثيره في النفس عاصفة شديدة. كان يبدو للسيدة دائماً أن الأصوات ستعلو مزيداً من العلو، وستكثر مزيداً من الكثرة، وأن شيئاً ما سوف يحدث. فكانت تقول لنفسها: «لكأنه يستحيل التفاهم برفق، وهدوء، وبغير صراخ، كما يوجب القانون المسيحي الأخوي الرقيق».

إن أصواتاً كثيرة تتكلم في آن واحد، وإن أعلاها صوت فيدور ريازوف، النجار. إن بين أفراد أسرته اثنين يعملان، فكان يهاجم أسرة

دولتـوف، وكان دولتوف الشـيخ يدافع عن نفسـه. لقـد وقف دولتوف أمام الجمهور بعد أن كان واقفاً وراءه، وطفق يتكلم لاهثاً لهاثاً شديداً، مباعـداً ذراعيه مباعدة واسـعة، أو شـاداً لحيته الصغيـرة المدبَّبة، غاصاً بكلامه إلى حدٍ يكاد يجعله هو نفسه عاجزاً عن فهم ما كان يقول. وكان أبنـاؤه وأبنـاء اخيه - وهـم جميعاً فتية فـي غضارة الصبـا - يزدحمون بقربه، فكان منظره كمنظـر «الدجاجة في لعبة الباز والكتاكيت». والباز هـو ريـازوف، لا ريـازوف وحـده، بـل جميـع أولئـك الذيـن ليس في أسرهم إلا اثنان يعملان، أو واحد يعمل: كان الحشد كله تقريباً يهاجم دولتوف. والمسألة هي التالية: إن أخا دولتوف قد جُنِّد قبل ثلاثين سنةً، فلذلك لا يريد دولتوف أن تعدَّ أسرته من الأسر التي تضم ثلاثة عاملين، وإنما يريد أن يحسـب حسـاب جندية أخيه وأن يصنَّف في عداد الأسر التي تضم عاملين اثنين، فيؤخذ المجند الثالث من بين أفراد هذه الأسر بالقرعة. وكان هناك، عدا أسـرة دولتوف، أربع أسر تضم كل منها ثلاثة عاملين. ولكن إحداها أسـرة الستاروسـت (رئيس القريـة)، وقد أعفته السـيدة، والثانية قدَّمت مجنداً في التجنيد الأخيـر، والثالثة والرابعة تم اختيـار مجنـد من كل منهما، حتـى إن ربَّ واحدة من هاتين الأسـرتين الأخيرتين لم يحضر المجلس، وكانت امرأته وحدها واقفةً وراء الناس وقد فاضت نفسـها حزناً وسـاورها أمل غامض في أن تجري الريح بما تشـتهي نفسها. وأما رب الأسرة الأخرى، وهو رجل أحمر اللون اسمه رومـان، يرتدي معطفاً باليـاً ممزقاً، رغم أنه ليس بالفقير، فكان مسـنداً ظهره الى الدرج، حانياً رأسـه الـى الارض، صامتاً طوال الوقت، وكان ينظر في بعض الأحيان الى الرجل الذي يرفع صوته، ثم يخفض رأسـه من جديد، وكانت هيئته كلها تعبِّر عن التعاسة والشقاء.

إن دولتـوف العجـوز رجـل يكفي أن يعرفه أي إنسـان أقـلَّ معرفة، حتـى يأتمنه على مئات الروبلات بل ألوف الروبلات. هو رجل رصين وقور، ميسور الحال، يعرف تقوى الله. ولقد كان عدا ذلك أمين أملاك الكنيسة. وكان من شأن هذا كله أن يجعل اندفاعه وحماسته الآن أدعى الى الدهشة وأبعث على الاستغراب.

ولـم يكن كذلـك ريازوف، النجـار. فهو رجل شـديد البأس طويل القامة، أسـمر اللون، صخَّاب، سـكير، جسـور، حاذق حذقاً خاصاً في المناقشـات والمشـاجرات، في المجالس وفي الأسـواق، مـع العمال ومع الباعة، مع الفلاحين ومع الأسـياد. وهـو الآن هادئ المظهر لاذع اللسـان، يتغلـب بقامته الطويلة وصوته الجهيـر وموهبته الخطابية على دولتوف اللاهث المتعثر، ويسحقه سحقاً.

وكان يشـارك فـي المناقشـة أيضاً جاراسـكا كوبيلـوف، وهو رجل لا يزال في شـرخ الشـباب، مدوَّر الوجه، مربع الـرأس، مجعَّد اللحية، يُعـدَّ أحد المتكلمين اللامعين من أبناء الجيل الذي يتلو جيل ريازوف، ويتميز بصلابة القول، ويحظى منذ الآن بشـيء من السـلطة والتأثير في المجلس. وكان يشـارك في المناقشة كذلك فيدور ملنيشني، وهو فلاح أصفـر الوجـه، نحيـل، طويل، مقوِّس الظهر، لا يزال شـاباً، قليل شـعر اللحيـة، له عينـان غاضبتان مظلمتان دائماً، كان ينظر إلى كل شـيء من جانبه السـيئ، ويعكِّر المجلس في كثير من الأحيان بأسئلته وملاحظاته المباغتة المقطَّعة. وكان يتدخل في المناقشـة من حين الى حين رجلان ثرثـاران: أحدهما يقال له خرابكوف، وهو إنسـان يفيـض وجهه طيبة، ولـه لحيـة طويلة، وجسـم عريـض، كان يضيـف إلى كل كلمـة عبارة:

«صديقي العزيز»، والثاني يسمى جدكوف، وهو رجل قصير، له وجه كوجه العصفور، كان هو أيضاً يضيف الى أقواله بغير انقطاع: «هكذا يا إخوة، ينتج إذاً...»، ويتجه بحديثه الى جميع الحضور، ويحسن الكلام لكنه لا يضعه في مكانه. وكان هذان الرجلان ينحازان تارةً الى هذا الطرف وتارةً الى الطرف الآخر، ولكن لم يكن يصغي اليهما أحد. إن هناك أشخاصاً آخرين من هذا النوع، ولكن هذين الاثنين كانا يندسان في الجمهور، ويصيحان مزيداً من الصياح، فكأن صياحهما يروِّع السيدة. إنهما وهما أقل المتكلمين حظوة بإنصات الناس إليهما، قد أطاش الصراخ صوابهما، فكانا ينقادان للذة تحريك لسانيهما.

وكان هناك أنواع أخرى كثيرة من الناس: صموتون لا يتكلمون، ورصينون لا يخرجون عن لباقتهم، وأفراد لا يبالون ولا يكترثون، وأشخاص مضطهدون، وكان هناك أيضاً نساء يقفن وراء الفلاحين حاملاتٍ عصيَّهن. ولكن عن هؤلاء الناس سأتكلم في مرة أخرى اذا أتاح الله لي ذلك. أما الآن فحسبي أن أقول بوجه عام إن الجمهور كان يتألف من فلاحين يقفون في هذا الاجتماع وقوفهم في الكنيسة، فهم يتحدثون في شؤونهم العائلية، ويتكلمون عن موعد الذهاب الى الغابة لقطع الأشجار، أو يصمتون منتظرين أن ينتهي هذا العويل، ومن أغنياء لا يستطيع هذا الاجتماع أن يضيف الى رخائهم شيئاً، ولا أن ينقص منه شيئاً. فكذلك كان إرميل، ذو الوجه العريض الملتمع، الذي كان الفلاحون يسمونه صاحب الكرش، لأنه غني. وكذلك كان ستاروستين الذي كان وجهه ينضح ثقة، وكأنه يقول: «مهما تقولوا فلن يمسَّني أحد. إن لي أربعة أبناء، ولكن من عندي لن يؤخذ أحد». لقد كان الأشداء، من أمثال كوبيلوف وريازوف، لا يهاجمونه إلا في القليل النادر، وكان يردُّ

عليهم بهدوء وصلابة، شاعراً بأنه مصون لن يُمَسّ. واذا كان دولتوف يشبه الدجاجة في لعبة الباز والكتاكيت، فان فتيانه كانوا لا يشبهون الكتاكيت كثيراً: انهم لا يضطربون، ولا يصيحون، وانما هم يقفون وراءه هادئين. إن أكبرهم، وهو إغناتي، قد بلغ من عمره الثلاثين. والثاني، وهو فاسيلي، متزوج أيضاً، لكنه لا يصلح للتجنيد. والثالث، إليوشكا، ابن الأخ، قد تزوج منذ مدة قصيرة، وهو شاب أبيض متورد اللون يرتدي ثوباً أنيقاً من جلد الحمل (إنه مساعد حوذي)، وينظر الى الجمهور حاكاً رقبته تحت الطاقية من حين الى حين كأن الأمر كله لا يعنيه، مع أنه هو الذي كان أولئك الماكرون يريدون أن يُجنَّد.

قال ريازوف:

- هكذا! جدِّي أيضاً كان جندياً. لذلك سأرفض أن أدخل القرعة! لا يوجد قانون كهذا القانون يا عزيزي. في آخر تجنيد أخذ ابن ميخائتش، ومع ذلك لم يرجع عمه الى البيت حتى الآن.

وكان دولتوف يقول في الوقت نفسه:

- في بيتك، لا أبوك ولا عمك خدما القيصر وأنت أيضاً لا تخدم لا السيد ولا مجلس القرية. أنت لم تفعل شيئاً غير الشرب، وقد تركك أولادك لأن العيش معك مستحيل. أنت تريد أن تُلحق الأذى بالآخرين، أما أنا فقد كنت رئيساً للقرية عشرَ سنين. وقد شب الحريق عندي مرتين فلم يساعدني أحد! ألأن كل شيء في بيتنا هادئ وشريف، يُراد تدميري؟ أرجعوا إليَّ إذاً أخي! ألم يمت هناك في الخدمة؟ ليكن حكمكم قائماً على الحقيقة مطابقاً لارادة الرب يا أعضاء المجلس الأرثوذكس، ولا تنصاعوا لسكير كذاب!

وفي الوقت نفسه كان جيراسيم يقول لدولتوف:

- إنـك تذكـر لنا أخاك، ولكـن مجلس القرية ليس هـو الذي جنَّده، وانمـا جنَّده الأسـياد لسـوء سـلوكه وفسـاد سـيرته. فليس ذكـره حجةً تنفعك...

ولـم يكن جيراسيم قد أتمَّ كلامه، حين تقدم فيدور ملنتشني، الطويل الأصفر، وقال مكفهرَّ الهيئة، غاضباً حانقاً:

- هو ذاك السـادة يرسـلون من يشـاءون إرسـاله، وبعـد ذلك يجب علـى المجلس أن يدبر أمره. لقد قرر المجلس أن يُرسـل ابنك، فاذا لـم يعجبك هذا فاطلب من السـيدة أن تعفيك فلعلها ترسلني أنا الذي ليس عندي الا أطفال.

قـال ذلـك وعاد الى مكانه محـركاً يده. فما كان مـن رومان الأحمر الذي تقرر تجنيد ابنه الا أن رفع رأسه وقال:

- نعم، نعم، هو ذاك، هو ذاك.

وجلس على احدى الدرجات من فرط الغضب.

ولكن هذه الأصوات لـم تكن جميع الأصوات التي كانت تتكلم معاً في آن واحد. فعدا أولئك الذي كانوا في الخلف يتحدثون في شؤونهم وقضاياهم، كان الثرثارون لا يغفلون عن القيام بوظيفتهم.

قال جدكوف القصير، مكرراً كلمات دولتوف:

- حقـاً يا أعضـاء المجلس الأورثوذكس، يجـب عليكم أن تفصلوا فـي الأمـر بما توجبـه عليكـم مسـيحيتكم، أي إن عليكم يـا أخوتي أن تكونوا في حكمكم مسيحيين.

وقـال خرابكـوف مكرراً كلمـة قالها كوبيلوف، شـاداً رداء دولتوف المصنوع من جلد الحمل:

- يجب الفصل في الأمر بما يوجبه الضمير.

لذلك كانت إرادة الأسياد هي العليا، لا قرارات المجلس.

وقال آخرون:

- هذا حق! هذا صحيح!

وصاح ريازوف قائلاً:

- من السكير الكذاب؟ أأنت الذي تهب لي ما أشربه؟ هه؟ هه؟ أم أن ابنك، ابنك الذي يحمله الناس من على أرض الشارع، هو الذي يأخذ عليَّ أنني أشرب؟ ماذا يا أخوة؟ يجب اتخاذ قرار! إذا كنتم تريدون إعفاء دولتوف، فاجروا القرعة لا على الأسر التي فيها اثنان يعملان بل على الأسر التي ليس لها إلا ابن واحد. فبذلك تُضحكونه علينا!

- إن دولتوف هو الذي يجب أن يسافر! لا كلام!

وقالت أصوات أخرى:

- الأمر معروف!... الذين عندهم ثلاثة شبان هم من يجب أن تجري عليهم القرعة.

وقال صوت:

- هذا رهن بما تأمر به السيدة. لقد قال إيجور ميخائيلوفتش إنهم سيرسلون واحداً من الخدم.

فكان من شأن هذا الاعتراض أن أوقف المناقشة برهةً، ولكن المناقشة لم تلبث أن حميت مرةً أخرى وأصبحت شخصية.

فان إغناتي الذي ذكر ريازوف أن الناس يحملونه من على أرض الشارع قد أخذ يبرهن لريازوف على أنه سرق منشار نجّار مرَّ بالقرية وإنه أوشك أن يقتل امرأته ضرباً.

فأجابه ريازوف بأنه يضرب امرأته حين يكون ثملاً أو حين لا يكون قد أصاب طعام الإفطار، وأن هذا الضرب لا يؤدِّبها مع ذلك. فضحك جميع الناس. أما عن المنشار فقد استاء ريازوف مما اتهمه به إغناتي أشد الاستياء، فاقترب منه وسأله:

- من سرق المنشار؟

فأجابه إغناتي القوي بلهجة جسورة وهو يقترب منه مزيداً من الاقتراب:

- أنت!

فردَّ إغناتي صارخاً:

- بل أنت الذي سرقته!

وبعد الكلام على المنشار دار الكلام على سرقة أشياء أخرى: حصان، فكيس شوفان، فحوض خضار، فجثة ميت. وطفق الفلاحان يتبادلان تهماً لو صدق معشارها لأوجبت القوانين نفيهما كليهما الى سيبيريا، في أقل تقدير.

وفي أثناء ذلك اختار دولتوف الشيخ طريقة أخرى للدفاع عن نفسه. لقد ضايقته صرخات ابنه، فأوقفه عن الكلام قائلاً له: «هذا إثم، اسكت»، وطفق يبرهن، هو، على أن الأسر التي فيها ثلاثة عاملين ليست فقط تلك التي لها ثلاثة أبناء يعيشون معاً، بل كذلك تلك التي يعيش أبناؤها مستقلين بالاقتسام، ودلَّ مرةً أخرى على ستاروستين.

فابتسم ستاروستين قليلاً، وتنحنح، ثم أجاب وهو يلاعب لحيته كما يفعل فلاح غني، أجاب يقول إن مشيئة السيد هي العليا، وإن ابنه إذا كان قد أُعفي فلأنه يستحق ذلك حتماً. وأما عن الأسر الموزعة فقد

انبرى جيراسيم يدحض حجة دولتوف بقوله إنه كان ينبغي الاقتسام والاستقلال كما كان يُمنع في أيام الأسياد القدامى، أما وقد سُمِحَ به، فقد فات الأوان، ولا يجوز تجنيد أشخاص يعمل كل منهم وحيداً.

وعلت أصوات العاملين المستقلين تقول:

– هل يستقل المرء راضياً؟ ما من أحد يستقل إلا مكرهاً! فعلام نُدمَّر الآن تدميراً!

وانحاز إليهم الثرثارون.

وهتف ريازوف مخاطباً دولتوف:

– إذا كان هذا لا يرضيك، فما عليك إلا تفتدي ابنك برجل آخر. إن مواردك تتيح لك ذلك!

فما كان من دولتوف إلا أن ضمَّ طرفي قفطانه أحدهما إلى الآخر يائساً مكروباً، ومضى يقف وراء الفلاحين الآخرين، وقال يردُّ على ريازوف مدمدماً في حنق:

– لا شك أنك عددتَ ما عندي من مال! هذا إيجور ميخائيلوفتش! سنرى ما سينقله إلينا من رأي السيدة.

- 6 -

كان إيجـور ميخائيلوفتش يخرج من المنـزل في تلك اللحظة فعلاً. فأخذ المحتشـدون يرفعون طاقياتهم واحداً بعد آخر، وأخذت رؤوس صلعـاء فـي وسـطها وفـي مقدمتها تظهـر تباعـاً، فمنها الأبيـض ومنها الأشيب ومنها الأحمر ومنها الأسمر ومنها الاشقر. وسكنت الأصوات شيئاً فشيئاً، ثم أطبق الصمت إطباقاً تاماً. كان إيجور ميخائيلوفتش واقفاً على درج الباب، وأشـار بيده يريد الكلام. إنه الآن، بردنجوته الطويل، ويديـه الغائصتيـن في جيبيه الأماميتين، وكسـكيتته المكفوفة، وسـاقيه المتباعدتين، ووقفته في هذا المكان العالي الذي تشرئب إليه الرؤوس، بعضهـا عجوز وبعضها جميل وملتح، يختلف اختلافاً كبيراً عن إيجور ميخائيلوفتش الذي كان ماثلاً أمام السيدة. هو الآن ذو أبهة وجلال.

اليكـم قرار السـيدة يـا أولاد: إنهـا لا تريـد أن ترسـل أي واحد من الخـدم، والذي تختارونه من بينكم هو الذي سـوف يذهب. نحن الآن فـي حاجة الى ثلاثـة. بل الى اثنيـن ونصف في الواقـع، ولكن النصف

الآخر سيُحسب سلفةً للمرّة القادمة. الأمران واحد: إن لم يكن الآن، ففي المرة القادمة.

قالت أصوات:

- معروف! صحيح!

وتابع إيجور ميخائيلوفتش كلامه فقال:

- وفي رأيي أن خوريوشكين وفاسكا ميتوشكين قد شاءت إرادة الله نفسه أن يُجنَّدا.

قالت أصوات:

- نعم، هذا مؤكد!

- أما الثالث فيجب أن يكون أحد آل دولتوف أو واحداً من بين الأسر التي فيها اثنان يعملان. ما رأيكم؟

صاحت الأصوات تقول:

- بل دولتوف. آل دولتوف ثلاثة.

وعاد الصياح يشتد شيئاً بعد شيء، وجيء على ذكر حوض الخضار والعجلة المسروقة من فناء منزل السادة من جديد.

إن إيجور ميخائيلوفتش الذي يدير هذه الأملاك منذ عشرين عاماً، رجل ذكي ذو خبرة. وقد ظل واقفاً يصغي مدة ربع ساعة، ثم إذا هو يأمر الجميع بالصمت فجأة، وإذا هو يأمر آل دولتوف بإجراء القرعة على الثلاثة لمعرفة من سيتم تجنيده. فقُصَّت أوراق. ووضع خرابكوف الأوراق في طاقية، وهُزَّت الطاقية لتختلط الأوراق، وسُحبت إحدى الأوراق فاذا هي ورقة إليوشكا.

صمت الجميع. وصاح إيليا يقول بصوت متقطع:

- وقعت القرعة عليَّ أنا، هه؟ هات أَرِني !

بقي الصمت مخيماً. وأصدر إيجور ميخائيلوفتش أمره بجمع المال الـذي يُخَصُّ بـه المجندون: سـبعَ كوبيكات من كل بيـت. ثم أعلن أن القضية انتهت، وفرَّق الحشد.

غاصـت الطاقيـات في الرؤوس حتـى الرقاب، وتحـرك الجمع في جلبـة من لغـط الأحاديث وأصوات وقـع الأقدام. ولبـث الوكيل واقفاً على درج الباب ينظر إلى الجمهور وهو يبتعد.

فلمـا وصل آل دولتوف الى زاوية الشـارع، وانعطف الفتيان فغابوا، نـادى الوكيل أباهم الذي تلبّث عند الزاوية من تلقاء نفسـه، ودخل معه الى المكتب.

قال إيجور ميخائيلوفتش وهو يجلس أمام الطاولة:

- إنـي أرثـي لحالـك أيها الشـيخ. لقد جـاء دورك. ألـن تفتدي ابن أخيك؟

فألقـى دولتوف على إيجور ميخائيلوفتش نظـرة مثقلة بالمعاني من دون أن يجيبه بكلمة. فردَّ إيجور ميخائيلوفتش على نظرته قائلاً:

- لا مناص إذاً.

قال دولتوف:

- إنا ليسعدنا أن نفتديه، ولكننا لا نملك المال اللازم لذلك يا إيجور ميخائيلوفتـش. لقد نفق لنا حصانان في هـذا الصيف. وقد زوَّجت ابن أخـي. والسـبب فـي مصيرنا هذا هـو أننا أناس شـرفاءِ طبعاً. ما أسـهل الكلام عليه، هو ! (يقصد ريازوف).

فـرك إيجـور ميخائيلوفتش وجهه بيده وتثـاءب. واضح أن الامر قد

أضجره، وقد آن له أن يحسو شايه.

قال:

- إيه أيها العجوز، لا تأثم! ابحث في قبوك، فلعلك واجد فيه أربعمائة روبل، فأشتري لك بها رجلاً هادياً، رجلاً أعجوبة. منذ بضعة أيام جاءني رجل يعرض نفسه...

فسأله دولتوف:

- من الإقليم؟

وكان يقصد: من المدينة؟

قال الوكيل:

- فهل تفتدي به ابن أخيك؟

- كان يسعدني ذلك لو أستطعت، يعلم الله... ولكن...

فقاطعه أيغور ميخائليوفتش بقسوة قائلاً:

- إسمع أذاً أيها الشيخ: حذار أن يصنع إيليوشا بنفسه شيئاً، وليكن مستعداً على الفور حين أرسل في استدعائه اليوم أو غداً. ستجيء به أنت بنفسك، وإذا حدث له شيء لا سمح الله فستكون المسؤول عن ذلك، فآخذ ابنك الاكبر، هل فهمت؟

- ولكن لا يؤخذ رجل من أسرة ليس فيها إلا اثنان يعملان يا أيغور ميخائيلوفتش!

وأضاف يقول بعد صمت:

- ألا إنه لظلم. يموت أخي جندياً ثم يؤخذ مني ابنه.

وأضاف وهو يكاد يبكي ويوشك أن يجثو راكعاً:

- لماذا ينزل عليَّ هذا الشقاء؟

قال إيجور ميخائيلوفتش:

- هيًّا اذهب. لا حيلة لنا في الأمر. هذا هو النظام. راقب إيليوشكا. أنت مسؤول عنه.

مضى دولتوف الى مسكنه مطرقاً مفكراً يضرب بقدمه حصى الطريق.

- 7 -

فـي سـاعة مبكرة من صبـاح الغد كانت عربة سـفر هـي العربة التي يسـتعملها الوكيل في رحلاته ترابط أمام «جناح» الخدم، وقد شُـدَّ إليها حصان خصي كميت ضخم سُـمِّي باسـم «الطبل»، لا يدري أحد لماذا ! وكانت آنيوتكا، وهي ابنة بوليكاي الكبرى، تقف أمام الحصان حافية القدمين رغم قطرات المطر الثقيلة ورغم الريح الباردة. إنها خائفة خوفاً واضحاً. تمسـك اللجام بإحدى يديها، وباليد الأخرى تشـد إلى رأسها قميصاً أصفر ضارباً الى خضرة تسـتعمله الأسـرة غطاءً ومعطفاً وطاقية وسـجادة ودثاراً لبوليكاي، وتسـتعمله في أغـراض أخرى كثيرة. وكان في «الركن» بلبلة كبيرة، وكان الظلام لا يزال يخيِّم فيه، فأشـعة الصباح لا تكاد تنفذ من النافذة التي ألصق بها ورق هنا وهناك. إن آكولينا ترجئ الآن عنايتها بشـؤون المؤونـة والطبخ والأولاد، والصغـار من الأولاد لمَّـا ينهضـوا بعد، وهم يرتعدون برداً، لان غطاءهم الذي عاد يُسـتعمل ثوبـاً قد حلَّ محلَّه الخمار الرقيق الذي تسـتر به الأم رأسـها. إن آكولينا

مشغولة بإعداد سفر زوجها، قد غسلت قميصه فأصبح نظيفاً، وعكفت علـى جزمتيـه تهتم بهمـا اهتماماً خاصاً مـن فرط ما أصابهمـا من بلى. لقـد خلعت في أول الامر الخفَّين الصوفيين الغليظين اللذين يكسـوان قدميهـا، وهما الخفـان الوحيدان في البيت، فأعطتهمـا إلى زوجها، ثم عمـدت الى غطاء للخيل كان إيلتش قد جاء به الى البيت من الاسـطبل مسـتغلاً ضعف الحراسـة، فاستطاعت أن تقدَّ من الغطاء قطعاً صغيرة تسدُّ بها ثقوب الجزمتين، لتحمي قدمي إيلتش من البلل.

وكان إيلتـش جالسـاً علـى السـرير ماداً قدميـه فوقه، آخـذاً في عقد حزامـه علـى نحو يُخفي أنه حبل قذر. وكانت الصبيـة الماكرة المثغثغة قد أُرسلت الى نيكيتا تستعير منه طاقيته، متلفعةً بجلد من جلود الحمل يعرقـل سـاقيها رغم أنها وضعته على رأسـها. وكان عـدد من الناس قد احتشـدوا في الفنـاء يفاقمون البلبلـة والجلبة، فهذا يريـد من إيلتش ان يشتري له من المدينة إبراً، وهذا يطلب منه أن يجيئه بشاي، وهذا يسأله أن يحمل إليه قليلاً من زيت الخروع، وهذا يكلفه بأن يبتاع له شـيئاً من التبـغ، وامرأة النجار ترجوه أن يشـتري لها سـكراً. وكانت امرأة النجار قد اسـتطاعت أن تشعل السماور، فملأت قدحاً من ذلك الشراب الذي تسميه شـاياً وحملته إليه تملقاً ومداهنة. واذ رفض نيكيتا إعارة طاقيته، فقـد اضطـرت آكولينا أن تصلح طاقية إيلتش فدسَّـت قطـع القطن التي كانت تخرج منها وتتدلى عليها، ثم خاطت الثقوب بابرة بيطري.

ورغـم أن الجزمتين اللتين رُقِّعتا مـن الداخل لم يمكن انتعالهما إلا بكثيـر من العناء، ورغـم أن آنيوتكا التي تجلدت من شـدة البرد فأفلت منهـا «الطبـل» فمضـت تحل محلها ماشـكا متدثـرة بجلـد الحمل، ثم

اضطـرت أن تتـرك الجلد، فخرجت آكولينا بنفسـها لتمسـك «الطبل»، رغم كل ذلك فإن إيلتش قد وضع أخيراً جميع ثياب الاسرة على ظهره لـم يـدع منها إلا قميص النـوم والخفاف البالية، ثم رتَّـب العلف وعاد يتلفف بثيابه مرة أخرى، وشـدَّ الأعنة، ثم ركب العربة ودثَّر نفسه مزيداً من التدثر كما يفعل الجادون الرصينون من الناس، وسار.

وكان صغيـره ميشـكا واقفاً علـى درج الباب، فطلـب أن يركب مع أبيـه، وسـرعان مـا انبـرت ماشـكا المثغثغة تطالـب أن تقوم هـي أيضاً «بدولـة»[1] (دورة) وقالـت إنهـا «ستشـعل بحلٍ ولو مـن غيل معطف» أي(ستشعر بحرٍ ولو من غير معطف)، فاستوقف بوليكاي حصانه وهو يبتسم ابتسـامة وديعة، فأركبت آكولينا ولديها في العربة، وانتهزت هذه الفرصـة فمالت على زوجها لتذكِّره، هامسـةً، بالوعـد الذي قطعه على نفسه وهو أن لا يشرب في الطريق.

مضى بوليكاي بالولدين حتى وصل الى الحداد، وهناك أنزلهما، ثم تدثـر مرةً أخرى، وأغطس قبعته، وأطلق العنان للحصان يجري بالعربة خبباً خفيفـاً مطرداً، فكانت الارتجاجات تُرعـش خديه، وتجعل قدميه يقرعان أرض العربة.

ورجـع ميشـكا وماشـكا الـى البيـت حافييـن، صاعديـن المرتفـع المتزلـج، بالغيـن من سـرعة الركض وحدة الصـراخ أن كلبـاً قادماً من البريـة نظـر إليهما فاذا هو يكفكف ذيله بين سـاقيه فجـأةً ويأخذ يجري الى البيت نابحاً، فكان من شـأن ذلك أن اشـتد صـراخ وريثي بوليكاي مزيداً من الاشتداد.

(1) دولة: المقصود «دورة» ذلك أن ماشكا تلفظ الراء لاماً.

كان الجو رديئاً، فالريح تلسع الوجه لسعاً، وأخذ الثلج تارة، والمطر تارةً أخرى، والملحة تارةً ثالثة، تصفع وجه إيلتش ويديه العاريتين الباردتين اللتين يخفيهما مع المقودين تحت كمي دثاره، وتصفع سيور القوس وتجلد رأس «الطبل» العجوز الذي كان يكفكف أذنيه ويغمض عينيه.

وانقشعت السماء فجأةً الى حين، فظهرت غيوم الثلج البيضاء ظهوراً واضحاً، وهمَّت الشمس أن تنفذ من خلالها، ولكن على تردد وبغير فرح، كابتسامة بوليكاي نفسه. ومع ذلك كان بوليكاي غارقاً في أفكار لذيذة. إنه، هو الذي أريد نفيه، هو الذي هُدِّد بارساله الى الخدمة العسكرية، هو الذي كان الكسول وحده لا يشتمه ولا يضربه، هو الذي كان يُسخَّر في أبشع الأعمال، يوفد الآن لقبض مبلغ من المال، مبلغ ضخم، وتوليه السيدة ثقتها، ويركب عربة الوكيل التي يجرها «الطبل» وتركبها السيدة نفسها، ويمضي كما يمضي ساعي البريد، مستعملاً عدةً من جلد. ونصب بوليكاي جذعه، ودسَّ القطن الذي كان يخرج من طاقيته، وتدثر مزيداً من التدثر. ولكن إذا ظن إيلتش أن هيئته هي الآن هيئة رجل ثري، فقد أخطأ.

إن كل إنسان يعلم حقاً أن تجاراً ممن يملكون عشرة آلاف روبل يركبون عربات لحصانها عدة من جلد. ولكن شتان بين هؤلاء وبين بوليكاي. لقد تبصر رجلاً ذا لحية، مرتدياً قفطاناً أزرق أو أسود، جالساً وحده في عربة يجرها حصان شبعان. ولكن يكفيك أن ترى هل الحصان معتنى به، وهل السائق نفسه شبع، وأن ترى جلسته، وأن ترى كيف شُدَّ الحصان الى العربة، وأن ترى زخارف الحديد في

العربة، حتى تعرف على الفور هل الرجل يتاجر بألوف من الروبلات أو بمئات. إنه ليكفي أيَّ إنسـان خبيـر أن يلقي نظرة واحدة على بوليكاي، وعلـى يديه، ووجهه، ولحيته التـي أرخاها منذ قليل، وحزامه، والعلف المبعثـر في الصنـدوق، و«الطبل» الهزيل، وصفائـح الحديد المهترئة، حتـى يدرك فوراً أن الشـخص الـذي يبصره إنما هو قـن بائس، لا تاجر مـواشٍ، ولا مزارعاً، ولا رجـلاً يحمل حتى عشـرات الروبلات فضلاً عـن مئاتهـا أو ألوفها. غير أن إيلتش كان لا يخطر ذلك بباله، وكان يجد لـذة في خداع نفسـه. إن ما سـوف يحمله فـي جيبه هو ثلاثـة «أنصاف ألـف» روبل. ولو شـاء لوجَّـه «الطبل» الى أوديسـا، ولذهب الى حيث يأذن له الله أن يذهب، بدلاً من العودة الى المنزل. ولكنه لن يفعل هذا. وانما هو سـيرد المال كاملاً غير منقوص، وسـيمضي يقول للسـيدة إنه سبق أن حمل مبالغ أخرى كثيرة.

وحين مرَّ أمام الحانة شـدَّ «الطبل» مقوديه يسـرةً، وتوقف والتفت. ولكـن بوليـكاي، رغم أن معه مالاً هـو المال الذي عُهد بـه إليه لابتياع بعـض الاشـياء، جلد «طبل» بسـوطه، وتابع سـيره. وكذلـك فعل عند الحانة الثانية. حتى إذا كان الظهر نزل من العربة، وفتح بوابة دار التاجر، حيث كان يقف جميع أقنان السيد، وأدخل مركبته، وحلَّ حصانه، وقاده الـى المعلف، ثم تغدى مع عمال التاجـر، ولم يفته أن يذكر لهم غرض رحلته، ثم مضى الى البسـتاني حاملاً رسـالة السـيدة في داخل طاقيته. حتى إذا قرأ البسـتاني الرسـالة – وهو يعرف بوليكاي – أخذ يلقي عليه عدداً من الأسـئلة مرتاباً بعض الارتياب، ليتيقن من أن بوليكاي مكلف بقبض المال فعلاً. فأراد بوليكاي أن يغضب، ولكنه لم يستطع، فلم يزد

على أن ابتسم. وقرأ البستاني الرسالة مرةً أخرى، ثم سلَّمه المال. فما إن استلم بوليكاي المال حتى دسَّه في جيبه، ومضى متجهاً إلى دار التاجر لا تغريه الخمارات ولا الحانات. كان يشعر في كيانه كله بتوتر عصبي لذيذ. وقد توقف عدة مرات أمام المتاجر التي تبيع بضائع مغرية: من أحذية، ومعاطف، وطاقيات، ومنسوجات، ومؤن، فكان في كل مرة لا يلبث أن يبتعد قائلاً لنفسه وهو يشعر بلذة عظيمة: «في وسعي أن أشتري كل شيء، ولكنني لن أفعل». ودخل البازار ليبتاع الأشياء التي كُلِّف بابتياعها. فاشترى كل شيء. وساوم على معطف من جلد الحمل طلب البائع خمسة وعشرين روبلاً ثمناً له. وقد قدَّر البائع من النظر الى هيئة بوليكاي أنه ليس أهلاً لشراء المعطف، ولكن بوليكاي أراه فتحة جيبه وقال له إنه يستطيع أن يشتري دكانه كلها اذا أراد، وأصرَّ على تجريب المعطف، فلما لبسه أخذ يجسه ويحكه، وينفخ على زغبه، حتى لقد شمَّه، ثم خلعه متنهداً وقال إن السعر لا يناسبه، وسأل البائع: «هل تبيعه بخمسة عشر روبلاً؟». فما كان من البائع إلا أن رمى المعطف على البسطة حانقاً. وخرج بوليكاي، ومضى إلى الدار فائض النفس فرحاً. حتى إذا تعشى، وقدَّم للحصان علفه، ارتقى سطح المدفأة، واستل الظرف، وكان قد طلب إلى حوذي يعرف القراءة أن يقرأ له ما هو مكتوب على الظرف: «في طيه ألف وستمائة وسبعة عشر روبلاً ورقاً». إن الظرف مصنوع من ورق عادي، وقد خُتم بشمع رمادي في خمسة مواضع: أطرافه الأربعة ووسطه، والخاتم يمثل مرساةً، فأما في الأطراف فالمرساة صغيرة، وأما في الوسط فهي كبيرة، وفي جانب من الجوانب قطرة من شمع. فحص ايلتش كل شيء، وحفظ الكتابة على

ظهر القلب، حتى لقد تحسَّــس بأصابعه أطراف الأوراق النقدية. فكان يشــعر بفرح كفرح الاطفال، حين يتصور أن بين يديه مبلغاً ضخماً هذه الضخامة. ودسَّ الظرف في بطانة طاقيته، وأحكم أغطاس الطاقية على رأســه ونام. ولكنه حتى في الليل، اســتيقظ من نومه مراراً، فكان يجس الظرف، حتى إذا أحس به في مكانه، أبهجه أشد الإبهاج أن يقول لنفسه انه - هو بوليكاي، المذَلّ، المهان - يحمل هذا المبلغ الضخم كله وانه سيسلِّمه الى مولاته سليماً كل السلامة، كالوكيل نفسه بل يزيد.

- 8 -

فـي نحـو منتصف الليـل، استيقظ عمـال التاجـر وبوليـكاي على ضجة طـرق باب الدار وأصـوات نداء فلاحين. لقـد وصل المجندون المرسـلون مـن بوكروفسـكايا. ان الرجـال عشـرة: خوريوشـكين، وميتيوشـكين، وايليـا (ابن أخي دولتـوف)، وبديلان، ورئيـس القرية، والعجـوز دولتـوف، وفلاحون يقودون العربات. كان القنديل مشـتعلاً فـي الكوخ. وكانـت الطباخـة نائمة على الدكـة تحت الأيقونـات، فها هي ذي تثب من مضجعها وتُشـعل الشـمعة. واسـتيقظ بوليكاي أيضاً، فدلّـى رأسـه من فـوق سـطح المدفأة، وأخـذ ينظر الـى الفلاحين وهم يدخلون. رسـم الجميع إشـارة الصليب، وجلسـوا على الدكك. كانوا كلهـم هادئين، حتى ليصعب على المرء أن يعرف مَنْ منهم المجندون، وقـد حيُّوا وتكلموا وطلبوا أن يأكلوا. ولئـن كان بعضهم صامتاً حزيناً، لقد كان الآخرون مرخين مرحاً طافحاً. واضح أنهم كانوا ثملين. وكان إيليا واحداً من الثملين، هو الذي لم يشرب قبل اليوم قط.

قال رئيس القرية يسأل:

- ماذا يا أولاد؟ أتريدون أن تتعشوا، أم تؤثرون أن تناموا؟

فأجابه ايليا وهو يحرك فروته ويجلس على الدكة:

- بل نريد أن نتعشى. أرسل من يأتينا بخمرة.

قال رئيس القرية بإهمال:

- لا، لا خمرة.

وأردف يقول مخاطباً الآخرين:

- فلنأكل خبزاً يا أولاد. لا داعي الى ايقاظ الناس من نومهم! فانبرى إيليا يقول من دون أن ينظر الى أحد:

- بل هات خمرة!

وكان واضحاً من لهجته أنه لن يهدأ.

وعمل الفلاحون بنصيحة رئيس القرية، فتناولوا من عربة الأحمال خبزاً، وجعلوا يأكلون، ثم طلبوا شيئاً من شراب الكفاس ورقدوا، بعض على الارض، وبعض على سطح المدفأة. وكان إيليا لا ينفك يردِّد بين الفينة والفينة:

- هات خمرة، أقول لك. هات خمرة!

وفجأةً أبصر بوليكاي. فصاح يقول:

- هيه! ايلتش! ايلتش! هذا أنت يا صديقي؟ أنا ذاهب جندياً! ودَّعت أمي وزوجتي... آه... ما أشد ما أعولت! لقد جُنِّدت! هلاَّ دفعت عني ثمن شيء من خمرة!

قال بوليكاي:

- ليس معي مال. كان الله في عونك.

وأضاف محاولاً أن يواسيه:

- لا يزال يمكن اعفاؤك.

- لا، لا يا عزيزي. أنا قوي كشجرة سندر. لم يصبني مرض في يوم من الأيام. فكيف يمكن أن أُعفى؟ ولكن ما حاجة القيصر الى أقوى الناس جنداً؟

فأخذ بوليكاي يروي أن فلاحاً نفح الطبيب ورقة زرقاء، فاستطاع بهذه الوسيلة أن يحصل على إعفاء.

واقترب إيليا من المدفأة، وطفق يثرثر ثرثرة غزيرة.

- لا يا إيلتش! انتهى الآن كل شيء. وأنا نفسي لا أريد أن أبقى. إن عمي هو السبب. ألم يكن في وسعه أن يشتري بديلاً؟ لا، هو لا يحب إلا ابنه وماله. وها قد أُرسلت أنا... والآن أنا نفسي لا أريد البقاء.

كان إيليا يتكلم برفق، وكانت لهجته لهجة بوحٍ يلهمها حزن رقيق وأسى هادئ.

واصل كلامه يقول:

- الشخص الوحيد الذي آسف عليه انما هو أمي. ما كان أشد كربها وكمدها، تلك المسكينة! وامرأتي أيضاً!... هكذا، من دون سبب، تضيع امرأة. هي الآن امرأة ضائعة. زوجة جندي، لا أكثر. كان الأفضل أن لا أتزوج. لماذا زوَّجني؟ غداً يأتين...

سأله بوليكاي:

- ولكن لماذا أُخذتم هكذا فجأة. قبل وقت قصير لم نسمع بشيء، وبغتةً...

قال إيليا مبتسماً:

- تصور أنهم يخشون أن أصنع بنفسي شيئاً. لا، لا خطر! لن أصنع بنفسي شيئاً، ليست الجندية هلاكاً على كل حال. ولكنني أرثي لحال أمي. لماذا زوجوني؟

كذلك قال إيليا بلهجة فيها رفق وحزن.

وفُتح الباب بغتةً، فدخل دولتوف منتعلاً حذاءيه المصنوعين من مجدول الليف، فكانت قدماه أشبه بقاربين، وكان يهز طاقيته. قال يسأل الحوذي وهو يرسم إشارة الصليب:

- آفانازي! أليس عندك فانوس؟ أريد أن أقدم للأفراس شوفاناً.

لم ينظر دولتوف الى إيليا، ومال على شمعة صغيرة يشعلها بهدوء. لقد علّق قفازيه وسوطه بحزامه، وعُني بعقد أزرار معطفه أحسن العناية، كأنه تاجر قادم ببضاعة. وكان على عادته هادئ المظهر ساكناً ينم وجهه عن المعهود فيه من أنه رجل يعكف على عمله ويغرق فيه جاداً كل الجد.

صمت إيليا حين رأى عمه، ونظر إلى جهة الدكّة مكفهر الهيئة، ثم أخذ يتكلم مخاطباً رئيس القرية.

- هات خمرةً يا إرميل! أريد أن أشرب خمرة!

وكان في صوته شر وقتامة.

أجابه رئيس القرية وهو يشرب من فنجان:

- أين لنا بالخمرة الآن! لقد أكل الرجال وناموا، كما ترى. فلماذا تحدث هذه الجلبة كلها؟

فما إن سمع إيليوشا رئيس القرية يصفه بأنه «يحدث جلبة» حتى حضّه ذلك على إحداث جلبة فعلاً، فهتف يقول:

- يا حضرة الستاروست (رئيس القرية)! إن لم تعطني خمرة فلأنزلنَّ مصيبة !

فقال رئيس القرية للشيخ دولتوف الذي كان قد أشعل فانوسه، ولكنه توقف ليصغي الى ما يجري:

- ردَّه الى الصواب.

فألقى دولتوف على ابن أخيه نظرة فيها شفقة ورحمة، وكأنه مدهوش من هذا التصرف الذي يشبه أن يكون تصرف طفل. فعاد إيليا يقول مرةً أخرى وهو يخفض رأسه:

- هات خمرةً والا أنزلت مصيبة !

قال الستاروست (رئيس القرية) في رفق:

- كفى يا إيليا! أقصرْ، فذلك خير لك !

ولكن ما إن أنهى الستاروست كلماته هذه حتى وثب إيليا من مكانه، ولطم زجاج النافذة بقبضة يده فحطمه، وصرخ قائلاً:

- لا تريدون أن تطيعوني خذوا إذاً...

وهجم على النافذة الأخرى ليحطمها.

فما كان من بوليكاي الا أن دار حول نفسه مرتين، ثم اندس في الزاوية بين الجدار والمدفأة، مثيراً الرعب بين الصراصير. ورمى الستاروست ملعقته وخفَّ الى إيليا. ووضع دولتوف فانوسه على الارض بهدوء، ونزع حزامه، وصفق بلسانه، وهزَّ رأسه، وتقدم من إيليا يحاول أن يعاون الستاروست والبواب في صده عن النافذة لقد أمسك الرجلان يدي إيليا، وقبضا عليه قبضاً قوياً ولكن إيليا ما إن أبصر عمه حتى اشتدت قوته وتضاعفت، فاذا هو يتملص من أيدي القابضين

عليه، ثم إذا هو يتقدم من دولتوف رافعاً عينيه، شاداً قبضتيه، قائلاً:

- لسوف أقتلك. حذار أن تقترب أيها الوحش! أنت الذي ضيَّعتني... أنت وابناك الحقيران! لماذا زوجتموني؟ لا تقترب، والا قتلتك!

كان منظر إيليوشا رهيباً. لقد احمر وجهه احمراراً شديداً، وزاغ بصره، وأخذ جسمه الفتي كله يرتعش ارتعاش حُمّى. كان يبدو عليه أنه يريد ويستطيع أن يقتل الفلاحين الثلاثة الذين يحدقون به.

- إنك تشرب دم أخيك يا علقة !

ارتعش شيء في وجه دولتوف الذي لا يفارقه الهدوء. وتقدم الى الأمام خطوة. وقال فجأة:

- رفضتَ أن تُعامل بالحسنى، فاليك ما تستحق أن تعامل به...

قال ذلك وقبض على ابن أخيه بقوة مذهلة لا يدري من أين جاءته، وارتمى معه على الأرض بحركة سريعة، وأخذ يوثق يديه بمعاونة الستاروست. دامت المعركة زهاء خمس دقائق، نهض دولتوف بعدها بمساعدة الفلاحين الآخرين، وأقصى يدي إيليا عن فروته التي تشبث بها الشاب تشبثاً قوياً، ثم انهض إيليا موثق اليدين وراء ظهره، وأجلسه على دكة في ركن. وقال لاهثاً من عناء المعركة وهو يعيد شدَّ الحزام حول قميصه:

- قلت لك إن الحال ستسوء إذا أنت لم تثب الى رشدك. لماذا تأثم هذا الإثم؟

وأضاف يقول مخاطباً البواب:

- ضع الدثار تحت رأسه، وإلا فقد يصاب باحتقان.

وخرج يتفقد الأفراس حاملاً فانوسه، عاقداً على خصره حبلاً بمثابة حزام.

وكان إيليا يجيل بصره في الغرفة منفوش الشعر مصفرَّ الوجه مشعَّت القميص، كأنه يحاول أن يتذكر أين هو! وجعل البواب يلمُّ حطام الزجاج، وأخذ يسدُّ النافذة بفروة ليمنع هبوب الريح في الغرفة. وعاد الستاروست يجلس أمام فنجانه.

– إيه... إيليوشكا، إيليوشكا! إني لأشفق عليك وأرثي لك حقاً. ولكن ما حيلتنا؟ إن خوريوشكين متزوج أيضاً... إنه الحظ طبعاً!

فقال إيليا مكرراً ما سبق أن قاله:

– بل هو ذنب عمي، عمي الوغد. إنه يضنّ بماله... قالت أمي إن الوكيل نصحه بشراء بديل. ولكنه رفض زاعماً أنه لا يملك مالاً. ألم نجن للبيت شيئاً أنا وأخي؟ إن عمي وبش!

وعاد دولتوف الى الكوخ، فخلع ثيابه، وجلس بقرب الستاروست. فحملت إليه الخادمة شيئاً من «الكفاس»، وملعقة. وصمت إيليا، وأغمض عينيه، وتمدد على الدثار. فأشار الستاروست لعمه إليه صامتاً وهو يهز رأسه حسرة، فأجرى دولتوف يده بحركة تعبر عن التململ، وقال للستاروست:

– أتظن أنني لا أشفق عليه؟ إنه ابن أخي، ابن أخي. وكانما لم يكفني ما أنا فيه من ألم لحاله، فاذا هم يصوّرونني له في صورة رجل دنيء حقير. لقد ألقتَ امرأته في روعه – لا أدري كيف، فهي امرأة ماكرة رغم أنها صغيرة السن – أننا نملك مالاً وفيراً، وأن في وسعنا أن نشتري بديلاً. وها هو ذا يصب عليَّ ألوان اللوم. خسارة! فتى مثله...

قال الستاروست:

- هو فتى طيب حقاً !

- ولكنني لا أقدر أن أردَّه الى الصواب. سأرسل غداً إغناتي. وامرأته تريد أن تجيء أيضاً.

قال الستاروست وهو ينهض ويرتقي سطح المدفأة:

- حسناً تفعل. أرسلهما. ما قيمة المال؟ المال غبار!

قال أحد عمال التاجر وهو يُنهِض رأسه:

- هل يضن المرء بالمال اذا كان يملك مالاً؟

قال دولتوف:

- آ... المال ! المال ! إنه علة كثير من الآثام. لا شيء كالمال يبعث على ارتكاب الآثام ذُكر ذلك حتى في الكتاب المقدس.

قال البواب:

- صحيح كل الصحة. حدثني رجل عن تاجر فقال إنه كنز مالاً كثيراً وكان لا يريد أن ينفق شيئاً، وبلغ من حبه المال أنه أراد أن يأخذه معه الى القبر. فلما جاءه الموت، كان كل ما طلبه هو أن توضع وسادته في تابوته. فوضعوا له الوسادة في التابوت. وأسرع أبناؤه بعد دفنه يبحثون عن المال، فلم يعثروا له على أثر. فقدَّر أحد أبنائه أن المال لا بد في الوسادة التي طلب الأب وضعها في التابوت. ووصل النبأ الى الامبراطور، فأذن بفتح التابوت. فهل تعرف ماذا وجدوا؟ لقد فتقوا المخدة، فلم يعثروا فيها على شيء ولكن التابوت كان يعج بالقمل، فأعادوا دفنه. ذلك ما يصنعه المال !

- معروف، معروف. ما أكثر ما يرتكب المال من آثام !

نهض دولتوف وأخذ يصلّي. فلما فرغ من صلاته نظر الى ابن أخيه. كان إيليـا نائماً. فاقترب دولتوف منـه، وحلَّ وثاقه قليلاً، ورقد. ومضى الفلاح الآخر ينام في الاسطبل.

- 9 -

حين ساد الهدوء من جديد نزل بوليكاي عن سطح المدفأة متسللاً كمجرم، وارتدى ثيابه. إنه لا يعلم لماذا كان خائفاً من قضاء الليلة مع المجندين. وكانت الديكة قد أخذت تصيح من حين الى حين، وكان «الطبل» قد أكل الشوفان كله وجعل يبحث عن ماء يشربه. قرن إيلتش الحصان الى العربة، وقاده الى حيث كانت عربة النقل التي جاء بها الفلاحون. إن الطاقية وما تحتويه سليمة لم يمسسها سوء. وأخذت عجلات العربة الصغيرة تقرقع من جديد على الطريق المتجلد المؤدي الى بروكوفسكويا. شعر بوليكاي بارتياح حين خرج من المدينة. كان يتراءى له قبل ذلك دائماً أن هناك أحداً يحاول أن يطارده، ويخيَّل اليه في بعض الأحيان أنه استوقف وقُبض عليه، وأنه هو الذي يُساق الى مكتب التجنيد موثق اليدين وراء ظهره بدلاً من إيليا. وكانت قشعريرة تسري في ظهره أحياناً، من البرد تارة ومن الخوف تارةً اخرى. فكان يستحث الحصان. وكان أول شخص لقيه في طريقه كاهناً يضع على

رأسه قلنسوة عالية مما يُدثَّر به الرأس في الشتاء، وكان يرافق الكاهن عامل أعور، فأحس بوليكاي بضيق. ولكن خوفه تبدد شيئاً فشيئاً بعد خروجه من المدينة. كان الحصان يسير على مهل. ووضح الطريق. خلع بوليكاي طاقيته وتحسس المال. تساءل: أأضعه في جيبي؟ يجب اذاً أن أنزع حزامي. طيب. سأنزل هناك، فأدبر أمري. ولكن بطانة الطاقية مخيطة خياطة متينة في أعلى وفي أسفل، فلن ينزلق المال. فلن أخلع الطاقية الى أن أصل».

وحين وصلت العربة الى المنحدر أخذ الحصان يجري خبباً من تلقاء نفسه، واذ كان بوليكاي حريصاً على الوصول بأقصى سرعة كحرص الحصان نفسه، فانه لم يصدَّ الحصان عن الجري. كان كل شيء كما يجب أن يكون، أو هذا ما كان يتخيله بوليكاي. واسترسل بوليكاي في الأحلام: تصور امتنان مولاته التي ستنفحه خمسة روبلات، وفرحة أسرته.

وخلع طاقيته، وتحسس الظرف مرة أخرى، وغطس الطاقية في رأسه بمزيد من الإحكام، وابتسم.

إن النسيج المخملي الذي صُنعت منه طاقية بوليكاي كان مهترئاً ولأن آكولينا قد خاطته خياطة محكمة في الموضع الممزق من الطاقية بالامس، فقد تمزق النسيج في موضع آخر. وبالحركة التي أجراها بوليكاي حين خلع طاقيته في الظلام يريد أن يدس الظرف في القطن دساً أعمق، فقد تمزقت الطاقية، فخرج منها طرف من الظرف.

وقد غفا بوليكاي في الصباح بعد أن لم يغمض له جفن طوال الليل. وأغطس طاقيته في رأسه فخرج الظرف مزيداً من الخروج. وكان رأس

بوليكاي في أثنـاء نومه يصطدم بحافة العربة طـوال الطريق. فلما صار قريبـاً من المنزل استيقظ من سـباته، فكانت أول حركة قـام بها هي أنه أمسـك طاقيته، فلاحظ أنها غاطسـة في رأسه غطسـاً متيناً محكماً، فلم يخلعهـا، مقتنعـاً بأن المـال موجود فيها. واسـتحث الحصـان، ورتَّب العلـف وعـاد يصطنع هيئـة الوقـار والأبهة، واتجـه نحو المنـزل وهو يلقـي علـى ما حوله نظرات تفيـض رصانة. هذا هـو المطبخ، وهذا هو «الجناح»، وهذه امرأة النجار تحمل نسيجاً، وهذا مكتب الوكيل، وهذا منزل الأسياد، الذي سيبرهن فيه بوليكاي بعد قليل على أنه رجل شريف أميـن «يمكن أن يتقوَّل عليه الناس بما يشـاؤون». وسـتقول له السـيدة «شـكراً يا بوليكاي... خذ، هذه ثلاثة روبلات لك...»، وربما خمسـة، بل ربما عشـرة. وقد تأمر له بشـاي، وقد تأمر له بخمرة. وسيُحسـن اليه شـرب الشـاي أو الخمـرة فـي هذا الجـو البـارد. وبالروبلات العشـرة سنتسـلى كثيـراً في العيد. سأشـتري جزمتين، وسـأردُّ الـى نيكيتا دينه، أربعة روبلات ونصفاً، بعد أن طالت لجاجته في المطالبة.

وعلى مسـافة مائة خطوة من الدار ضرب بوليكاي الحصان بسوطه مرةً أخرى، وعدل حزامه وياقته، ونزع طاقيته عن رأسـه، ومسَّد شعره. ومن دون تعجل دسَّ يده تحت بطانة الطاقية.

أخذت يده تتحرك في الطاقية بسرعة ما تنفك تشتد. وها هو ذا يدس اليـد الأخرى، ويصفر... ويصفر! وخرجت إحدى اليدين من شـق في الطاقيـة. فجثا بوليكاي على ركبتيه، وأوقف الحصان، وأخذ يبحث في العربة، وينبش العلف ويفتش بين المشـتريات، ويجس جيبه وبنطلونه. فلم يعثر على الظرف في أي مكان...

فإذا هو يعول قائلاً وهو يشد شعر رأسه:

- يا إلهي! ما هذا؟ ما عسى يحدث؟

لكنه وقد تذكر فجأة أن أحداً قد يراه، أجبر الحصان على أن يعود أدراجه، وغطس طاقيته في رأسه واندفع بالعربة في الطريق جرياً سريعاً، على دهشة من الحصان واستياء.

لا بد أن «الطبل» قال لنفسه: «انني أكره أن أسافر مع بوليكاي. مرةً في حياته أطعمني وسقاني، ثم اذا هو يغدر بي ويذيقني سوء العذاب. لقد جريت الى الدار باقصى سرعة أطيقها، فأخذ مني الإعياء كل مأخذ، ثم لم أكد أشمُّ رائحة العلف حتى قفل بي راجعاً».

وكان بوليكاي يصرخ قائلاً من خلال الدموع، واقفاً في العربة، شاداً شكيمة الحصان، هاوياً عليه بضربات من سوطه:

- يالحصان النحس!

- 10 -

لــم ير أحد بوليكاي طوال ذلك النهار. لقد ســألت عنه الســيدة عدة مرات بعد الغداء، وهرعت آكسيوتكا الى آكولينا مستطلعةً أنباءه. ولكن آكولينــا كانــت تقول إنه لم يرجــع، فلا بد أن يكون التاجـر قد احتجزه، أو أن يكــون قــد وقع للحصان حــادث، «فلعل الحصان قــد أخذ يعرج فجــأة. فقد حدث هذا في المـرة الأخيرة، فغاب مكسـيم نهاراً بكامله، وقطع الطريق كله سيراً على قدميه». فكانت آكسيوتكا تقفل راجعةً الى البيت مؤرجحةً ذراعيها. كانت آكولينا تختلق لنفســها أسباباً تفسر تأخر زوجهــا، وتحاول أن تطمئن نفســها مـرةً بعد مرة، فلا تفلـح. كان قلبها حزيناً. ولـم يستطع أي استعداد من استعدادات الاحتفال بالعيد في الغد أن يرسم على شـفتيها ابتسامة. وكان يزيد عذابها أن امرأة النجار كانت تؤكـد حازمــةً أنها رأت بعينها «رجلاً يشـبه إيلتش كل الشـبه وصل من الشارع الكبير، ثم أدار الزمام وقفل راجعاً».

وكان الأولاد لا يقلُّـون عن أمهم نفاد صبرٍ على تأخر أبيهم، ولكن

لسببٍ آخر هو أن آنيوتكا وماشكا قد حُرمتا من الفروة والمعطف اللذين كانا يتيحان لهما أن تخرجا الى الشارع، واحدةً بعد أخرى على الأقل، فكانتا بسبب تأخر الأب مضطرتين الى البقاء في البيت لا يكسوهما إلا قميص، وكانتا مضطرتين الى الدوران في البيت بسرعة مضاعفة تزعج سكان الجناح الذين كانوا في دخول وخروج متصلين. وقد وقعت ماشكا ذات مرةٍ على ساقي امرأة النجار التي كانت تحمل ماءً، ورغم أنها بادرت الى البكاء والعويل سلفاً وهي تجثو على ركبتيها، فإن امرأة النجار كالت لها صفعةً قوية، فأخذت تبكي بكاء أقوى وتعول إعوالاً أشد. وكانت ماشكا، إذا هي لم تصطدم بأحد، تعتلي سطح المدفأة مرتقيةً على السطل.

الحق أن السيدة وآكولينا كانتا الشخصين الوحيدين اللذين يشعران بقلق كبير على بوليكاي نفسه، أما الأولاد فكان لا يهمهم من أمره الا ما كان يرتديه من ألبسة هم اليها في حاجة. وفي اللقاء الذي تمَّ بين إيجور ميخائيلوفتش، سألته السيدة ألم يرجع بوليكاي، وأين عساه يكون، ابتسم وقال: «لا أستطيع أن أعرف»، ولكن كان واضحاً أنه سعيد بأن ما وقع قد جاء مصدقاً لافتراضاته. وقال أخيراً في وقار: «لعله يأتي حين يحل موعد العشاء».

لم يعرف أحد من أهل بوكروفسكويا شيئاً عن بوليكاي طوال النهار. وبعد ذلك فقط إنما علم الناس أن فلاحين من القرى المجاورة رأوه يجري بالعربة على الطريق خبباً بغير طاقية، ويسأل جميع المارة «هل وقع بصر أحدٍ منهم على الرسالة؟». وقال فلاح آخر إنه أبصره فَي العربة غافياً عند حافة الطريق بقرب الحصان الذي كان مقروناً

الـى العربة، وأضاف قولـه: «لقد ظننت أنه كان ثمـلاً، وأن الحصان لم يـأكل ولـم يشـرب منـذ يومين، من فرط مـا كنت أرى مـن هزاله وبروز أضلاعه!».

لم تنـم آكولينا طوال الليل، وكانت لا تني تتسـمَّع وتتنصت. ولكن مضـى الليل كلـه ولم يرجع بوليـكاي. ولو كانت وحيدةً فـي الغرفة أو كان لها طباخة وخادمة، لكانت من ذلك أشـقى وأشـد عذاباً. ولكن ما إن صـاح الديك صيحتـه الثالثة، فنهضت امرأة النجـار، حتى اضطرت آكولينـا إلـى اخـراج الخبز قبـل طلـوع النهـار، ولا بد لها مـن تحضير الخميـرة، وإعـداد قـرص الحلـوى، وحلـب البقـرة، وكـيِّ القمصان، وإيقاظ الأولاد، وحمل الماء، ويجب أن لا تسـمح لجارة من الجارات بشعل الموقد كله.

فأخـذت آكولينـا تعمل مـن دون أن تكـف عن التسـمع والتنصت. وطلـع النهار، وأخذت أجراس الكنائس تـدق، ونهض الأولاد، ولكن بوليـكاي لمَّا يصـل بعد. ولقد كان بالأمس صقيـع وجليد، وكان الثلج يغطـي الحقـول والطريـق والأسـطح على تفـاوت، أمـا اليـوم فكأنما تعمـدت الطبيعة، احتفالاً بالعيد، أن يكون النهار جميلاً مشمسـاً بارداً، فيسـتطيع المرء أن يرى وأن يسـمع من بعيد. ولكـن آكولينا التي كانت قريبة من المدفأة، داسَّـة رأسـها فـي التنور، قد بلغت مـن الانهماك في إعـداد قـرص الحلوى أنها لم تسمع دخـول بوليكاي، ولـم تعرف أن زوجها قد عاد إلا من سماعها صراخ الأولاد.

كانـت آنيوتكا، وهي الكبرى، تدهن رأسـها وترتدي ثيابها وحدها. إنهـا تملك اليوم فسـتاناً جديداً من قطن وردي اللـون، مهترئاً قليلاً، قد

أهدته إليها السيدة، فهو يثير غيرة الجيران وحسدهم. إن شعرها أملس. وقد أذابت حتى الآن نصف قطعة الشمعة. وحذاءاها غير جديرين، لكنهما رقيقان ناعمان.

أما ماشكا فكانت لا تزال لابسةً قميص النوم، وهي متسخة، لذلك كانت ماشكا لا تسمح لها أن تدنو منها كثيراً مخافة أن توسخها. ولقد كانت ماشكا في فناء الدار حين وصل الأب حاملاً صرة. فصاحت تقول: «حضل بابا» (حضر بابا)، واندفعت تفتح الباب وتقف أمام آنيوتكا فتوسخها. غضبت آنيوتكا وأخذت تضرب ماشكا. ولكن آكولينا كانت لا تستطيع أن تترك عملها. فكانت تكتفي بأن تصيح بالأولاد قائلة: «كفى، لسوف أجلدكم جميعاً»، وتنظر الى الباب. دخل إيلتش في الدهليز حاملاً صرته، ومضى الى ركنه قُدماً لا يلوي على شيء. ولاحظت آكولينا أنه شاحب اللون، وأن وجهه يشبه أن يدل على أنه بكى، أو على أنه يبتسم. ولكن وقتها لم يتسع للانتباه الى هذا كله.

سألته وهي لا تزال بقرب الموقد:

- ماذا يا إيلتش؟ هل جرى كل شيء على خير حال؟

فدمدم إيلتش بكلام لم تفهمه. فصاحت تسأله:

- هيه؟ هل ذهبت الى السيدة؟

كان إيلتش قد جلس على السرير، وأخذ يجيل على ما حوله نظرة زائغة ويبتسم ابتسامته تلك التي تنم عن الذنب وقد ظهر في وجهه كرب شديد وشقاء عميق. فسألته آكولينا مرةً أخرى:

- ماذا يا إيلتش؟ لماذا غبت هذه المدة الطويلة كلها.

قال إيلتش فجأة:

سلَّمت المال الى السيدة يا آكولينا، فشكرتني شكراً عظيماً.

وظل ينظر إلى ما حوله بمزيد من القلق وهو يبتسم تلك الابتسامة نفسها، وكان شيئان يجتذبان عينيه القلقتين اللتين اتسعتا من الحمَّى: الحبل المشدود الى مهد الطفل، والطفل نفسه.

وها هو ذا يقترب من المهد، ويأخذ يحلُّ الحبل بأصابعه الهزيلة مسرعاً، ثم تتلبث عيناه على الطفل. وإنه كذلك اذا بزوجته آكولينا تدخل الركن حاملة قرص الحلوى على دف، فيسارع الى إخفاء الحبل في جيبه ويعود يجلس على السرير.

قالت آكولينا:

- ماذا يا إيلتش؟ ان وجهك أشبه بوجه مريض!

فأجاب قائلاً:

- لم أنم !

وفي تلك اللحظة مرَّ شيء أمام النافذة على حين فجأة، ثم إذا بخادمة السيدة، أكسيوتكا، تدهم الغرفة مسرعةً كالسهم وتقول:

- السيدة تأمر بوليكاي إيلتش أن يجيء اليها حالاً. آفدوتيا نيكولايفنا أمرت بمجيئه حالاً.

نظر بوليكاي الى آكولينا، ثم نظر الى الصبية، ثم قال بلهجة تبلغ من البساطة أن آكولينا اطمأنت كل الاطمئنان:

- سأجيء حالاً. ماذا أيضاً

وحدثت آكولينا نفسها بقولها: «لعلها تريد أن تكافئه».

وعاد بوليكاي يقول للخادمة:

- قولي للسيدة إني آتٍ إليها حالاً.

ثـم نهض وخـرج، فتناولت آكولينا طشـتاً كان موضوعـاً على دكة، فسـكبت فيه ماءً من دلو، وأضافت ماءً سـاخناً من قدر كان على الموقد وشمرت كمَّيها، واختبرت حرارة الماء بيديها ثم قالت تنادي ماشكا:

- تعالي يا ماشكا! سوف أغسلك.

فأخذت البنت الثأثاءة الصخابة تصرخ، فقالت لها أمها:

- تعالي يا زعَّاقة! سوف ألبسك قميصاً نظيفاً! تعالي! كفى مشاكل! تعالي! يجب عليَّ أن أغسل أختك أيضاً.

فـي أثناء ذلك الوقـت، كان بوليكاي لا يسـير وراء الخادمة ليذهب الـى السـيدة، وإنما كان يتجه الـى مكان آخر يختلف عن مكان السـيدة كل الاختلاف.

إن فـي الدهليز بقرب الجدار سـلماً قائماً يفضي الى السـقيفة، فلما وصـل بوليـكاي الى الدهليز نظر في ما حوله، حتـى إذا لم يبصر أحداً، جعل يتسلق السلم منحنياً خفيفاً رشيقاً سريعاً كأنه يركض ركضاً.

قالت السيدة لنفسها قلقة: «ما معنى هذا؟ لماذا لا يجيء؟».

ثم سألت دونياشا التي كانت تلبسها قبعتها:

- أين بوليكاي؟ ما باله لا يأتي؟

وهرعت آكسـيوتكا الى جناح الخدم مرة أخـرى، ودهمت الدهليز كالصاعقة من جديد، وطلبت أن يجيء إيلتش الى السيدة فوراً.

أجابت آكولينا:

- لكنه ذهب منذ مدة طويلة!

كانت آكولينا قد فرغت من غسـل ماشـكا، وأغطسـت في الطشـت رضيعها تغسـل شعراته القليلة الصغيرة رغم صراخه. كان الطفل يصرخ،

ويجعِّد وجهه، ويحاول أن يمسك شيئاً ما بيديه الضعيفتين الصغيرتين. فكانت آكولينا تسند بإحدى يديها حقويه الصغيرتين الربيلين المليئين بالغمازات، وتغسله باليد الأخرى، فأضافت تقول للخادمة وهي تنظر في ما حولها قلقة:

- روحي انظري فلعله غفا في مكان ما؟

في تلك اللحظة كانت امرأة النجار التي لم تسرح شعرها بعد، والتي كان صدارها مفتوحاً وكانت شامرةً تنورتها، تصعد الى السقيفة لتأخذ منها ثوبها الذي نشرته هنالك ليجف. فإذا بصرخة ذعر رهيب تنطلق على حين فجأة بالسقيفة، وإذا امرأة النجار تتدحرج على درجات السلم متقهقرةً الى وراء كالمجنونة مغمضة العينين، وتصيح حين وصلت الى الارض:

- إيليتش !

فتركت آكولينا الطفل.

وزعقت امرأة النجار تقول: «شنق نفسه».

هرعت آكولينا الى الدهليز من دونٍ أن تلاحظ أن الطفل كان يغوص في الماء كما تغوص كبة غزل منكّس الرأس.

قالت امرأة النجار حين أبصرت آكولينا.

- شنق نفسه على العارضة.

فاندفعت آكولينا تصعد السلم. وقبل أن يستطيع أحد أن يسندها تدحرجت وهي تطلق صرخة رهيبة وقد أصبحت أشبه بجثة هامدة، فلولا أن عدداً من الناس هرعوا من كل جهة فاستطاعوا أن يتلقوها لكان يمكن أن تموت.

- 11 -

كان يستحيل على المرء خلال بضع دقائق أن يميِّز شيئاً في هذه البلبلة الشاملة التي عمَّت كل شيء. لقد تجمهر الناس فكلهم يتكلمون ويصرخون في آن واحد. والأطفال والعجائز يبكون. وآكولينا مغشيّ عليها. وأخيراً صعد عدد من الرجال بينهم النجار والوكيل اللذان هرعا بين من هرعوا، فصعدا الى السقيفة. وكانت امرأة النجار تقص للمرة العشرين كيف أنها «من دون أن تفكر في شيء» قد صعدت الى السقيفة لتأتي بثوبها فنظرت عرضاً فإذا هي ترى رجلاً: «نظرتُ الى رأسه فاذا الطاقية منقلبة على الأرض وراءه ونظرت الى قدميه فرأيتهما تتأرجحان! ا سرتْ قشعريرة في جسمي. أهذا ممكن؟ رجل شنق نفسه، فهل يجب أن أرى أنا هذا؟ وحين نزلت الى تحت كنت لا أكاد أذكر نفسي. انها لمعجزة من الله أنه نجاني. حقاً إن الله حماني! ما كان أعلى السقيفة! كان يمكن أن أموت فوراً».

وكان الرجال الذي يصعدون الى السقيفة يحكون هذا الشيء نفسه.

كان إيلتش لا يكسوه الا قميص ولباس، وكان مشنوقاً على عارضة بالحبل الذي حله عن المهد. كانت طاقيته قد سقطت على الارض. وكان قد خلع المعطف والفروة وطواهما ووضعهما في جانب. وكانت ساقاه المتدليتان تلمسان الأرض لمساً خفيفاً. وكانت هيئته كلها تدل على أنه فارق الحياة. وأفاقت آكولينا من غيبوبتها، فأرادت أن تصعد السلم مرة أخرى ولكن حيل بينها وبين ذلك. وفجأة قالت البنت الثأثاءة من أقصى الركن صارخة:

- أمي! غرق سيومكا!

فاندفعت آكولينا الى الركن. كان الطفل راقداً على ظهره في قاع الطشت جامداً ساكن الساقين. فأسرعت آكولينا ترفعه ولكن الطفل كان قد انقطع تنفسه، وكان هامداً لا حراك فيه، فرمته آكولينا على الفراش، وأسندت يديها على حافة السرير، وانفجرت تضحك ضحكاً بلغ من القوة ومن شدة ما يثيره من الذعر أن ماشكا التي أخذت في أول الامر تضحك قد أسرعت تسد أذنيها آخر الأمر، وهربت الى الدهليز باكية. وكان يدخل الى الركن أُناس كثيرون، فهذا يصرخ وذاك يبكي. وبادر بعضهم الى الطفل فأخرجوه من المكان وأخذوا يدلِّكونه عسى أن يتحرك، ولكن المحاولة لم تجد نفعاً وكانت آكولينا قد تمددت على السرير وطفقت تقهقه قهقهات لا يسمعها أحد إلا ويشعر بارتياع شديد. الآن فقط، وأنتم ترون هذا الجمهور الخليط الذي تجمهر في الدهليز رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً، تستطيعون أن تتصوروا كتلة البشر التي كانت تعيش في ذلك الجناح المقام في فناء الدار، وتستطيعون أن تتصوروا نوع الحياة التي كانوا يعيشونها هناك.

كان الجميع يضطربون ويتحركون ويتكلمون ويبكون ولا يعقل أحد منهم شيئاً. وكانت امرأة النجار لا تعدم في أي لحظة من اللحظات أن تقع على أحدٍ لم يسمع قصتها فتجعل تقص عليه من جديد كيف ارتاعت أشد الارتياع من ذلك المشهد الذي لم يدر في خلدها أن ترى مثله، وكيف أن الله قد حماها من السقوط على السلم. وكان الخادم العجوز الذي يلبس قميص امرأة يروي كيف أن امرأته قد غرقت في الغدير في عهد المرحوم، السيد الراحل. وكان الوكيل يرسل في طلب رجال الشرطة والكاهن، ويعهد الى امرأة من النساء بأن تتولى الحراسة وكانت الخادمة الصبية آكسيوتكا تنظر طوال الوقت الى فجوة السقيفة محملقة حملقة شديدة لا تملك أن تحول بصرها عنها فتنصرف الى مولاتها رغم انها لا تستطيع أن تبصر شيئاً. وكانت آغافيا مخائيلوفنا وهي خادمة السيدة في الماضي، تطلب شاياً لتهدئ أعصابها، وتبكي منتحبة ناشجة. وكانت العجوز آنا توسِّد الصبي الميت على المائدة الصغيرة بيديها الخبيرتين البدينتين وقد بللتهما بزيت الزيتون.

وكانت نساء تتجمهر حول آكولينا وتنظر إليها صامتة. وكان الأولاد ينظرون الى أمهم وقد تجمّعوا متلاصقين في الركن. لقد صرخوا كثيراً في أول الأمر، ثم صمتوا وانزووا في الركن متراصين. وكان صبية وفلاحون يتزاحمون ويتصادمون بقرب درج المدخل، وينظرون من خلال الباب والنافذة وقد ظهر في وجوهم الرعب، فهم لا يرون شيئاً ولا يفهمون شيئاً ويتساءلون ماذا حدث. فواحد يقول إن النجار قد قطع ساق امرأته بضربة بلطة، ويقول آخر بل إن الغسالة قد ولدت ثلاثة أولاد، ويقول ثالث إن قطة الطباخ قد أصابها سعار فأخذت تعض

الناس. ولكن الحقيقة لم تلبث أن انتشرت شيئاً فشيئاً حتى وصلت الى مسمع السيدة. بل إن أحداً لم يهيئ السيدة لسماع الخبر، وانما ذهب اليها إيجور الفظ، فقصَّ عليها القصة كلها بوضوح اضطربت أعصاب السيدة اضطراباً بلغ من الشدة أنها لم تتخفف منه إلاًّ بعد مدة طويلة. وأخذ الجمهور يهدأ.

وكانت امرأة النجار قد أشعلت السماور، فأخذت تقدم الشاي للناس. فأدرك الغرباء الذين لم يُقدَّم اليهم شيء من الشاي أن ليس يليق بهم أن يمكثوا مدةً أطول، فأخذوا ينصرفون، وأخذ الصبية عند درجات الباب يشتجرون ويقتتلون.

ان جميع الناس يعلمون الآن ما وقع، وفيما هم يرسمون اشارة الصليب ويتفرقون اذا بصوت يصيح على حين فجأة: «السيدة! السيدة!». فعادوا أدراجهم واصطفوا صامتين ليفسحوا لها طريقاً. ولكنهم كانوا يريدون أيضاً أن يروا ما عسى تفعل. دخلت السيدة الى الدهليز شاحبة اللون دامعة العينين حتى بلغت «ركن» آكولينا. فتزاحمت عشرات الرؤوس تنظر من الباب. وكان بين الحشد امرأة حبلى، فبلغت من شدة الضيق بضغط الناس عليها أنها صرخت صراخاً حاداً، ولكنها سرعان ما استغلت هذه الفرصة فاحتلت مكاناً في الصف الاول. كيف لا ينظرون الى «السيدة» في «ركن» آكولينا! ان هذا المشهد هو في نظر الخدم جميعاً أشبه بمشهد اطلاق الاسهم النارية في ختام الاحتفال. ما أحلى منظر الاسهم النارية حين تنطلق مشتعلة متألقة! وفي تلك اللحظة من الاحتفال انما تطلع السيدة عليهم في العادة لابسةً ثوبها الحريري المزدان بالتخاريم. وبهذا الثوب انما تدخل السيدة الآن على آكولينا.

دنت السيدة من أكولينا، وتناولت يدها، فانتزعت آكولينا يدها من يد السيدة فجأة في غلظة وخشونة.

قالت السيدة:

- آكولينا، إن لك أولاداً، فارحميهم !

فانفجرت آكولينا تقهقه، ثم قامت وأخذت تدمدم قائلةً بكلام سريع:

- أولادي فضة خالصة، فضة خالصة.. ليس عندي أوراق. طالما قلت لإيلتش: لا تأخذ أوراقاً! وها هم أولاء قد طلوه، طلوه بقطران. وبالقطران والصابون يذهب القمل كله يا سيدتي مهما يكن كثيراً.

وانفجرت تقهقه من جديد.

أشاحت السيدة وجهها، وطلبت أن يجيء الممرض وطلبت خردلاً، وقالت: «هاتوا ماءً بارداً»، بل ذهبت تجيء هي نفسها بماء بارد.

ولكن السيدة حوَّلت بصرها حين رأت جثة الطفل الذي كانت العجوز آنا واقفة أمامه، فرآها الجميع تغطي وجهها بمنديلها وتبكي. وأسرعت العجوز آنا تستر الطفل بقطعة من قماش (من سوء الحظ أن السيدة لم ترها، ولو رأتها لقدرت ذلك فيها قدراً كبيراً، ولهذا الغرض إنما فعلت العجوز ما فعلته على كل حال). وبيدها الغليظة الماهرة رتَّبت يديه الصغيرتين. وهزت رأسها، وعضَّت على شفتيها، وأرعشت عينيها، وتنهدت تنهداً شديداً، بحيث لا يكون في وسع أحد إلا أن يلحظ طيب قلبها ونبل نفسها. ولكن السيدة لم تر ذلك ولا كان يمكنها أن ترى شيئاً. لقد كانت تبكي ناشجةً منتحبةً في نوبة عصبية ألمت بها فملكت عليها كل شيء. فهبَّ نفر من الحضور يخرجونها مسنِّدين

ذراعيهـا، وأوصلوها الى منزلها. وقال كثيرون محدثين أنفسـهم: «إنها لم تجيء إلا لهذا. وانفضوا منصرفين الى بيوتهم.».

كانـت آكولينـا لا تـزال تغـرق فـي الضحـك مزيـداً مـن الاغـراق، وتسترسـل فـي الهذيـان مزيداً مـن الاسترسـال. واقتيدت الـى حجرة أخـرى، فأجري لها فصـد، ووضعت لها لزقات خردل، وغُطِّي رأسـها بثلـج. ولكنهـا ظلـت لا تفهـم شـيئاً، ولا تبكـي، وانمـا هـي تضحـك وتضحـك، وتقول أشـياء غريبة وتفعـل أموراً عجيبة فـلا يملك الناس الطيبون الذين يعالجونها إلا أن يضحكوا.

- 12 -

لم يكن العيد مرحاً في فناء بوكروفسكويا. فلم يخرج الناس للتسلية رغم أن النهار كان رائع الجمال، لا البنات اجتمعن ليصدحن بأغانيهن، ولا الشباب والعمال الذين أتوا من المدينة عزفوا على الآكورديون أو البالالايكا، ولا لهوا مع الصبايا. كان الجميع جالسين في أركانهم، فاذا تحدثوا كان صوتهم في الحديث خافتاً، فكأن روحاً شريرة خبيثة تهوِّم بينهم ويمكن أن تسمع ما يقولون. وكان الامر في النهار هيناً على كل حال. حتى اذا جاء المساء، وخيَّم الظلام، أخذت الكلاب تنبح، وهبَّت ريح شديدة تزمجر في المداخن كأنما عن عمد وقصد. فبلغ سكان الفناء من الرعب والهلع أن جميع الذين عندهم شموع قد أشعلوها أمام الأيقونات، ومن كان في ركنه وحيداً مضى يلتمس قضاء الليلة عند جار من الجيران استئناساً بالناس، ومن كان في حاجة للذهاب إلى الاسطبل لم يذهب، مؤثراً أن تبيت الدواب على الطوى ذلك اليوم. والماء المبارك الذي كان يحتفظ به كل واحد في قارورة، شُرب كله في تلك الليلة.

حتى إن كثيرين قد سمعوا وقع خطى تدب في السقيفة دباً ثقيلاً. ورأى الحداد تنيناً يطير اليها رأساً. ولم يكن في ركن بوليكاي أحد من أسرته، فقد نُقل أولاد المجنونة الى مكان آخر، ولم يبق في الركن إلا الطفل الميت وامرأتان عجوزان ومتسولة طفقت ترتل المزامير بهمة ونشاط، لا ترحماً على روح الطفل الميت، بل اهتماماً بقضية هذه المصائب كلها. فتلك كانت رغبة السيدة. وقد سمعت المتسولة والمرأتان العجوزان، بعد قراءة جزء من أجزاء المزامير العشرين، سمعت الوتد في أعلى يهتز، وسمعت صوتاً يئن. حتى اذا قرأت: «سيقوم الرب»، عاد الهدوء يخيِّم على المكان. وأرسلت امرأة النجار تستدعي قريبةً لها تقضي الليلة معها، فظلت المرأتان ساهرتين تحسوان الشاي قدحاً بعد قدح، فلا شك أنهما شربتا من الشاي في تلك الليلة ما اشترته امرأة النجار لاستهلاك الاسبوع كله. إنها هي أيضاً قد سمعت الوتد يطقطق في أعلى ويهتز، حتى لكأن الصوت صوت أكياس تتهاوى وتتساقط. وكان الفلاحون الحرس يبثون الشجاعة في نفوس الخدم. فلولا ذلك لمات الجميع في تلك الليلة فزعاً وجزعاً.

كان الفلاحون راقدين في الدهليز فوق العلف. وقد أكدوا بعد ذلك أنهم سمعوا هم أيضاً أصوات معجزات تجري في السقيفة. والحق أنهم قضوا الليلة هادئين كل الهدوء يتحدثون عن التجنيد، ويأكلون خبزاً، ويحكُّون جلودهم، ويملأون الدهليز برائحتهم خاصة، حتى ان امرأة النجار قد بصقت حين مرت بهم، وقالت تزدريهم: «فلاحون!». ومهما يكن من أمر فقد ظل المشنوق في السقيفة، وكانت الروح الشريرة الخبيثة في تلك الليلة كأنها تمدُّ جناحها الضخم الهائل على

مسكن الخدم فتحيط به احاطة تامة، وتبدي قوتها وسلطانها بالاقتراب من هؤلاء الناس اقتراباً لم تبلغه في أي وقت مضى.

أو قل إن هذا ما أحس به الجميع. ولا أدري أكان هذا الاحساس صادقاً أم لا. بل يغلب على ظني أنه لم يكن صادقاً، وأقدِّر أنه لو قام في تلك الليلة رجل جسور فحمل شمعة أو مصباحاً وصعد الى السقيفة بعد أن يرسم اشارة الصليب أو حتى من دون أن يرسمها، وأزاح بنور الشمعة أو المصباح ستار الظلمة وبدَّد هولها على مهل، وأضاء الوتد والارض والجدار الذي تغشاه خيوط العنكبوت والثياب التي نسيتها امرأة النجار، وتقدم من إيلتش غير مستسلم للخوف، فرفع المصباح الى مستوى وجهه، لرأى الجسم المعروفَ الهزيل وقد لامست قدماه الارض لارتخاء الحبل، فمال الى جانب وقد فارقته الحياة، ولرأى ياقة القميص وقد انحلت ازراره فكشفت عن صدرٍ أصبح لا يُرى عليه صليب، ولأبصر الرأس ملتوياً على الصدر، ولظهر له الوجه الذي لا تزال عيناه مفتوحتين لكنهما لا تبصران، ولتبدت له الابتسامة الرقيقة العذبة المذنبة، ولأحس الهدوء القاسي والصمت المطلق. حقاً إن امرأة النجار التي اندست تحت غطائها مشعثةَ الشعر مروَّعة العينين، وراحت تقص أنها سمعت تساقط أكياس كان منظرها أشد هولاً وادعى الى الرعب من منظر إيلتش رغم أن صليبه المنتزع من صدره قد وُضع على الوتد.

و«فوق»، أي في منزل «السيدة»، كان يخيِّم هذا الهول نفسه الذي يخيِّم في مسكن الخدم. كانت غرفة السيدة تفوح فيها رائحة ماء الكولونيا والأدهان. كانت دونياشا تذيب شمعاً لتصنع منه مرهماً.

لا أدري مـا الحاجة الى مرهم الشـمع هذا. لكنني أعلـم أنه يُصنع كلما مرضت السيدة.

وهي الآن مضطربة اضطراباً يبلغ حدَّ المرض.

وكانت عمة دونياشا قد جاءت تقضي الليلة معها لتشد أزرها وتقوِّي عزيمتها. فكانت النسوة الأربع جالسات جميعاً في غرفة الخادمات مع البنيَّة يتحدثن بصوت خافت.

قالت دونياشا تسأل:

- من يمضي يأتينا بزيت؟

فأجابت الخادمة الثانية، آفدوتيا نيقولافنا، تقول بلهجة قاطعة:

- لا أمضي مهما يكن من أمر، لا أمضي بحال من الأحوال.

- ما هذا الذي تقولين؟ اصطحبي آكسيوتكا.

فقالت آكسيوتكا:

- بل أذهب وحدي، فلست خائفة من شيء.

ولكنها أخذت تخاف. قالت دونياشا:

- فاذهبـي إذاً، يـا أعقلهـن جميعاً. اطلبـي من العجوز آنا كأسـاً من زيت، حاذري وأنت تحملينه أن يندلق.

فرفعـت آكسـيوتكا تنورتهـا باحدى يديهـا، واذ أصبحـت بذلك لا تستطيع أن تحرك يديها كلتيهما معاً، فقد أخذت يدها الثانية تنوس على جسـمها بقوة مضاعفة، وأسـرعت تركض. كانت خائفة خوفاً شـديداً، وكانت تحس أنها لو أبصرت أي شـيء أو سـمعت أي شـيء، ولو كان هـذا الشـيء أمَّهـا بلحمها وعظمهـا، لماتت فـي مكانها فوراً من شـدة الخوف. فكانت تركض في الطريق الذي تعرفه مغمضةً عينيها.

- 13 -

وفجأةً سأل فلاح بصوت خافت قرب آكسيوتكا:

- هل «السيدة» نائمة أم هي يقظى؟

ففتحت آكسيوتكا عينيها فأبصرت رجلاً بدا لها أكبر من مبنى الخدم كلـه، فصرخت، ونكصت على عقبيها تركض راجعةً بسـرعة بلغت من الشـدة أن تنوُّرتهـا كانت تطيـر وراءها. فمـا هي إلا وثبـة حتى صارت على درج الباب، ثم أسـرعت تلج غرفة الخادمات وهي تصرخ صرخةً وحشية، وارتمت على السرير.

شـعرت دونياشـا وعمتها والمـرأة الأخرى بذعر رهيـب. وما كدن يثبن الى بعض رشـدهن حتى سـمعن وقع خطى ثقيلة تدب في الدهليز وتقترب من الباب. فهرعت دونياشا الى «السيدة» وقد اسقطت من يدها مرهم الشـمع. واختبأت المرأة الاخرى في ثنايا أثواب معلقة بالحائط. وأرادت العمة، وهي أشجعهن، أن تقوم الى الباب فتسده، ولكن الباب فُتـح ودخل الفـلاح الغرفة. إنـه دولتـوف بنعليه الضخميـن. وقد أخذ

يجيل بصره في الغرفة باحثاً عن الأيقونات من دون أن يلقي بالاً الى فزع النسوة، فلما لم تقع عيناه على الصورة الصغيرة المعلّقة في الركن الأيسر، رسم اشارة الصليب متجهاً الى خزانة من زجاج فيها فناجين، ووضع قبعته على حافة النافذة، ثم أغطس يده في فروته القصيرة كأنما هو يريد أن يحكَّ ابطه، فاستلَّ منها ظرفاً عليه أربعة أختام تمثل مرساة.

كانت عمة دونياشا واضعةً يدها على صدرها من شدة الفزع. واستطاعت أخيراً أن تنطق فغمغمت تقول:

– آ... هذا أنت؟ لقد أخفتني يا ناءومتش، فلا أستطيع أن أقول كلمة. ظننت أن أجلي قد حان.

وقالت الخادمة الثانية وقد خرجت من بين ثنايا الاثواب:

– هل يفعل أحد ما فعلت؟

وقالت دونياشا وهي تظهر في الباب عائدة:

– لقد بثثت الاضطراب حتى في نفس «السيدة». كيف تجيء الى غرفة الخادمات من دون إبلاغ. ألا إنك لفلاح حقاً !

لم يخطر ببال دولتوف أن يعتذر، وكرر يقول إن عليه أن يرى «السيدة». فقالت له دونياشا:

– إنها مريضة.

وفي تلك اللحظة انفجرت آكسيوتكا تضحك ضحكاً يبلغ من الجلجلة ويبلغ من مجافاة اللباقة أنها اضطرت الى دسِّ رأسها بين الاثواب من جديد، ثم أصبحت رغم تهديدات دونياشا والعمة لا تستطيع أن تخرج من بين الاثواب إلا وتنفجر ضاحكةً ضحكاً مكتوماً حتى لكأن شيئاً كان يتمزّق في صدرها المورَّد وخديها الحمراوين.

لقد بدا لها أن من المضحك جداً أن الذعر قد اعتراهن جميعاً، فأخفت رأسها، وأخذت تقرع الأرض بقدميها وأخذ جسمها كله ينتفض في ما يشبه التشنج.

توقف دولتوف ونظر اليها متفرّساً، كأنه يريد أن يدرك ما ألمَّ بها، فلما لم يستطع أن يفهم شيئاً، أشاح عنها، وتابع كلامه، فقال:

- الأمر مهم جداً. أبلغن «السيدة» أن الفلاح قد وجد رسالةً فيها مال.

- أي مال؟

قرأت دونياشا العنوان المكتوب على الظرف قبل أن تبلغ مولاتها شيئاً، وسألت دولتوف أين وكيف وجد هذا المال الذي كان على إيلتش أن يجيء به من المدينة. حتى إذا استوعبت جميع التفاصيل، مضت الى إبلاغ «السيدة» طاردةً البنيَّة التي كانت لا تزال تضحك في الدهليز. فما كان أشدَّ دهشة دولتوف حين رفضت «السيدة» أن تستقبله، حتى إنها لم تزوِّد دونياشا بأي تعليل يسوِّغ ذلك الرفض، ولم تزد على أن قالت:

- لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف شيئاً. أي فلاح؟ أي مال؟ لا أستطيع ولا أحب أن أرى أحداً. فليتركوني في سلام!

قال دولتوف وهو يقلِّب الظرف ظهراً وبطناً:

«فلماذا أفعل إذاً؟ ما هو المبلغ الذي يُستهان به!»

وقرأت دونياشا العنوان مرةً أخرى فسألها دولتوف:

- ما المكتوب على الظرف؟

كان دولتوف غير مصدِّق. كان يأمل أن لا يكون هذا المال مال «السيدة»، وأن يكون العنوان قد قُرئ له خطأً. ولكن دونياشا أكدت له

صحة قراءة العنوان. فتنهد دولتوف، ووضع الظرف في جيب فروته، وتأهَّب للخروج. وقال:

- يجب عليَّ أن أسلِّمه الى الشرطة طبعاً.

فقالت دونياشا وهي تستوقفه بعد أن تابعت ببصرها اختفاء الظرف في فروة الفلاح:

- انتظر. سأحاول مرةً أخرى. هات الرسالة.

فأخرج دولتوف الظرف مرةً أخرى، ولكنه لم يضعه فوراً في يد دونياشا، الممدودة اليه.

- قولي إن دولتوف هو الذي وجده في الطريق.

- نعم. هات.

- ظننتها رسالة عادية، ولكن جندياً قال لي إن فيها مالاً.

- ولكن هات ! هات !

عاد دولتوف يتكلّم فقال من دون أن يتخلى عن الظرف الثمين الذي يمسكه بيده:

- لم أجرؤ أن أذهب الى البيت حتى... قولي هذا الكلام للسيدة.

فأخذت دونياشا الظرف، ومضت الى السيدة من جديد.

قالت السيدة بلهجة اللوم:

- آه... يا رب ! دونياشا ! لا تكلميني عن هذا المال! إنني حين أتذكر ذلك الطفل...

فقالت دونياشا:

- لا يعرف الفلاح يا سيدتي من هو الشخص الذي تأمرين بأن يسلِّمه الظرف.

فغضّت السيدة، فاذا هي ترتعش حين ترى المال، وإذا هي تطرق واجمة شاردة الفكر !

- مال منحوس! ما أكثر المصائب التي كان سبباً لها !

- هو دولتوف يا سيدتي. أتأمرين أن أدخله عليك أم تفضّلين أن تتنازلي فتخرجي له؟ لا أدري هل المبلغ كامل غير منقوص.

قالت السيدة فجأة وهي تبحث عن يد دونياشا:

- لا أريد هذا المال. هو مال مشؤوم. انظري كم جلب من مصائب. قولي لي أن يحتفظ به لنفسه اذا شاء.

ثم عادت تكرر قائلةً لدونياشا التي اعترتها دهشة شديدة:

- نعم نعم! فليأخذه كله، وليصنع به ما يشاء!

فقالت دونياشا معترضة وهي تبتسم ابتسامة رقيقة كأنها تبتسم لطفل:

- ألف وخمسمائة روبل!

فكررت السيدة قولها نافدةَ الصبر متذمرة:

- فليأخذ المال كله! ماذا؟ ألا تفهمين عني؟ هذا مال مشؤوم منحوس. لا تكلميني عنه أبداً. فليحتفظ الفلاح لنفسه بما وقع عليه. اذهبي! اذهبي!

رجعت دونياشا الى حجرة الخادمات.

وسألها دولتوف:

- هل المبلغ كامل لم ينقص منه شيء؟

قالت دونياشا وهي تمدُّ اليه الظرف:

- اعدده أنت. لقد أمرت السيدة بأن أعطيك إياه.

فوضع دولتوف طاقيته تحت ذراعه، ومال على الأوراق يعدُّها. ثم سأل: أليس عندكم عدَّادة؟

لقد ظن دولتوف أن السيدة، وهي أغبى من أن تُحْسِن العَدّ، قد أمرت بأن يتولاه عنها.

قالت دونياشا حانقة:

- ستعدّ المال في بيتك. قالت السيدة «إنها لا تريد أن تراه» وأمرت «أن يأخذه من جاء به».

فحدَّق دولتوف الى دونياشا من دون أن ينصب جذعه.

وضربت عمة دونياشا كفاً بكف وهي تقول:

- يا للحظ، أي حظّ هذا!

لم تستطع الخادمة الأخرى أن تصدِّق ما تسمعه أذناها.

- ما هذا الذي تقولينه يا آفدوتيا نيقولافنا! أأنت تمزحين؟

- أمزح؟ بل السيدة أمرت أن يأخذ الفلاح المال. مصائب قوم عند قوم فوائد.

كذلك قالت دونياشا متحسرة غاضبة.

قالت العمة:

- ألف وخمسمائة روبل! كلمة سهلة!

قالت دونياشا:

- بل المبلغ أكبر من ذلك.

والتفتت الى دولتوف فقالت بلهجة ساخرة:

- أوقد شمعة بعشرة كوبكات للقديس نيقولا. ماذا؟ أراك فقدت صوابك.

ثم أضافت تخاطب غيره:

- ليت هذه النعمة هبطت على فقير، أما هو فإنه يملك مالاً كافياً.

أدرك دولتوف أخيراً أن الأمر ليس مزاحاً. فلمَّ المال الذي كان بسطه على المائدة ليعدَّه، وأخذ يدسه في جيبه. ولكن يديه كانتا ترتعشان وهو ينظر الى البنات ليقتنع بأن الأمر جد لا هزلاً.

قالت دونياشا لتظهر أنها تحتقر الفلاح والمال كليهما:

- فقـد صوابـه. ولكنـه سـعيد بأن يفقـده. هـات. دعنـي أرتِّب لك الأوراق.

ومـدت ذراعهـا تحاول أن تسـاعده، ولكن دولتوف لم يـدع لها أن تفعـل، وإنمـا قبض الأوراق كتلة واحدة، ودسَّـها في ثيابه دسـاً أعمق، وتناول طاقيته لينصرف.

- أمغتبط أنت؟

- لا أدري ماذا أقول! لكأن...

ولم يكمل جملته، بل ابتسم وأوشك أن يبكي وخرج. ورنَّ الجرس في غرفة السيدة.

- هيه! هل أعطيته المال؟

- نعم.

هل سُرَّ به؟

- كاد يُجن.

- آ... ناديـه. فليجـيء إليَّ. أريد أن أسـأله كيف عثر بـه، كيف وقع عليه. ناديه لا أستطيع أن أخرج إليه.

ركضت دونياشا فأدركت الفلاح في الدهليز. كان قد أخرج الكيس

الـذي يضـع فيه نقـوده، وانحنـى على الكيـس يحل رباطه وهو حاسـر الرأس، قابضاً على الأوراق بين أسـنانه. لعله كان يتصور أن هذا المال لا يصير ملكاً له الى أن يودعه كيسه. فلما نادته دونياشا خاف وقال:

– مـاذا يا آفدوتيـا... آفدوتيا نيقولافنا؟ هل تريد السـيدة أن تسـترد المال؟ تشفعي لي عندها، فإن تشفَّعتِ فوالله لآتينك بعسل.

– صحيح! ما أكثر ما أتيتنا بعسل من قبل!

وفُتح الباب من جديد، وأدخل الفلاح على السـيدة. لم يكن متهلل الأسـارير. وكان يقول لنفسـه: «سوف تسـترد المال». وليس يدري إلا الله لماذا رفع ساقه كلها حين دخل الغرفة، كأنما هو يمشي على أرض ذات أعشـاب طويلة، وحاولِ أن لا يكون لوقع نعليه أي صوت. كان لا يفهم شـيئاً، ولا يرى شـيئاً مما يكتنفه. وحين مرَّ أمام مرآة رأى أزهاراً، وأبصـر فلاحـاً يرفع قدميـن لهما نعـلان ضخمان، ولمح صـورةً تمثل سـيداً من السـادة، وتخايل له صندوق أخضر، وشـيء أبيـض... ثم إذا بهذا الشـيء الأبيـض قد أخذ يتكلم فجـأة. إنها «السـيدة». كان لا يعي مـا يرى حوله. وكان محملق العينين. وكان لا يعرف أين هو، وكان كل شيء يبدو له غارقاً في ضباب.

– أهذا أنت يا دولتوف؟

– أنا يا سيدتي. لم أمسس المال، وبقي كاملاً غير منقوص. شهد الله أن هذا الامر كله قد ضايقني كثيراً. ولشد ما ضربت حصاني بالسوط...

قالت السيدة وهي تبتسم ابتسامة فيها طيبة وفيها احتقار:

– هو حظك. احتفظ بالمال لنفسك.

حملق دولتوف.

- يسرني أن هذه النعمة هبطت عليك أنت! أسأل الله أن يجيئك هذا المال بالسعادة! أأنت مغتبط؟

- وكيف لا أغتبط؟ أنا مغتبط أشد الاغتباط. سأدعو الله لك دائماً. ما أعظم فرحي بأن الله أبقى لنا سيدتنا!

- كيف وقعت على الظرف؟

- نحن ينبغي لنا أن نلتزم مع سيدتنا قول الصدق كما نفعل دائماً.

قالت دونياشا:

- هوذا يخلط ويخبط في كلامه خبط عشواء يا سيدتي!

واستطرد الفلاح يقول:

- لقد اقتدت الى المدينة مجنَّداً هو ابن أخي. فلما كنت في طريق العودة من المدينة عثرت على... لعله سقط من بوليكاي مصادفة.

- طيب. اذهب يا عزيزي. إنني مبتهجة لك.

قال الفلاح:

- ما أسعدني يا سيدتي.

وتذكر عندئذ أنه لم يشكر لها صنيعها، ولم يقل ما كان ينبغي أن يقول. وكانت السيدة ودونياشا تبتسمان. وخرج هو من الغرفة بخطى كالتي دخل بها، فهو يرفع ساقيه كأنه يسير على عشب طويل ولا يكاد يستطيع أن يصدَّ نفسه عن الركض ركضاً. كان يخيَّل اليه أنه سيُستوقف مرة أخرى ليسترد منه المال.

- 14 -

ما إن خرج دولتوف الى الهواء الطلق، حتى ابتعد عن الطريق ودلف نحـو أجمـة من أشـجار الزيزفون، وهناك نـزع عنه حزامه ليسـهل عليه استلال كيسـه، ثم استـلّ الكيس وأودعه ماله. وكانت شفتاه تختلجان وتسـتطيلان وتعرضـان، رغم أنه لا ينبـس بحرف. فلما فـرغ من إيداع المـال فـي الكيـس مرتّبـاً، وأعاد شـدّ حزامه الى خصره. رسـم اشـارة الصليـب، وعـاد الى الطريق يسـير بخطـى مترنّحة كخطى السـكارى، غارقاً في زوبعة من الأفكار تعصف في رأسـه. وإنه لكذلك إذا هو يرى فلاحـاً مقبلاً عليه يناديـه: إنه إيفيم الذي كان يحـرس مبنى الخدم وفي يده هراوة.

قال إيفيم فرحاً وهو يدنو منه (وكان خائفاً من وحدته):

– هيه! العم سيميون! هل أوصلت المجندين يا عم؟

– نعم. ماذا تعمل؟

– وُضعت هنا لأحرس إيلتش الذي شنق نفسه.

- أين هو؟

- هناك، في السقيفة.

قال إيفيم ذلك وهو يشير بعصاه الى السطح المظلم من مبنى الخدم. فنظر دولتوف الى الجهة التي يشير إليها إيفيم بعصاه، ورغم أنه لم يبصر شيئاً فقد قطب حاجبيه، وطرف بعينيه، وهزَّ رأسه.

قال إيفيم:

- جاء مفتش الشرطة. أخبرني الحوذي بذلك. سيخرجونه بعد قليل. آه... الليل رهيب يا عم. لو أمروني بأن أصعد الى هناك في الليل لما رضيت بحال من الأحوال. لن أرقى السقيفة ولو أماتني إيجور ميخائيلوفتش ضرباً.

- يالها من مصيبة! يا له من إثم!

كذلك هتف دولتوف لا لشيء إلا أن يقول شيئاً ما، وكان واضحاً أنه لا يفكر البتة في ما يقول. وهمَّ أن يستأنف سيره لولا أن استوقفه صوت ايجور ميخائيلوفتش الذي صاح من على درج الباب منادياً:

- يا حارس! تعال هنا!

فاستجاب له إيفيم.

- هيه! من ذلك الفلاح الذي يحادثك هناك؟

- دولتوف.

- تعال أنت أيضاً يا سيميون! تعال!

وفي ضوء المصباح الذي كان يحمله الحوذي استطاع دولتوف أن يرى ايجور ميخائيلوفتش وموظفاً قصير القامة يعتمر بكسكيتة ويتدثر بمعطف. انه مفتش الشرطة.

وقال ايجور ميخائيلوفتش حين رأى دولتوف:

- وسيصحبنا هذا الشيخ أيضاً.

كان الشيخ خائفاً، ولكن لا سبيل له الى النكوص.

- وأنت يا ايفيميكا الفتى، ثِبْ الى السقيفة التي شنق نفسه فيها، فرتِّب السلم ليستطيع سيادته أن يصعد.

فركض ايفيميكا لينفذ الأمر، هو الذي كان لا يريد أن يقترب من مبنى الخدم بحال من الأحوال. وكان لوقع نعليه على الأرض من الضجة أثناء ركضه ما لا يحدثه إلا جرُّ عوارض الخشب.

وضرب الشرطي قداحته وأشعل غليونه.

إنه يقيم على بعد فرسخين، وقد وبَّخه رئيسه منذ برهة توبيخاً شديداً بسبب إفراطه في السكر، فهو لذلك يبدي الآن نشاطاً وهمة وحماسة للعمل، فما إن وصل في الساعة العاشرة من المساء حتى أراد أن يفحص جثة المشنوق فوراً.

وسأل ايجور ميخائيلوفتش صاحبنا دولتوف عمَّا جاء به الى هنا فاستطاع دولتوف أن يروي له أثناء الصعود الى السقيفة حكاية المال الذي وجده، والقرار الذي اتخذته «السيدة». وأضاف يقول إنه إنما جاء الى هنا ليستأذن إيجور ميخائيلوفتش في انفاذ أمر «السيدة». فما كان أشد الرعب الذي استولى على دولتوف حين طلب منه الوكيل أن يريه الظرف، وأخذ ينعم النظر فيه. وقد عمد الشرطي أيضاً الى تناول الظرف، وأخذ يسأل عن تفاصيل كثيرة بلهجة جافة وجمل مقتضبة.

قال دولتوف يحدث نفسه: «ذهب المال!». ولكن الشرطي لم يلبث أن ردَّه اليه وهو يقول:

- محظوظ!

فقال إيجور ميخائيلوفتش:

- هبطت عليه النعمة في ابانها. كان عليه أن يجنّد ابن أخيه، فصار في وسعه الآن أن يفتديه.

قال مفتش الشرطة وهو يتقدم:

- حسن!

وقال ايجور ميخائيلوفتش يسأل دولتوف:

- ألا تنوي أن تفتدي إيليا؟

- أين لي أن أفتديه؟ هل أملك من المال ما يكفي؟ ثم لعله فات الأوان!

قال الوكيل:

- افعل ما تشاء!

وسار الاثنان يلحقان برجل الشرطة.

اقتربوا من مبنى الخدم. كان الحراس الذي تفوح منهم رائحة كريهة ينتظرون في الدهليز ومعهم مصباح. انضم دولتوف الى الآخرين. كانت هيئة الحراس تعبّر عن خجل وحياء من الرائحة التي ينشرونها من دون أن يقارفوا عدا ذلك أي ذنب.

صمت الجميع. ثم قال رجل الشرطة سائلاً:

- أين؟

فهمس ايجور ميخائيلوفتش قائلاً:

- هنا.

ثم أضاف يخاطب إيفيم، فقال:

- ايفيميكا! تقدَّمْنا حاملاً المصباح.

كان ايفيميكا قد رتَّب ألواح الخشب أمام السلَّم فوق، وكان قد زايله كل خوف. وها هو ذا يتقدمهم الآن مرتقياً السلَّم درجتين درجتين أو ثلاثاً ثلاثاً متهلل الاسارير، ويلتفت الى الوراء من حين الى حين ليضيء طريق رجل الشرطة الذي كان يتبع ايجور ميخائيلوفتش. حتى اذا غابوا عن البصر، توقف دولتوف على الدرجة الاولى التي كان قد وضع قدمه عليها، وتنهَّد. وبعد دقيقتين سكن الخطو في السقيفة، فكان واضحاً أن الرجال قد دنوا من الجثة.

صاح ايفيم من الكوة منادياً:

- يا عم، إنهم يستدعونك.

فصعد دولتوف.

كان لا يُرى من رجل الشرطة وايجور ميخائيلوفتش في ضوء المصباح إلا أعلى الجسم. وكان وراءهما شخص آخر يوليهما ظهره هو بوليكاي. تخطى دولتوف الوتد، وتوقف وهو يرسم اشارة الصليب.

قال رجل الشرطة:

- أديروه الى هذه الجهة.

فلم يتحرك أحد.

فقال ايجور ميخائيلوفتش:

- أنت فتى يا ايفيميكا!

فتخطى الفتى الوتد، وأدار ايلتش، ووقف الى جانبه طلقَ المحيا، ينظر تارة الى إيلتش وتارة الى رجل الشرطة، مثله كمثل الذي يعرض الزنجية البرصاء أو المرأة التي لا رأس لها حين يخرج بهما الى

المشاهدين في المعرض، فهو ينظر تارة الى الجمهور وتارة الى المرأة المعروضة، مستعداً لتلبية رغبات المتفرجين جميعاً في كل لحظة.

- أدره أيضاً.

وأُدير إيلتش مرة أخرى، فكانت ذراعه تنوس نوساً ضعيفاً، وكانت قدماه تنجران على الأرض.

- فكُوه.

فقال ايجور ميخائيلوفتش:

- هل تأمر بقطع الحبل. هاتوا سكّيناً يا أولادا

واضطر الفتى أن يصدر أمره هذا الى دولتوف والى الحرس مرتين اثنتين. وكان الفتى يتصرف بايلتش تصرفه بجسم خروف. وقُطع الحبل أخيراً. وانتزعت الجثة وسترت بغطاء.

وأعلن رجل الشرطة أن الطبيب سيجيء غداً. وأمر الرجال بالانصراف.

- 15 -

اتجـه دولتوف الى مسـكنه وهو يحرّك شـفتيه. وكان فـي أول الامر خائفاً، ولكن خوفه كان يتبدد على قدر اقترابه من القرية، بل كان الفرح يملأ قلبة شـيئاً بعد شـيء. وكانت تُسـمع في القريـة أُغنيات وأصوات سـكارى. إن دولتوف لم يشـرب خمرة في حياته. وهـو الآن متجه الى بيته قدُماً لا يلوي على شـيء. وكان الليل قد تقدم حين وصل دولتوف الـى بيتـه. فابنه الأكبر وأحفاده نائمون على سـطح المدفأة، وابنه الثاني نائم في حجرة صغيرة تتخذها الاسـرة مستودعاً. ولكن امرأة ايليوشكا وحدها لا تزال يقظى. كانت جالسة على دكة بقميص وسخ هو قميص العمـل، وكانت تبكي. لم تقم من مكانها لتفتـح الباب للعم. ولكنها ما إن دخـل البيت حتى أخـذت تعول مزيداً من العويـل، وتنتحب انتحاباً قويـاً تقول العجوز عنها إنها ندَّابة مجيـدة ممتازة رغم أنها بحكم صغر سنها ليس لها بالندب خبرة واسعة.

نهضت العجوز وأعدَّت لزوجها الحسـاء. وقـد طرد دولتوف امرأة

ايليوشكا عن المائدة، ونهرها قائلاً لها: «كفى! كفى!». فنهضت آكسينيا واضطجعت على الدكة من دون أن تكف عن العويل. وقد قدَّمت العجوز الطعام ثم نظفت المائدة وهي صامتة لا تقول شيئاً. وكذلك دولتوف الشيخ، فانه لم ينبس بكلمة. حتى إذا فرغ من تلاوة دعائه تجشأ وغسل يديه، ثم حمل العدَّادة ومضى الى حجرة المستودع. وهناك همس في أذن امرأته ببعض الكلام، فخرجت المرأة، وأخذ اصطكاك كرات العدادة يُسمع. وأخيراً رفع دولتوف باباً قلاباً ونزل الى القبو. ولبث يتحرك هناك مدة طويلة. حتى إذا خرج من القبو كان الظلام قد أطبق على المسكن، وكان السراج قد انطفأ. وكانت العجوز التي لا تحدث ضجة في أي وقت من الأوقات، ولا تتكلم إلا قليلاً في النهار، راقدة على ألواح الخشب، وكان شخيرها يترجَّع في أرجاء المسكن كله. وكانت امرأة ايليوشكا الصخابة نائمة كذلك، ولكنها تتنفس تنفساً هادئاً بغير شخير. كانت نائمة على الدكة بغير وسادة، من دون أن تخلع ثياب النهار.

تلا دولتوف دعاء، ثم نظر الى زوجة ايليوشكا، فهزَّ رأسه، ثم أطفأ السراج، وتجشأ مرة أخرى، وارتقى سطح المدفأة، فاستلقى الى جانب حفيده. وفي الظلام خلع نعليه الضخمين، وراح ينظر الى ألواح الخشب فوق سطح المدفأة مضطجعاً على ظهره، فكان لا يكاد يبصرها من شدة الظلام، وأنصت الى أصوات حشرات تتحرك في الجدران، وسمع ما يصدر عن الدواب في الفناء من زفير وشخير وجلبة. فظل مدة طويلة لا يجد الى النوم سبيلاً. وكان القمر يصعد في السماء، وتسللت أشعته الى المسكن فأضاءته قليلاً. فأبصر في

الركـن آكسـينيا وشـيئاً لـم يسـتطع أن يميِّزه: أهـو أرمياك ابنـه؟ أهو دلو وضعته هنالك امرأته؟ أهو شـخص قد وقف منتصب القامة؟ المهم أن دولتوف، سواء أكان في تلك اللحظة نائماً أم كان يقظاً، فقد ظل يحدِّق الى ذلك الشـيء متفرساً متفحصاً. لا شك أن «الروح» الخبيثة المظلمة التـى قادت خطـى ايلتش الى ذلك العمل الرهيـب فدفعته الى الانتحار شـنقاً، والتي أحسَّ الناس باقترابها تلك الليلة، لا بد أن تبسـط جناحيها على القرية، وأن تصل الى مسـكن دولتوف الذي يثوي فيه المال الذي اسـتعملته تلك الروح لاهلاك ايلتش. وأحس دولتوف بوجود «الروح» هنا، فشـعر بضيق في صدره. وسـواء أكان يقظـاً أم كان نائماً، فلقد كان يبصر شـيئاً لا يستطيع أن يحدده. وتذكر ايليوشكا مكبَّل اليدين، وتذكر وجه آكسـينيا ودمدماتها، وتذكر ايلتش المتدلي الذراعين. وإنه لكذلك إذا هـو يتراءى له أن شـخصاً مرَّ أمـام النافذة. «من هـذا؟ أيكون رئيس القرية؟ ولكن كيف فتح الباب؟» كذلك قال الشـيخ لنفسـه وهو يسمع وقـع خطى في الدهليز. «تُرى هل نسـيت العجـوز أن تغلق الباب حين ذهبت الى الدهليز؟».

ولقد روى الشـيخ بعد تلـك الليلة ما حدث له فيهـا فقال: «لقد نبح الكلب، وظل «هو» يسـير في الدهليز كأنه يبحث عن الباب. وتقدم الى أمام يتلمس الجدار واصطدم بالدلو فسقط الدلو فأحدث سقوطه ضجة كبيـرة. وعـاد يتلمس، كأنه يبحث عن المزلاج الـى أن عثر عليه. أحس الشـيخ برعدة تسـري في جسـمه. وشـدَّ «هـو» المـزلاج ودخل. دخل فـي صـورة رجـل. كان دولتوف يعرف أنه «هو». أراد أن يرسـم اشـارة الصليـب، ولكنـه عجز. واقترب «هـو» من المائدة، فنـزع عنها غطاءها

ورماه الى الارض، وارتقى المدفأة. تعرَّف الشيخ فيه ملامح وجه ايلتش. وصرَّ «هو» بأسنانه، وحرّك ذراعيه، ووثب هاجماً على الشيخ ليخنقه. قال ايلتش:

- مالي!

- اتركني، ولن آخذه!

كذلك أراد العجوز أن يقول، ولكن لسانه لم يستطع أن يتحرك، فما قال شيئاً.

كان ايلتش يتكئ على صدره كأنه جبل من صخر فيخنقه خنقاً. وكان دولتوف يعلم أنه لو نطق بدعاء لتمَّ له الخلاص، وكان يعرف الدعاء الذي يجب عليه أن يتلوه، ولكن لسانه عاجز عن النطق. وكان حفيده ينام الى جانبه. وصرخ الطفل صرخة خادة وطفق يبكي، فقد كان الجدُّ يضغطه على الحائط. ولكن صرخة الطفل حلَّت عقدة لسان الشيخ، فقال يتلو دعاءه: «ألا فليبعث يسوع المسيح». فخفت وطأة الثقل التي كان يجثم بها الآخر على صدره. وأردف يكمل الدعاء قائلاً: «وليتفرق شمل أعدائه...» فنزل «الرجل» عن المدفأة. وسمع دولتوف قدمين تخبطان الأرض خبطاً. وجعل دولتوف يتلو جميع الأدعية والصلوات التي يعرفها. اتجه «الرجل» الى الباب، ودفع المائدة دفعة قوية، وضرب الباب ضربة بلغت من العنف أن البيت كله اهتز لها اهتزازاً شديداً. وكان الجميع في تلك الأثناء نائمين، إلا الجد والحفيد. وكان الجد يتلو صلواته مرتعداً بجسمه كله. وكان الحفيد وهو ينام، ويلتصق بجده ويشد نفسه إليه. وعاد كل شيء الى الهدوء والسكينة. كان الجد مستلقياً على ظهره بلا حراك. وصدح الديك وراء الباب

فكأنـه يصدح في أذن دولتوف، وسـمع دولتوف قوقـأة الدجاج. وكان الديك الصغير يحاول أن يصدح بعد الديك الصغير، فلا يستطيع ذلك. وتحرَّك شـيء بين ساقي الشـيخ. انها القطة. ووثبت القطة عن المدفأة، فقرعت الارض بقدميها الرخصتين، ومضت تموء بقرب الباب. نهض الشـيخ وفتح النافذة. كان شـارع القرية مظلماً موحلاً. وخرج دولتوف الى حوش الخيل حافي القدمين وهو يرسـم اشـارة الصليب. وشعرت الخيـل أن مولاهـا أقبـل. فـاذا الفرس قد اشـتبكت قوائمهـا بألجمتها، وانقلـب زادهـا علـى الارض، فرفعت رجليهـا واتجهـت ببصرها الى مولاها. وكان المهر مستلقياً على الزبل، فأنهضه دولتوف، ثم عمد الى الفرس فخلَّصها من مأزقها، وأمدَّها بطعام، وعاد الى البيت.

كانـت العجـوز قـد قامـت وأخـذت تضـرم نـار الموقد. فقـال لها زوجهـا: «أيقظـي الأولاد. فسـأذهب الى المدينـة». ثم أشـعل الاثنان شمعة الأيقونة ونزل كلاهما الى القبو.

وحيـن خرج كانـت النيران قد اشـتعلت لا في بيـت دلتوف وحده، بـل في بيـوت الجيـران كافة. وقـد اسـتيقظ الأولاد وأخـذوا يتأهبون. والنساء يدخلن ويخرجن حاملات دلاء ماء وسطول لبن. وقرن أجناتي الحصـان الى العربة. وأخذ الابن الثاني يشـحِّم عربة أخرى. وقد كفَّت المرأة الشابة عن العويل، وأخذت تعنى بهندامها، فغطت رأسها بخمار، وجلست على دكةٍ تنتظر ساعة الذهاب الى المدينة لتودِّع زوجها.

كانت هيئة الشـيخ قاسية قسوة شـديدة. وقد ارتدى قفطانه الجديد، وشـدَّ خصره بحزامه، وذهب الى ايجور ميخائيلوفتش حاملاً في كيسه كل أمـوال ايلتش. وصاح يقول لاغناتي الذي كان يضع العجلات على

المحور بعد أن شحَّمه ورفعه:

- أسـرع مزيداً من الإسـراع. سـأرجع حالاً. فليكن كل شـيء معداً مهيأ.

كان الوكيـل، ايجور ميخائيلوفتش، قد اسـتيقظ مـن نومه، فهو الآن يشـرب الشـاي ويتأهب للذهاب الى المدينة من أجل أن يتولى بنفسـه تسجيل المجنَّدين. فلما رأى دولتوف قال يسأله:

- ماذا تريد؟

فأجاب دولتوف:

- ايجور ميخائيلوفتش، أريـد أن أفتدي الفتى. رحماك! لقد ذكرت لـي فـي الآونة الاخيرة أنك تعـرف في المدينة بديـلاً. فانصحني. أنا لا أفقه شيئاً.

- أرى أنك فكرت!

- فكـرت يا ايجـور ميخائيلوفتش. إنني أرثي لحالـه، وأتألم له. هو ابـن أخـي. لا يملك المرء إلا أن يحزن مهما يكن من أمر. يا لهذا المال كم يورث من خطايا وذنوب!

ثم أضاف ضارعاً وهو ينحني انحناءة كبيرة:

- رحماك! انصحني!

وكمـا يحدث دائمـاً في مثل هذه الحال، لبث ايجـور ميخائيلوفتش عاضاً على شفتيه مدة طويلة وهو صامت، حتى إذا فكر ملياً، قام فكتب بطاقتين، وشرح للرجل ما يجب عليه أن يفعله في المدينة.

وحيـن رجـع دولتوف الـى بيته، كانت المرأة الشـابة قد سـارت بها العربـة مع أغناتي، وكانت الفرس الصهبـاء الضخمة مقرونة تنتظر عند

البوابة. فانتزع دولتوف غصناً من شجرة في السياج، وتدثر بمعطفه، وجلس في العربة، وجلد بسوطه الحصان، وأخذ يحث الحصان على الجري حثاً بلغ من الشدة أن الحصان لم يلبث أن غار بطنه من سرعة الجري، وكان دولتوف لا ينظر الى الحصان مخافة أن يرق قلبه له أو أن يأخذه به حنان. كان يقلقه أشدَّ القلق أن يتصوّر وصوله متأخراً بعد فوات التجنيد. كان يخشى أن يكون ايليا قد تمَّ تجنيده وانتهى الأمر، فيبقى المال المنحوس بين يديه لا يعرف ما هو صانع به.

لن أصف بالتفصيل جميع مساعي دولتوف في ذلك الصباح وحسبي أن أقول إنه أوتي حظاً مواتياً. ان المالك الذي كتب إليه إيجور ميخائيلوفتش بطاقةً يوصيه فيها بدولتوف، عنده بديل مهيأ، مدين بثلاثة وعشرين روبلاً، حامل جميع الأوراق الرسمية اللازمة لقبوله في مكتب التجنيد. وكان المالك يريد أن يقبض أربعمائة روبل ثمناً للتخلي عن الشاب، ولكن المشتري، وهو بورجوازي صغير ما برح يساوم منذ ثلاثة أسابيع، قد عرض على المالك ثلاثمائة روبل، وأصرَّ عليها لا يريد أن يزيدها. فلما جاء دولتوف أتم الصفقة بكلمتين: قال للمالك وهو يمد اليه يده: «ثلاثمائة وخمسة وعشرون، موافق؟». ولكن هيئته كانت تدل على أنه مستعد للزيادة. فسحب المالك يده وأصرَّ على طلب أربعمائة روبل. فقال دولتوف وهو يمسك بيسراه يمنى المالك ويهم أن يضربها: تكفيك خمسة وعشرون!»، فقال المالك «لا». فاذا بدلتوف يقول فجأة وهو يضرب يد المالك ويهتزّ بجسمه كله: «فخذ إذاً خمسين! ليكن لك ثلاثمائة وخمسون! هيَّا هيئ الإيصال، وائت بالفتى. والآن إليك العربون: هل تكفي ورقتان حمراوان؟

ونزع دولتوف حزامه، واستلّ المال.

لم يسحب المالك يده، ولكن لم يبد عليه مع ذلك أنه موافق كل الموافقة، وظل يساوم في أمر «البقشيش» الذي يجب أن يناله البديل، وفي أمر المبلغ الذي لا بد من انفاقه عليه. ولم يتناول العربون.

قال له دولتوف وهو يدس له المال:

- لا تأثم.

وأضاف بلهجة رقيقة عذبة مقنعة:

- كلنا الى الموت صائرون.

فلم يسع المالك أن قال موافقاً:

- طيب.

وضرب على يده مرة أخرى، وأخذ يدعو قائلاً: «كان الله معنا».

وأوقظ البديل الذي كان نائماً منذ سكرة الأمس، فلم يدرك إدراكاً واضحاً لماذا أخذوا يفحصونه. وذهب الجميع الى مكتب التجنيد. كان البديل مرحاً وطلب أن يُسقى قليلاً من شراب الروم ليسترد صحوه ونشاطه. ونفحه دولتوف بشيء من المال. ولم يشعر بشيء من الخوف إلا حين دخل مقر الإدارة العسكرية. وقد مكثوا في غرفة الانتظار مدة طويلة واقفين، فكان المالك الشيخ الذي يرتدي قفطاناً أزرق، والبديل الشاب الذي يتدثر بفروة قصيرة، وقد ارتفع حاجباه وحملقت عيناه، يتهامسان كثيراً، ويطلبان إدخالهما الى حجرة من الحجرات، ويبحثان عن شخص من الأشخاص، وينزعان طاقيتيهما تحية لأصغر كاتب من الكتاب في كل لحظة، ويصغيان بانتباه شديد الى رأي أبداه سكرتير يعرفه المالك.

ويئسوا من إنجاز الأمر في ذلك اليوم نفسه يأساً تاماً، وأخذ البديل يزداد شعوره بالمرح وإحساسه بالحرية. وبينما هم كذلك إذا بدولتوف يبصر ايجور ميخائيلوفتش، فسرعان ما أقبل عليه يحييه ويتشبث به. فاستطاع إيجور ميخائيلوفش بحسن الحيلة وسداد التدبير أن يفرغ من الأمر كله في غضون ثلاث ساعات، فما كان أشد الدهشة التي شعر بها البديل، وما كان أشد الضجر الذي أحسه، حين رأى نفسه يُقتاد الى المكتب بين فرح الجميع، من الحارس الى الرئيس، فتُخلع ثيابه، ويُحلق شعره ويُلبَس ثياباً أخرى، ويؤمر بالخروج الى ما وراء الباب. وما هي الا دقائق خمس، حتى كان دولتوف يدفع المال، ويأخذ الايصال، ثم يودِّع المالك والبديل، ويمضي الى دار التاجر الذي كان يضم مجندي بوكروفسكويا. كان إيليا وامرأته جالسين في ركن من المطبخ في دار التاجر. فما إن دخل عليهما الشيخ حتى أمسكا عن الكلام، وحدقا اليه مذعنين مبغضين. وأخذ دولتوف يدعو الله على عادته، وحلَّ حزامه فأخرج ورقة ونادى ابنه الأكبر أغناتي وأم ايليوشكا اللذين كانا في الفناء. وقال يخاطب ابن أخيه وهو يدنو منه:

- لا ترتكب آثاماً يا ايليوشكا. لقد أغلظت لي القول بالأمس،... أتظن أنني لا أشفق عليك ولا أرثي لحالك؟ إني أتذكر كيف عهد أخي بك اليَّ، وأوصاني بك خيراً. أتظن أنني كنت أقبل تجنيدك لو كنت أملك القوة؟ وها قد رزقني الله ما أدفع به عنك التجنيد فلم أتردد لحظة واحدة. إليك الورقة...

قال له ذلك وهو يضع الإيصال على المائدة، وها هو يبسطه بأصابعه المنحنية التي لن تستقيم أبداً.

كان جميع فلاحي بوكروفسكويا وعمَّال التاجر وحتى عدد من الغرباء قد دخلوا فناء الدار، وحزروا الأمر، ولكن أحداً منهم لم يقاطع العجوز في حديثه المهيب.

- إليك الورقة. لقد دفعت أربعمائة روبل. فلا تلم عمك ولا تأخذ عليه مأخذاً.

كان ايليوشكا قد نهض ولكنه لا يعرف ماذا يقول. كانت شفتاه ترتعشان من شدة الانفعال. واقتربت منه الأم العجوز باكية ناشجة وأرادت أن ترتمي على عنقه، ولكن الشيخ أبعدها بيده في بطء وصرامة وتابع كلامه فقال:

- قلتَ لي بالأمس كلمة، فكنت كمن يغمد في قلبي خنجراً. حين حَضَرَت أباك الوفاة أمر بأن تكون لي ابناً. وإذا كنت قد أسأت إليك، فنحن جميعاً نرتكب آثاماً وخطايا، أليس كذلك أيها الأخوة الأرثوذكس؟

قال ذلك موجهاً سؤاله الى الفلاحين المحتشدين حولهم. ثم واصل كلامه قائلاً:

- هذه أمك، وهذه زوجك الشابة، وهذا هو الإيصال. تباً للمال! سامحوني، أرجوكم!

نطق بهذه الكلمات وهو يرفع حافة قفطانه، ويهوي جاثياً على ركبتيه، ويحيي ايليوشكا وامرأته بانحناء شديد. وحاول الشابان أن يصداه عن ذلك فلم يفلحا. ولم ينهض إلا بعد أن سجد واضعاً جبهته على الارض. ثم انتفض قائماً، وجلس على الدكة.

أخذت أم ايليوشكا وزوجته تبكيان فرحاً. وسرت في الجمهور همهمة استحسان.

قال واحد:

- هذا ما توجبه مشيئة الرب.

وقال ثان:

- المال؟ ما قيمة المال؟ لا يُشترى ولد بمال.

وهتف ثالث:

- شيء يفرح القلب. هذا رجل عادل صالح حقاً.

وبقي الفلاحون المجنَّدون وحدهم صامتين لا يقولون شيئاً، وخرجوا الى الفناء بهدوء من دون أن يحدثوا أية ضجة.

وبعد ساعتين كانت عربتا دولتوف تبرحان ظاهر المدينة. فأما العربة الأولى التي يجرها حصان أرقش خاسف البطن غارق في عرقه، فكان يجلس فيها الشيخ وأغناتي، وقد رُميت في قرارتها لفائف بسكويت وأقراص خبز. وأما العربة الثانية التي لا يقودها أحد فكانت تجلس فيها المرأة الشابة السعيدة هادئة الروع مع حماتها الملفعة بخمار. وكانت المرأة الشابة تحتضن زجاجة صغيرة من خمرة. وكان ايليوشكا جالساً قبالتهما مديراً ظهره للحصان، مصطبغ الوجه بحمرة شديدة، يترجح على مقعده وهو يقضم خبزاً ويتكلم بغير انقطاع.

كانت أصوات الكلام وقرقعة العجلات على الطرق المبلَّطة وحمحمات الخيل تمتزج جميعها صوتاً واحداً فرحاً. وأخذت الخيل تهز أذيالها وتسارع خببها على قدر احساسها بأنها تقترب من المنزل لتأوي الى الاسطبل. فكان الناس، مشاتهم والراكبون، يشخصون بأبصارهم الى هذه الاسرة السعيدة على غير ارادة منهم.

وفي اللحظة التي خرج فيها آل دولتوف من المدينة، تخطوا طائفة

من المجندين. كان المجندون قد تحلقوا دائرة أمام حانة. وكان أحدهم، بمظهره الغريب الذي يضفيه على الشاب أن يكون شعر رأسه محلوقاً وأن ترتدّ كسكيتته الرمادية حتى تبلغ منه الرقبة، يعزف على البلالايكا عزفاً فيه كثير من الحذق والمهارة. وكان شاب ثان يرقص في وسط الدائرة حاسر الرأس ممسكاً بيده زجاجة خمر. وقد نزل أغناتي هناك ليربط عنان الحصان. وأخذ آل دولتوف ينظرون الى الراقص بكثير من الشغف ويصفقون له بكثير من الفرح. وكان يبدو على المجنَّد أنه لا يرى أحداً، ولكنه كان يحس بأن الجمهور الذي يعجب به يكبر عدده، فكان ذلك يزيده قوة ورشاقة. كان المجند يرقص رقصاً رائعاً. انه مقطب الحاجبين، أحمر الوجه، ساكن الرأس، جامد الفم على ابتسامة فقدت تعبيرها منذ زمن طويل. وقد صرف كل همه وركز جميع قوى كيانه على أن يضع قدماً بعد أخرى بأقصى سرعة يطيقها، فتارة يكون الكعب هو الذي يسقط على الارض، وتارة تكون أطراف الأصابع هي التي تسقط لا الكعب، وتارة يتوقف على حين فجأة، فيغمز بعينه العازف على البالالايكا، فيأخذ العازف يرعّش أوتار آلته كلها بمزيد من السرعة، حتى لينقر بأصابعه صندوقها. وكان المجند يمسك عن الرقص أحياناً، ولكنه لا يبدو عندئذ ساكناً، وانما يبدو راقصاً، ثم اذا هو يستأنف تحركه ببطء هازاً كتفيه، ثم يعلو ويهبط على رؤوس الأصابع بغتة، ويندفع راقصاً «برسيادكا». فيضحك الصبية، وتهز النساء رؤوسها، ويبتسم الرجال مستحسنين.

وكان ضابط صف عجوز واقفاً بقرب الراقص جامداً لا يتحرك. كان كأنه يقول: «انكم تُدهشون وتعجبون، ولكننا نحن نعرف هذا منذ

زمـان بعيـد». وكان واضحاً أن العـازف قد نال منه التعـب. فما هي الا لحظة حتى كان ينظر الى ما حوله بغير اكتراث، ويصدر نغماً ناشـزاً، ثم اذا هو يضرب صندوق الآلة، فيتوقف الرقص حالاً.

صاح عازف البالالايكا يقول للراقص وهو يشير له الى دولتوف:

– هيه إيليوشا! هذا هو الذي افتدى بك ابن أخيه!

– أين هو؟ آ... صديقي!

كذلك هتف إيليوشـا، المجنَّد الذي اشـتراه دولتوف، والذي تعبت ساقاه من الرقص فجلس على الارض ورفع رأسه يشرب قنينة خمرة.

وتقدم من العربة وصرخ يقول منادياً صاحب الحانة:

– ميشكا! اليَّ بقدح! هذه فرحة كبيرة يا صديقي العزيز!

وألقى رأسه الثمل على العربة، وأخذ يسكب خمراً للرجال والنساء، فشرب الفلاحون ورفضت النساء أن تشربن.

وقال آليوشا وهو يعانق المرأة العجوز:

– أصدقائي الأحبة! ماذا يمكنني أن أهدي إليكم.

وكان بين الجمهور بائعة حلوى، فدنا إيليوشـا من بسـطتها، فتناول كل ما كان عندها من بضاعة وألقاه في العربة، وهو يقول لها:

– لا تخافي! سـأدفع الثمن كاملاً. واسـتل كيسه من جيبه وألقاه الى صاحب الحانة ميشكا.

كان واقفاً مسـتنداً الى العربة مغرورق العينين ينظر الى هؤلاء الذين كانوا جالسين فيها.

وقال يسأل:

– من هي الأم؟ أنت، هه؟ سأعطيها هي أيضاً.

وفكَّر لحظة ثم دسَّ يده في جيبه فأخرج منه منديلاً جديداً مطوياً، وسحب المنشفة التي كان يتخذها حزاماً تحت ردائه، وانتزع عن عنقه وشاحاً أحمر، وجعل من هذه الأشياء كلها كرةً واحدة ألقاها على ركبتي المرأة العجوز قائلاً بصوت لا يزال يزداد خفوتاً:

- خذي! انني أهب لك هذا!

- لماذا؟ شكراً يا بني.

ثم أردفت مخاطبةً دولتوف الذي كان يقترب من عربتها:

- انظر الى هذا الفتى ما أعظم شهامته!

فصمت إيليوشا ثم انحنى رأسه كأنما هو يغفو، وقال:

- من أجلكم أرحل، من أجلكم أهلك. لهذا أهدي اليكم هدايا.

قال واحد في الجمهور:

- أظن أن له أماً هو الآخر. يا للفتى الطيب!.. ما أشقاه! انه يثير الحزن في القلب!...

فرفع إيليوشا رأسه وقال:

- لي أم وأب. هجرني الجميع.

ثم أضاف وهو يتناول يد أم ايليوشا:

- اسمعي أنت أيتها الام. لقد أهديت اليك هدية. فاسمعيني، ناشدتك يسوع المسيح. اذهبي الى قرية فودنويا، واسألي هناك عن العجوز نيكونوفنا. هي أمي، هل فهمت؟ وقولي لهذه العجوز نيكونوفنا، التي يقع بيتها في آخر الطريق عند البئر الجديدة، قولي لها إن إيليوشا... أي ابنها... موسيقي... يعزف!...

قال الفتى هذه الكلمات الأخيرة صارخاً:

ثم عاد يرقص مجمجماً، ورمى الى الارض زجاجة الخمر التي كان فيها بقية.

وصعد اغناتي الى العربة وأراد أن يسير. فقالت العجوز وهي تتدثر بمعطفها:

- استودعك الله. كان الله في عونك!

فوقف إيليوشا فجأة وصرخ يقول ملوحاً بقبضتي يديه، مهدداً متوعداً:

- اذهبوا الى الشيطان!

قالت أم ايليوشا مرتاعة وهي ترسم اشارة الصليب:

- آه... رباه!

وضرب اغناتي الحصان بسوطه، فابتعدت العربتان. ولبث إيليوشا، المجنَّد، واقفاً في وسط الطريق، شاداً قبضتي يديه، معبراً بوجهه عن غضب شديد، وقد طفق يرمي الفلاحين بشتائمه المقذعة صارخاً، وقال أخيراً:

- لماذا وقفتم؟ اذهبوا الى الجحيم أيها الوحوش! لن تفلتوا من يدي يا أوباش!

قال ذلك بصوت متقطع، وسقط ثقيلاً على الأرض.

وبعد قليل كان آل دولتوف قد نأوا فغابت عنهم المدينة، وغاب عنهم منظر المجنَّدين. حتى اذا قطعوا خمسة فراسخ والخيل تسير خطواً، نزل أغناتي من العربة التي كان أبوه قد غفا فيها، وذهب الى ايليوشكا.

شرب الاثنان الزجاجة التي جُلبت من المدينة. وما هي الا برهة

وجيزة حتى جعل ايليا ينشد أغنية تردد النساء لازمتها، ويحدو أغناني الخيل على ايقاعها طرباً جذلاً. وأقبلت عربة البريد مسرعة حتى اذا صارت في محاذاة العربتين الفرحتين صاح حوذيها يشجع خيله، ونظر طارفاً بعينيه الى الفلاحين والنساء المحمرَّة وجوههم، المرتجة أبدانهم، وهم يغنون مبتهجين أعظم الابتهاج.

Leo Tolstoy



ليو تولستوي

السعادة الزوجية و بوليكوشكا

روايتان

قال: ما ذهب لا يعود، ولن يعود أبداً.

وقد رقَّ صوته أثناء نطقه بهذه العبارة.

قلت وأنا أضع يدي على كتفه: بل عاد كل شيء منذ الآن.

فأمسك يدي يشد عليها وقال: الحق أنني أتحسر وأبكي على ذلك الحب الذي زال ولن تدبَّ فيه الحياة ثانية. من المذنب! لا أدري. لا يزال هناك حب، لكنه ليس ذلك الحب الماضي. ولا يزال مكانه باقياً، لكنه ليس الآن إلا ألماً.

من الحديقة كانت أشذاء الليل العبقة تصّاعد الينا أجمل أرجاً، وكانت أصوات السكون الساجي تصل الى أسماعنا أشد مهابة، وكانت النجوم تطلع في السماء أوفر عدداً. ونظرت الى سرجي، فإذا أنا أشعر بتخفف وتروّح، كأن نفسي قد تحررت فجأة من عصب مريض كان يسبب ألماً شديداً. وأدركت أن الحب الماضي قد ذهب الى غير رجعة، كالزمان نفسه الذي لا يؤوب الى وراء، بل أدركت أن عودة ذلك الحب ليست مستحيلة فحسب، بل هي أيضاً مربكة متعبة مؤلمة. حتى لقد تساءلت: هل كان ذلك العهد الماضي سعيداً حقاً الى الحد الذي كان يزينه لي خيالي؟ وما أبعد ذلك العهد! ما أبعده!...

ISBN 978-9953-582-98-6

9 789953 582986

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com